رواية

إيفلين وو

حفنة من تراب

ترجمة : أسامة منزلجي

إيفلين وو

حفنة من تراب

ترجمة: أسامة منزلجي

" ... سأُريكَ شيئاً مُختلفاً عن ظلِّك في الصباح
يسير بخُطى واسعة خلفك
أو عن ظلِّك في المساء ينهضُ ليستقبلك،
سأُريكَ خوفكَ في حفنةٍ من تراب "

من " الأرض اليباب"

كل الشخصيات، والأسماء والحوادث الواردة في هذا الكتاب، وهميّة بأكملها.

الفصل الأول

في منزل آل بيفر

" هل تأذّى أحد ؟ "

قالت السيدة ويفر " لا أحد، وشكراً لله على هذا، فيما عدا خادمتين فقدتا صوابهما وقفزتا من سقفٍ زجاجيّ إلى الفناء المُعبَّد. ولم تتعرّضا للخطر. وأخشى أنّ النار لم تصل إلى غرف النوم. ومع ذلك، هي بحاجة إلى ترميم، فكل شيء تلوَّث بالسواد والدخان وغرق بالمياه ولحسن الحظ كان لديهم ذلك النوع العتيق الطِراز من المطافئ الذي يُدمّر كل شيء. في الحقيقة ليس لدينا ما نشتكي منه، فالغرف الرئيسية قد دمِّرَت تماماً من الداخل وكل شيء مُؤَّمن عليه. إنّ سيلفيا نيوبورت تعرف الجماعة. يجب أنْ أذهب إليهم هذا الصباح قبل أنْ تنقضَّ عليهم الغولة السيدة شتر "

وقفتْ السيدة بيفر وظهرها نحو نار الموقد، وهي تأكل وجبتها الصباحية من اللبن المُصفّى. كانت تُقرِّب علبة الكرتون من ذقنها وتلتهم بالملعقة.

" يا إلهي، ما أسوأ مذاقه. أتمنى لو تأخذه، يا جون. تبدو مُتعباً جداً في الأيام الأخيرة. لا أدري كيف أعيشُ يومي من دونه "

" ولكن، ماما، ليس لديّ الكثير لأقوم به مثلك "

" هذا صحيح، يا بُنيّ "

كان جون بيفر يعيشُ مع أمه في منزل سسكس غاردنز حيث انتقلا بعد وفاة والده. لم يكن فيه ما يوحي بالحنايا الأنيقة بتقشُّف التي خطّطت السيدة بيفر له من أجل زبائنها. كان مزدحماً بالأثاث غير القابل للبيع، يكفي لمنزلين كبيرَين، دون الادّعاء بالانتماء إلى أي فترة زمنية، وخاصة ليس إلى الحاضر. وأفضل القِطع التي تثير لدى السيدة بيفر اهتماماً عاطفياً كانت موجودة في غرفة الجلوس التي على شكل حرف L في الطابق العلوي.

خُصِّصَتْ لبيفر غرفة جلوس صغيرة مُظلِمة (تقع في الطابق الأرضي، خلف غرفة الطعام) وجهاز هاتف. وكانت خادم عجوز تهتم بملابسه، وأيضاً تنفضُ الغبار وتُلمِّع وتنظِّمُ بصورة متناسقة على طاولة الزينة وعلى أعلى خزانة الأدراج تشكيلةً من الأغراض الضخمة الرصينة التي كانت موجودة في غرفة ملابس والده، وهي هدايا لا يمكن إتلافها، تلقّاها بمناسبة زواجه وبلوغه عامه الحادي والعشرين، من العاج، نُحاسية الحواف، مُلبَّسة بجلد الخنازير، مُتوجَّة بشِعار وذات قاعدة من ذهب، توحي بالصِبغة الذكورية المُكلفة للحقبة الإدواردية[1]- وقوارير سباق وصيد، وعلب سيجار، وبرطمانات تبغ، وتماثيل لفرسان خيل، وغلايين مرشوم[2] دقيقة الصنع، ومِزررات[3] وفراشٍ لتنظيف القبعات.

١ – الإدواردية : في المعتاد هي النسبة إلى الفترة التي حكم خلالها الملك إدوارد السابع (١٨٤١ – ١٩١٠) إنكلترا وأيرلندا .

٢ – مرشوم : هو معدن قِوامه سيليكات المغنيزيوم تُصنَع منه الغلايين .

٣ – المزررة : هي كلاّبة لتزرير القفازات والأحذية وما شابه .

كان هناك أربعة من الخدم، وكلهنّ من الإناث، وكلّهن عجائز، ما عدا واحدة.

حين يسأل أحدهم بيفر عمّا يدفعه إلى المكوث هناك بدل الاستقلال بنفسه، كان أحياناً يقول إنه يعتقد أنَّ أمه تريده أنْ يُقيم هناك (على الرغم من انشغالها بالعمل إلا أنها كانت تشعر بالوحدة)، وأحياناً يقول إنَّ ذلك يوفِّرُ عليه مبلغ خمسة جنيهات على الأقلّ في الأسبوع.

كان دخله الإجمالي يختلف ويدور حول مبلغ ستة جنيهات في الأسبوع، وهذا توفير هامّ.

كان في الخامسة والعشرين من العمر. ومنذ أنْ غادر أوكسفورد وحتى بداية الانهيار عملَ لصالح وكالة للإعلانات. ومنذ ذلك الحين لم يتمكن أحد من إيجاد أي عمل مناسب له. لذا أصبح يتأخر في الاستيقاظ من النوم ويجلس بجوار الهاتف في أغلب أوقات النهار، أملاً في أنْ يرنّ.

وكلما أُتيحَ للسيدة بيفر، كانت تأخذ مدة ساعة من الزمن للاستراحة في منتصف الفترة الصباحية. كانت دائماً تتواجد في محلها التجاري بانتظام عند الساعة التاسعة، وبحلول الساعة الحادية عشرة والنصف تحتاج إلى تناول وجبة خفيفة. ثم، إذا لم يظهر زبون بارز، تستقل سيارتها ذات المقعدَين وتتوجه إلى منزل سسكس غادنز. ويكون بيفر حينئذٍ عادةً قد ارتدى ملابسه وأصبحت هي بالتدريج تُقدِّر أوقات تبادل الثرثرة الصباحيّة.

" كيف كانت سهرتك؟ "

" اتّصلتْ بي أودري عند الساعة الثامنة ودعتني إلى العشاء. كنا

عشرة في مطعم " الإمباسي "، جو كئيب. بعد ذلك انتقلنا جميعاً إلى حفلٍ أقامته امرأة اسمها دو تروميه "

" أعرفُ مَنْ تعني. إنها أميركية. لم تدفع ثمن غطاء الكرسي التوال-دو-جوي الذي صنعناه لها في نيسان الفائت. أنا أيضاً أمضيتُ وقتاً مملاً، لم ألمس ورقة لعب واحدة طوال الأمسية وخرجتُ خاسرة أربعة جنيهات وعشرة سنتات "

" مسكينة يا ماما "

" سوف أتناول طعام الغداء في منزل فيولا تشازم. ماذا ستفعل؟ أخشى أني لم أطلب أي شيء هنا "

" لا شيء حتى الآن. يمكنني دائماً أنْ أعرّج على نادي برات "

" لكنه مُكلف كثيراً. أنا متأكدة من أننا إذا طلبنا من تشامبرز يمكنها أنْ تُحضِر لكَ شيئاً إلى هنا. حسبتُ أنكَ كنتَ متأكداً من أنك ستخرج "

" حسنٌ، قد أفعلْ. الساعة لم تبلغ الثانية عشرة بعد "

(مُعظم الدعوات التي يتلقّاها بيفر كانت تصلِه في الدقيقة الأخيرة، وأحياناً بعد ذلك، بعد أنْ يكون قد باشر تناول الطعام وحيداً من صينية... " جون، عزيزي، لقد حدثت فوضى ووصلَتْ سونيا من دون ريغي. هلاّ تصرَّفتَ كملاك وأنقذتني؟ ولكن أسرِعْ، لأننا سندخل الآن"... ثم يخرج مباشرةً ويستقل سيارة أجرة ويصل، مع عبارات الاعتذار، بعد انتهاء تناول الطبق الأول... وإحدى المشادات التي وقعت مع أمه جرت بعد أنْ غادر حفلَ غداءٍ أُقيمَ على شرفها بهذه الطريقة)

" أين ستُمضي نهاية الأسبوع؟ "

" في هتون "

" لِمَنْ هذا ؟ لقد نسيت "

" لتوني لاست "

" نعم، طبعاً. هي لطيفة، وهو بليد. لم أكنْ أعلم أنك تعرفهما "

" في الواقع، ليس بالضبط. لقد طلبَ توني مني ذلك ونحن في نادي برات ذات ليلة. لعله نسي "

" أرسلْ برقية وذكِّره. هذا أفضل بكثير من الاتصال بالهاتف. هكذا لا تُتاح لهما الفرصة لفبركة الأعذار. أرسله غداً قبل أنْ تنطلق مباشرةً. إنهما يدينان لي بدعوة "

" ماذا تعرفين عنهما ؟ "

" كنتُ أراها كثيراً قبل أنْ تتزوج. كان اسمها بريندا ريكس، ابنة لورد سينت، غاية في الجمال، كالحورية. وقد اعتقدَ الجميع في وقتٍ ما أنها ستتزوج من جوك غرانت-منزيس. وضيَّعَتْ نفسها مع توني لاست، إنه متزمّت. في رأيي حان الوقت بالنسبة إليها لتشعر بالضجر. إنهما متزوجان منذ خمس أو ست سنوات. وهما ثريّان ولكن كل ما يجري في حياتهما يصبّ في خانة المحافظة على المنزل. أنا لم أشاهده قط ولكنْ لديّ فكرة أنه ضخم وشديد القبح. لديهما طفل واحد على الأقلّ، وربما أكثر "

" ماما ، أنتِ رائعة. أعتقد أنكِ تعرفين كل شيء عن كل شخص "

" هذا يُساعدَ كثيراً. كل ما يتطلّبه الأمر الانتباه إلى الناس وهم يتكلمون "

دخَّنتْ السيدة بيفر سيجارة ومن ثم قادت السيارة عائدة إلى

محلّها. اشترتْ سيدة أميركية لحافَين مُرصّعين بالرقع الملوّنة بسعر ثلاثين جنيه للواحد، واتصلَتْ الليدي مترولاند هاتفياً بشأنْ سقف غرفة الحمّام، ودفعَ شاب مجهول الهوية مقدماً ثمناً لوسادة، وخلال وقوع هذه الأحداث، كان في استطاعة السيدة بيفر أنْ تهبط إلى الطابق الأرضي حيث كانت فتاتان مُكتئبتان توضبان مظلات للمصابيح. كان الجو بارداً في الأسفل على الرغم من وجود مدفأة صغيرة تعمل بالزيت، والجدران دائماً رطبة. كانت الفتاتان تكتسبان رشاقة تامة، لاحظت ذلك بسرور، خاصة تلك القصيرة القامة التي كانت تعالج الأقفاص كما الرجل.

قالت " هكذا يكون العمل، أنتِ تُحسنين العمل يا جويس، وقريباً سأكلُ إليكِ عملاً أهمّ "

" شكراً لك، سيدة بيفرَ "

قرَّرتْ السيدة بيفر أنه يُستحسن أنْ تبقيا في قسم التوضيب بعض الوقت، قدر ما تستطيعان احتماله. لم تكن أيٌ منهما تتصف بالأناقة المطلوبة للعمل في القسم العلوي. وكلتاهما كانتا تتلقيان علاوة جيدة لكي تتعلمان فنّ السيدة بيفر.

بقيَ بيفر جالساً بجوار جهاز الهاتف الخاص به. رنّ مرّةً وقال صوت " السيد بيفر؟ هل لكَ أنْ تبقى على الخط، يا سيدي، السيدة تيبنغ تودّ أنْ تتحدث إليك "

كان الصمت الفاصل مشحوناً بالتوقُّع الممتع. كان يعلم أنَّ السيدة تيبنغ تُقيم حفل غداء في ذلك اليوم، وكانا في الليلة السابقة قد أمضيا بعض الوقت معاً وأحرزَ نجاحاً خاصاً معها. وقال أحدهم فجأةً...

" أوه، سيد بيفر، أنا شديدة الأسف لإزعاجك. كنتُ أتساءل، هل

لكَ أنْ تُخبرني باسم الشاب الذي قدَّمته إليّ في الليلة الفائتة في منزل مدام دو ترومية؟ صاحب الشارب المائل للاحمرار. أعتقد أنه كان في البرلمان "

" أعتقد أنكِ تقصدين جوك غرانت-منزيس "

" نعم، هذا هو الاسم. هل لديك أي فكرة، أين يمكنني أنْ أجده؟ "

" إنه مكتوب في مفكرتي ولكن لا أعتقد أنه سيكون في المنزل الآن. ربما تستطيعين أنْ تجديه في نادي برات عند حوالي الساعة الواحدة. إنه دائماً هناك تقريباً "

" جوك غرانت-منزيس، نادي بريت. أشكركَ شكراً جزيلاً. هذا لطفٌ منك. آمل أنْ تأتي لزيارتي ذات يوم. إلى اللقاء "

بعد ذلك ران الصمت على الهاتف.

عند حلول الساعة الواحدة استولى اليأس على بيفر. فوضعَ عليه معطفه، وارتدى قفازه، واعتمر قبعته السوداء المستديرة وانطلقَ مع مظلّته المضبوبة بأناقة إلى ناديه، مُستقلاً حافلة البنس حتى قارعة شارع بوند.

كان جو العتق يسود نادي برات، مُستمداً من واجهته الجيورجية الأنيقة، ذلك أنه كان نادياً حديث العهد، أُسِّسَ وسط فورة فترة الوداعة التي تبعت انتهاء الحرب مباشرة. كان مُقرراً أنْ يتوجه إلى الشبان، أنْ يكون مكاناً يمكنهم فيه أنْ يسترخوا ويمددوا سيقانهم أمام موقد النار وأنْ يمرحوا في غرفة لعب الورق بعيداً عن تجهُّم الأعضاء الأكبر سناً. أما الآن فأولئك المؤسسون أنفسهم يجتازون مرحلة منتصف العمر، أضحوا

أثقل حركة، وأكثر صَلَعاً وازدادت حمرة وجوههم عمّا كانت عليه بُعيد تسريحهم من الجيش، لكنَّ مرحهم يلحّ وقد جاء دورهم الآن ليُحرِجوا خلفاءهم، ويأسون لافتقارهم إلى سِمات الرجولة والاحترام.

كانت هناك ستة من الظهور العريضة منعَتْ بيفر من بلوغ البار. فاستقرّ على إحدى الأرائك في الغرفة الخارجية وراح يُقلّب صفحات صحيفة " النيويوركر "، في انتظار ظهور شخص يعرفه.

صعدَ جوك غرانت-منزيس إلى الطابق العلِوي. حيّاه الرجال الجالسون على البار قائلين " مرحبا، جوك، ماذا ستشرب؟ " أو، يقولون ببساطة أشدّ " ما الأخبار، أيها الفتى العزيز؟ ". كان أصغر سناً من أنْ يكون قد اشترك في الحرب لكنَّ أولئك الرجال وجدوا أنه لا بأس به، أحبّوه أكثر مما أحبوا بيفر الذي، في اعتقادهم، ما كان ينبغي أنْ ينتسب إلى النادي أصلاً. لكنَّ جوك توقفَ ليتحدث مع بيفر. قال " حسن، ياعزيزي، ماذا تشرب؟ "

" لا شيء حتى الآن "، ونظر بيفر في ساعة يده، " ولكن، أعتقد أنه حان الوقت لأشربَ كأس. براندي مع جعة الزنجبيل "

نادى جوك على عامل البار ومن ثم قال :

" مَنْ تلك العجوز التي تمنيت لي أنْ أتعرَّفَ إليها في حفلِ الليلة الفائتة؟ "

" إنها السيدة تيبنغ "

" هذا ما اعتقدته. وهذا يُفسّر الأمر. لقد بلّغوني رسالة في الطابق السفلي تقول إنَّ امرأةً تحمل اسماً يُشبهه تريد مني أنْ أتناولَ الغداء معها "

" وهل ستذهب؟ "

" كلا، أنا لا أُحسن التصرُّف في حفلات الغداء. ثم إنني قرّرتُ عندما استيقظت أنْ أتناول المحار هنا "

جاء عامل البار مع المشروب.

" سيدي، سيد بيفر، لي عليك عشرة شلنات في حسابي من الشهر الفائت "

"أوه، شكراً لكَ، يا ماكدوغال، ذكِّرني في وقتٍ لاحق، هلاّ فعلت؟"

" حسن، يا سيدي "

قال بيفر " سأذهب إلى هتون غداً "

" أحقاً؟ بلِّغْ حبي لتوني وبريندا "

" كيف الحال؟ "

" هادئ جداً وممتع "

" لا لعب ورق؟ "

" أوه، كلا، لا شيء من هذا. فقط قليل من البريدج ولعب الطاولة وقليل من البوكر مع الجيران "

" المكان مريح؟ "

" لا بأس. كثير من الشراب. لا يوجد ما يكفي من الحمّامات. ويمكنكَ أنْ تلزم السرير طوال فترة الصباح "

" أنا لم أقابل بريندا قط "

" سوف تحبها، إنها فتاة رائعة. غالباً ما أفكّر في أنَّ توني لاست هو أسعد مَنْ أعرفهم. لديه ما يكفي من المال، ويحب المكان، ولديه ابن مولع به، وزوجة مُخلصة، ولا يحمل أي همّ "

" جديرٌ بالحسد. هل تعرف شخصاً آخر ذاهباً إلى هناك؟ كنتُ أتساءل إنْ كان في استطاعتي أنْ أصل برفقة أحد إلى هناك "

" يؤسفني أني لا أعرف أحداً. إنَّ الأمر سهل جداً بالقطار "

" نعم، لكنَّ الطريق ممتع أكثر بالسيارة "

" وأرخص "

" نعم، أعتقد أنه أرخص... حسن، سوف أهبط لأتناول طعام الغداء. ألا ترغب في آخر؟ "

نهضَ بيفر ليذهب.

" نعم، أعتقد أني سأفعل "

" أوه، حسن. ماكدوغال. اثنين آخرين، من فضلك "

قال ماكدوغال " هل أقيّدهما على الحساب، يا سيدي؟ "

" نعم، إنْ كان لا بد أنْ تفعل "

لاحقاً، في البار، قال جوك " لقد جعلتُ بيفر يدفع ثمن مشروب "

" لا يمكن أنْ يكون قد أحبَّ ذلك "

" كان شديد الحاجة إليه. أتعرف أي شيء عن الخنازير؟ "

" كلا. لماذا؟ "

" فقط لأنَّهم لا ينفكون يكتبون لي عنها من دائرتي الانتخابية "

هبط بيفر إلى الطابق السفلي ولكن قبل ولوج قاعة الطعام أمر الساقي أنْ يتصل هاتفياً بمنزله ليرى إنْ كانت قد وصلت أي رسالة لأجله.

" اتصلتْ السيد تيبنغ قبل بضع دقائق وسألتْ إنْ كان في وسعك أنْ تتناول طعام الغداء معها اليوم "

" هل لكَ أنْ تتصل بها وتقول إنَّ ذلك يسعدني، ولكنني قد أتأخّر بضع دقائق؟ "

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف بقليل حين غادر نادي برات وراح يسير بخُطى سريعة باتجاه شارع هيل.

الفصل الثاني

قوطي إنكليزي

-١-

بين قريتيّ هيتون وكومبتون لاست تقع حديقة هيتون آبي الشاسعة. وهذا المنزل، الذي كان في السابق أحد أبرز منازل المقاطعة، أُعيدَ بناؤه بالكامل في عام ١٨٦٤ على الطِراز القوطي وهو الآن لا يحظى باهتمام أحد. فالأرض المُحيطة به مفتوحة للعامة يومياً وحتى غروب الشمس ويمكن مشاهدة المنزل بتقديم طلب مكتوب. إنه يحتوي بعض اللوحات والأثاث في حالة جيدة. والمصطبة تُشرِفُ على مشهدٍ جميل.

هذه الفِقرة المأخوذة من دليل المقاطعة لم تزعج توني لاست البتّة. فقد قيلَتْ فيه أشياء أسوأ. فعمته فرانسيس، التي عضّتها مرارة نشأتها في فاقةٍ متواصلة، علّقَتْ بالقول إنه لابد أنَّ مُخططات المنزل أخذها السيد بكسنيف من أحد تصميمات تلاميذه من الميتم. ولكن لم يكن هناك حجر قرميد مصقول أو آجر مُزيّن بالألوان ليس عزيزاً على قلب توني. وكان يعلم أنَّ إدارته ليست أمراً مناسباً، بصورة ما، ولكن كم كان منزلاً ضخماً؟ لكنه لم يكن يتأثّر بالأفكار الحديثة عن الراحة، كان يفكّر في إجراء بعض التحسينات الصغيرة، سوف يُنفّذها حالما تُسدَّد ضرائب الإرث. لكنَّ السِمة العامة وجو المكان، وصفّ الشرفات المنفتحة

في وجه السماء، وبرج الساعة المركزي حيث تزعج دقاتها كل ربع ساعة الجميع ما عدا ذوي النوم الثقيل، والكآبة الكنسيّة التي تعمّ القاعة الكبرى، وسقفها ذا الحنايا والرسوم المُشجّرة باللونين الأحمر والذهبي، المدعوم بأعمدة من الغرانيت المصقول وتيجان من أغصان الكرمة، شبه مُضاءة في النهار من خلال نوافذ رمحيّة من الزجاج المرسوم عليه شعار النبالة، وليلاً بمصباح وقود من النحاس والحديد المُطاوع، وهو الآن مزوّد بأسلاك ومُثبَّتٌ فيه عشرون مصباحاً كهربائياً، وهبّات الهواء الساخن التي انبعثتْ فجأةً على القدمين، من خلال مصبعة من ثلاث وريقات من الحديد الصبّ من جهاز تدفئة عتيق في الأسفل، وبرودة الكهوف للأروقة الأبعد حيث كان، من باب الاقتصاد في الفحم، أقفل الأنابيب، وقاعة الطعام بسقفها المُدعَّم بمتوازيين وبهو مُعمَّد عتيق من خشب الراتنج، وغرف النوم بقوائمها النحاسية، وكل منها ذو إفريز من الكتابة الغوطية، وكل منها يحملُ اسماً مأخوذاً من مالوري، إيزولت، إلين، موردرد ومرلن، غوين وبديفر، لانسلوت، برسيفال، تريسترام، غالاهار، وغرفة تغيير ملابسه الخاصة، ومورغان لو فاي، وغوينيفر بريندا، حيث يقوم سريره على منصّة، والجدران مُلبَّسة بالأقمشة المُطرّزة، والموَقد الشبيه بجدَث من القرن الثالث عشر، التي يمكن من خلال مشربيتها، في الأيام التي تتصف بالصفاء الاستثنائي، عدُّ أبراج ستٍ من الكنائس - هذه الأشياء كلها التي نشأ معها كانت مصدر بهجة وإثارة مستمرين بالنسبة إلى توني، أشياء هي مزيج من الذكرى الرقيقة والملكية الجديرة بالفخر.

كان يُدركُ أنها ليست مُسايرة للموضة. قبل عشرين عاماً كان

الناس يحبون الأشياء نصف الخشبية والأواني القصديرية العتيقة، الآن يحبون الجِرار وصفوف الأعمدة، ولكن سيأتي وقت، ربما في أيام جون أندرو، تُعيد فيه الآراء هيتون إلى مكانتها الصحيحة. ومنذ الآن يُشار إليها على أنها " مسلّية "، وقد طلب شاب متحضّر جداً السماح له بالتقاط صور لها لصالح مجلة دوريّة عن الهندسة المعمارية.

لم يكن سقف مورغان لو فاي في أحسن حال. ومن أجل إضفاء مظهر من الخشب ذي الزخرفة الغائرة، ثُبِّتت ألواح منحوتة بمسامير على شكل رقعة شطرنج عبر الجصّ، رُسِمَتْ على هيئة شارات عسكرية باللونين الأزرق والذهبي. والمربعات بينها زُيِّنَت على التوالي بورود تيودورية وبأزهار الزنبق. لكنَّ الرطوبة تسرّبت إلى إحدى الزوايا، تاركةً بقعة كبيرة بهت فيها البريق الذهبي وتقشَّرَ اللون، وفي مكانٍ آخر انحرفَتْ الشرائح الخشبية وانفصلتْ عن الجصّ. تفحَّصَ توني تلك العيوب، وهو مُستلقٍ على السرير، خلال عشر دقائق رصينة التي تفصل بين الاستيقاظ وقرع الجرس، وعزمَ من جديد على وضع الأمور في نِصابها. وتساءلَ ما إذا كان سهلاً، هذه الأيام، العثور على حِرفيّ قادر على القيام بذلك العمل الدقيق.

أصبحتْ مورغان لو فاي غرفته منذ أنْ غادر غرفة الحضانة. وقد وُضِعَ هناك لكي يكون على مرمى السمع إذا ما نادى عليه أبواه (المتلازمان في غوينيفر)، وبقيَ حتى فترة متأخرة جداً من حياته عُرضَةً للكوابيس. ولم يكن قد أخذ شيئاً من الغرفة منذ أنْ نام هناك، بل في كل عام كان يُضافُ إلى محتوياتها، بحيث أضحت الآن مَعْرِضاً

يمثل كل مرحلة من مراحل فترة مراهقته - الصورة المؤطَّرة لمُدرَّعة (مُلحق مُلوَّن من " الأصحاب ")، كل مدافعها تنفثُ لهباً ودخاناً، وصورة فوتوغرافية لمجموعة من مدرسته الخاصة، وخزانة تُدعى " المتحف "، مملوءة بنتاجِ عددٍ من الهوايات المتفرقة، البيض، والفراشات، والمستحاثات، والقطع النقدية، ووالداه، في صورة جلدية مزدوجة كانت موضوعة بجوار سريره في المدرسة، وصورة بريندا، قبل ثماني سنوات حين كان يُحاولُ أنْ يتقدَّم لخطبتها، بريندا مع جون، أُخِذَتْ بُعيد حفل التعميد مباشرة، وصورة بالحفر المائي تصور هيتون، كما كانتِ إلى أنْ قام جدّه الأكبر بتحطيمها، وبضعة رفوف من الكتب، " بيفيس "، "الزخرفة على الخشب في المنزل "، " تحضير الأرواح للجميع "، " الزوار الشبان "، " قانون المالك والمستأجِر "، " وداعاً للسلاح ".

كان الناس في أرجاء إنكلترا كلها يستيقظون، مُصابون بالغثيان ومُكتئبون. استلقى توني عشر دقائق بسعادة غامرة يُخطِّط لترميم سقفه. ثم رنَّ الجرس.

" ألم تستيقظ سيادتها بعد؟ "

" قبل نحو ربع ساعة تقريباً، يا سيدي "

" إذن سأتناول طعام الفطور في غرفتها "

ارتدى مبذله وخفَه وانتقل إلى غوينيفر.

كانت بريندا مستلقية على المنصَّة.

كانت قد أصرَّت على تصميم سرير حديث الطِراز. كانت صينيتها إلى جوارها واللحاف مُغطى بنِثار من مغلّفات الرسائل، برسائل وصحف

يومية. كان رأسها مستنداً إلى وسادة زرقاء صغيرة جداً، ووجهها المجرَّد من المساحيق خالياً تقريباً من اللون، لؤلؤي إلى وردي، لا يكاد يختلف في لونه عن لون ذراعيها وعنقها.

قال توني " ما الأخبار؟ "

" قبّلني "

جلسَ بجوار الصينية عند رأس السرير، ومالت إلى الأمام نحوه (كحورية تبرز من الأعماق السحيقة للمياه الصافية). أشاحت بشفتيها بعيداً وحكّت وجهها بوجنته كقطة. كانت تلك طريقتها.

" هل من أحداث مُثيرة؟ "

التقط بعضاً من الرسائل.

" كلا. ماما تريد من جدتي أنْ ترسل مقاس جون. إنها تنسج له شيئاً لعيد الميلاد. والمحافظ يريد مني أنْ أَفتتح شيئاً في الشهر القادم. هل أنا بحاجة إلى هذا؟ "

" أعتقد أنه يُستحسَن أنْ تفعل، فنحن لم نفعل أيَّ شيء من أجله منذ وقت بعيد "

" حسن، عليك أنْ تكتبي الخطاب. لقد أصبحت عجوزاً لألقي ذلك الخطاب الساذج الذي تعوّدت أنْ ألقيه عليهم. وتقول أنجيلا، هل سنمكث حتى العام الجديد؟ "

" هذا سهل. مستحيل، لن نفعل "

" لا أعتقد ذلك... وإنْ يبدو أنها ستكون حفلة مسلّية "

" اذهب أنتَ إذا أحببت. أنا لا أستطيع أنْ أفلت "

" لا بأس. كنتُ أعلم أنَّ الجواب سيكون " كلا " حتى قبل أنْ أفتح الرسالة "

" حسن، أي متعة في الانتقال من هنا وحتى يوركشير في عزّ الشتاء؟ "

" يا حبيبتي، لا تغضبي. أنا أعلم أننا لن نذهب. أنا لا أحاول أنْ أثير ضجة حول الأمر. أنا فقط اعتقدتُ أنه ربما كان من الممتع أنْ نأكل طعامَ أناسٍ آخرين لفترة قصيرة "

ثم جلبَتْ خادمة بريندا الصينية الأخرى. أمر بوضعها عند عتبة النافذة، وباشر بفتح رسائله. أطلٌ من النافذة. فقط أربع من أصل ست كنائس كانت مرئية في صباح ذلك اليوم. قال على الفور، " في الواقع قد أتمكن من الفرار في نهاية ذِلك الأسبوع "

" أأنت متأكد، يا عزيزي، من أنكَ لن تكره الأمر ؟"

" لا أعتقد ذلك "

أثناء تناوله وجبة فطوره قرأتْ بريندا على مسمعه الصحف. "ريغي يُلقي خطاباً آخر... هناك صورة عجيبة تضم بيب وجوك... امرأة في أميركا أنجبت توأماً من زوجين مختلفَين. أتعتقد أنَّ هذا ممكن؟... رجلان آخران في أفران الغاز... فتاة صغيرة خُنقَتْ في مقبرة برباط حذاء... المسرحية التي حضرناها وتدور حول مزرعة انتهت عروضها "، ثم قرأتْ عليه القصة المُسلسلة. أشعل غليونه. " أعتقد أنكَ لا تُصغي. لماذا لا تريد سيلفيا أنْ يحصل روبرت على الرسالة؟ "

" إه؟ أوه حسن، في الحقيقة، إنها لا تثقُ في روبرت "

" هذا ما خمّنته. ليست هناك شخصية تُدعى روبرت في الرواية. لن أقرأ لك بعد الآن "

" حسن، في الحقيقة كنتُ فقط أفكِّر "

"أوه "

"كنتُ أفكر كم هو ممتع أنْ يحلّ صباح يوم السبت دون أنْ نستضيف أحداً في نهاية الأسبوع "

" أوه، أتعتقد ذلك؟ "

" ألا تعتقدين أنت؟ "

" يبدو لي أحيـاناً أنه لا معنى في المحافظة على منزل بهذا الحجم إذا لم نطلب بين حينٍ وآخر من بعض الناس أنْ يُقيموا فيه "

" لا مـعنى له؟ لا أفـهم مـا تعـنين. أنا لا أحـافظ على هذا المنزل ليُصبحَ نُزُلاً يؤوي الكثيـر من المملين الثرثارين. لطالما عشنا هنا وآمل أنْ يتـمكن جون من المواظبـة على المحافظة عليـه من بعدي. إنَّ للمرء واجباً يؤديه نحـو المُستـخدمين عنده، وكذلك الأمر نحو المكان. إنه جزءٌ من الأسلوب الإنكليـزي في الحيـاة وسوف تكون خسـارة فادحة إذا مـا... "، ثم سكتَ توني فجأةً ونظر إلى السرير. كانت بريندا قد التـفتت نحوه ولم يظهر إلا أعلى رأسها من فوق الملاءات.

قالت داخل الوسادة " أوه، يا إلهي، أي ذنبٍ اقترفت؟ "

" أتُراني أصبحتُ طنّاناً من جديد؟ "

أشاحت بوجهـهـا بحيث لم يبرز غيـر أنفها وإحدى عينيـها. " أوه كلا، يا عزيزي، لستَ طنّاناً. أنت لا تعرف كيف تكون كذلك "

" آسف "

اعتدلتْ بريندا في جلسـتها. " وأرجوك، لم أكن أعني ما قلت. وأنا سعيدة أيضاً لأنَّ أحداً لن يأتي "

(هذه المشاهد من اللهو العائلي كانت متواصلة بصورةٍ أو بأخرى في حياة توني وبريندا على مدى سبع سنوات)

في الخارج، كان الجو إنكليزياً رقيقاً، ضباب في التجاويف وضوء شمس باهت على التلال، وأجمات مكامن الطرائد كفّت عن قطر الماء، لأنه لم تكن هناك أوراق شجر تمنع المطر الحديث العهد، لكنَّ النبات السفلي كان رطباً، قاتم اللون في الظل، متعدد الألوان حيث تصله أشعة الشمس، وكانت الأزقة مُشبّعة بالرطوبة والمياه تجري في الأخاديد.

امتطى جون أندرو صهوة جواده، رصيناً وجامداً كعامل إنقاذ، بينما ثبَّتَ بن الحاجز. كان ثندركلاب هدية في عيد ميلاده السادس من العم ريغي. وجون هو الذي أطلق عليه الاسم، بعد عملية تشاور مُطوّلة. في الأصل كان اسمه كريستابل وهو، كما قال بن، يصلح اسماً لكلب صيد وليس لحصان. وقد عرف بن فرساً بلون العلّيق يُدعى ثندركلاب قتلَ اثنين من الفرسان وفاز بجائزة سباق الحواجز للخيول أربع سنوات على التوالي. كان حصاناً صغيراً جميلاً، كما قال بن، إلى أنْ أصيب في أحشائه، أثناء الصيد، وتوجّب قتله. كان بن يعرف قصصاً عن العديد من أحصنة عديدة عظيمة مختلفة. كان هناك واحد اسمه زيرو راهنَ عليه وفاز في أحد الأعوام بخمسة من جيمي-أو-غوبلن عند عشرة إلى ثلاثة في تشستر. وكان هناك بغل عرفه خلال الحرب، اسمه نعنع، مات جرّاء شربه جراية الشركة من مشروب الرَمْ. لكنَّ جون لن يُسمّي فرسه باسم بغل سكران. وفي النهاية قرّروا أنْ يكون ثندركلاب، على الرغم من مزاجه الهادئ.

كان فرساً كُميتاً، بذيلٍ وعُرف طويلين. وترك بن ساقيه أشعثيّ الشعر. وأكل العشب، مُقاوماً محاولات جون لإبقاء رأسه عالياً.

قبل وصوله كانت الفروسية أمراً مختلفاً جداً. وكان قد ركب حصان

شتلند صغيراً اسمه بَني ودار به حول الحقل الصغير، بينما مربّيته تلهث عند اللجام. الآن أصبح من شأن الرجال. جلست الجدّة على مسافة، القرفصاء، على مقعد المخيم الخاص بها، بعيدة عن مرمى السماع. وكانت هناك ترقية مماثلة في موقع بن، من كونه مساعداً يعتني بخيل المزرعة، وهو الآن، بوضوح، يتّخذ هيئة سائس خيل. والمنديل الذي كان يُحيط بعنقه أفسح المكان للفاع مع دبوس لرأس ثعلب. كان رجلاً صاحب تجربة غنيّة جمعها من أجزاء أخرى من البلاد.

لا توني ولا بريندا كانا يُمارسان الصيد لكنهما كانا توّاقين إلى وجوب أنْ يحب جون ممارسته. وقد تنبّأ بن بالوقت الذي ستمتلئ به الإسطبلات بالخيول ويُصبح هو صاحب سلطة، لم يكن من خصال السيد لاست أنْ يجلب أحداً من الخارج.

ثقبَ بن عمودَين من أجل وضع أسافين من الحديد، ودرابزين مُبيَّض بماء الكلس، وأقام بهما حاجزاً بطول قدمَين ووضعه في منتصف الحقل.

" والآن استرخِ. خُبّ ببطء وعندما ينطلق بانحناء إلى الأمام ويسيطر على الأمر سوف تحلّق كالعصفور. اجعلْ رأسه مُستقيماً "

خبَّ ثندركلاب نحو الأمام، تقدَّمَ خطوتين، وفكَّر ملياً، قبل أنْ يقفز مباشرة، ومن جديد عاد إلى الخببّ وانحرفَ حول العقبة. استعادَ جون توازنه مُرخياً العِنان وتشبّثَ بالعُرف بكلتيّ يديه، ألقى نظرة شعورٍ بالذنب على بن ، الذي قال " ما هو عمل ساقيك اللعينتين في اعتقادك؟ هاك، خُذْ هذا واربِتْ عليه فقط حين تبدأ بالانطلاق! " وناولَ جون سوطاً.

جلست المربّية بجوار البوابة وأعادتْ قراءة رسالة وصلتها من أختها.

رجعَ جون بثندركلاب وحاولَ أنْ يقفز من جديد. هذه المرة انطلقا مباشرة نحو الدرابزين.

هتف بن " الساقان! " فركل جون بقوة، فاقداً رِكابه. رفعَ بن ذراعاً وكأنه يُخيف الغربان. قفز ثندركلاب، ارتفعَ جون عن صهوة الحصان واستقرَّ على ظهره على العشب.

نهضَتْ المربّية مفزوعة. " أوه، ماذا حدث، يا سيد هاكت، هل تأذّى؟ "

قال بن ".إنه على ما يُرام "

قال جون " أنا على ما يُرام، أعتقد أنه خطا خطوة قصيرة "

" إنها ليست خطوة قصيرة. أنت فقط باعدتَ ما بين ساقيك اللعينتين ورفعتَ مؤخرتك. في المرة التالية تمسّك بالعنان. بتلك الطريقة يمكن أنْ تخسر الصيد "

في المحاولة الثالثة اجتاز ووجد نفسه محبوس النفس وغير آمن، أحد رِكابيه انحلَّ وأخذ يترنح وقبضَتْ إحدى يديه على دعمه القديم بالعُرف، لكنه بقيَ على السرج.

" هاك، كيف شعورك؟ لقد حلّقتَ بخفّة كطائر سنونو. هل تحاول من جديد؟ "

اجتاز جون وثندركلاب الحاجز الصغير مرتين أخريين، ثم نادت المربية مُعلنةً أنَّ الوقت قد حان للدخول وتناول حليبه. عادا بالمهر إلى الإسطبل. قالت المربية، " أوه، انظر إلى كل ذلك الطين على معطفك "

قال بن " سوف نجعلك تفوز في مسابقة إينتري قريباً "

" صباح الخير، يا سيد هاكت "

" صباح الخير، يا سيدتي "

" إلى اللقاء، بن، هل لي أنْ آتي وأشاهدكَ وأنت تعتني بأحصنة المزرعة هذا المساء؟ "

" القرار ليس لي. يجب أنْ تطلب من المربية. ولكن أقول لك إنَّ حِصان العربة الرمادي لديه دود. هل تريد أنْ تراني وأنا أُعطيه كبسولة؟"

" أوه، نعم، أرجوكِ، يا ناني، هل تسمحين؟ "

" يجب أنْ تطلب الإذن من أمك. هيا الآن، يكفي خيولاً هذا اليوم "

قال جون " إنني لا أشبع من الخيول، أبداً ". وفي طريق العودة إلى المنزل قال " هل أستطيع أنْ أشرب الحليب في غرفة الماما؟ "

" حسب الوضع "

كانت أجوبة المربّية دائماً متملّصة، مثل هذا - " سوف نرى " أو "هذا سؤال " أو " مَنْ لا يطرح أسئلة لا يتلقّى أكاذيب " - وهي تختلف تماماً عن أحكام بن الحاسمة والحادّة "

" هذا يعتمد على ماذا؟ "

" على أشياء كثيرة "

" اذكري لي واحداً منها "

" على ألاّ تطرح الكثير من الأسئلة الحمقاء "

" فاسقة عجوز حمقاء "

" جون! كيف تجرؤ؟ ماذا تقصد؟ "

ابتهجَ للأثر الذي تركته هذه الهجمة، وأفلتَ جون من بين يديها وراح يرقص أمامها، قائلاً " فاسقة عجوز حمقاء، فاسقة عجوز حمقاء " حتى وصلَ إلى المدخل الجانبي. وحين ولجا المدخل المسقوف أخذت المربّية الأمتعة منه بصمت، فازداد رصانة قليلاً أمام تجهّمها.

قالتْ " توجّه مباشرةً إلى غرفة الحضانة. سوف أتحدث مع أمك عنك "

" أرجوكِ يا ناني. أنا لا أعرف معناها، لكنني لم أقصد معناها "

" إلى الحضانة مباشرة "

* * *

كانت بريندا تضع المساحيق على وجهها.

" إنَّ الوضع هو نفسه منذ أنْ باشر بن هاكت يُعلّمه الركوب، يا سيدتي، لم يعُد شيء ينفع معه "

بصقَتْ بريندا في كحل العين، "ولكن، ماذا قال بالضبط، يا ناني؟"

" أوه، لا أستطيع أنْ أكرره، يا سيدتي "

" هراء، يجب أنْ تخبريني. وإلا سأعتقد أنه شيء أسوأ بكثير مما هو عليه "

" لا يمكن أنْ يكون أسوأ... لقد أطلقَ عليّ فاسقة عجوز حمقاء، يا سيدتي "

اختنقَتْ بريندا قليلاً داخل المنشفة الموضوعة على وجهها. " أقال هذا ؟ "

" مراراً. وراح يرقص أمامي طوال الوقت حتى المشى، ويُنغمّها "

" فهمت... حسن، كنتِ على حق تماماً بإخباري "

" شكراً لكِ، يا سيدتي، وما دمت في هذا الصدد أعتقد أنه ينبغي أنْ أقول إنّه يبدو لي أنَّ بن هاكت يدفع الطفل إلى الانطلاق بسرعة عالية على صهوة الحصان. وهذا شيء خطير جداً. وهذا الصباح كاد يسقط سقوطاً خطراً جداً "

" حسن، ناني، سوف أكلِّم السيد لاست بهذا الشأن "

تكلّمتْ مع توني. وضحكا معاً كثيراً على الأمر. قالت " عزيزي، عليكَ أنتَ أنْ تتكلَّم معه. أنتَ أفضل مني بكثير في المسائل الجديّة "

* * *

جادلَ جون قائلاً " يبدو أني فهمت أنَّ لقب فاسقة هو لطيف جداً، وعلى أي حال إنها كلمة يستعملها بن كثيراً في وصف الناس "

" حسن، لا يحق له أنْ يفعل ذلك "

" أنا أحب بن أكثر من حبي لأي شخص في العالم. وأعتقد أنه أيضاً الأمهر "

" والآن، صرتَ تعلم أنكَ لا تحبه أكثر من حبك لأمك "

" بل أفعل. أحبه أكثر بكثير "

شعرَ توني أنَّ الأوان قد آن لكي يُنهي الاستجواب ويباشر الموعظة الأخلاقية التي حضَّرها. " والآن، اسمعْ، يا جون. كان سلوكاً خاطئاً جداً منك أنْ تُطلقِ على ناني لقب فاسقة عجوز حمقاء. أولاً، لأنَّه يُسيء إليها. فكِّرْ في كل الأشياء التي تفعلها من أجلك كل يوم "

" إنها تأخذ أجراً على هذا "

" اصمتْ. وثانياً، لأنكَ استعملتَ كلمةً لا يلجأ إليها مَنْ كان في مثل سنك ومن طبقَتك. الفقراء يستعملون تعبيرات معيَّنة لا يلجأ الأشخاص المحترمون إليها. وأنت شخص محترم. وحين تكبر سيؤول هذا البيت كله وأشياء أخرى كثيرة إليك. يجب أنْ تتعلَّم أنْ تتكلَّم كشخصٍ سوف يرثُ هذه الأشياء ويكون مُراعياً لِمَنْ هم أقلّ حظاً منه، خاصة من النساء. هل تفهم؟ "

" هل بن أقلّ حظاً مني؟ "

" لا دخل لهـذا بالأمـر. الآن عليـك أنْ تصـعـد إلى الطابق العلوي وتُبدي أسفك لناني وتعدِها بأنْ لا تستخدم تلك الكلمة بعد الآن "

" حسن "

" ولأنكَ كنتَ سيء الخلق هذا اليوم لن تركب الفرس غداً "

" غداً يوم أحد "

" حسن، في اليوم الذي يليه إذن "

" لكنكَ قلتَ " غداً ". ليس عدلاً أنْ تغيّر رأيك الآن "

" لا تجادل، يا جون. إذا لم تكن حريصـاً فسوف أُعيـدُ ثندركلاب إلى العم ريغي وأقـول له إنني وجدتُ أنكَ لستَ أهلاً للاحتفـاظ به. لا أعتقد أنَّ هذا يعجبك، أليس كذلك؟ "

" ومـاذا سيفعل العم ريغي به؟ إنه لا يقوى على حمله. ثم إنه في الغالب خارج البلاد "

" سوف يُعطيه لصبي آخـر. على أي حـال، لا دخل لهـذا في الموضوع. والآن انطلقْ وابدِ أسفك لناني "

عند البـاب قـال جـوني " لا بأس في الركـوب يوم الاثنين، أليس كذلك؟ أنت قلت " غداً " "

" نعم، أعتقد ذلك "

" هووراي. لقد أحسن ثندركلاب الأداء اليوم. لقد قفزنا من فوق عـمـودٍ عـالٍ ودرابزين. في المرة الأولى رفضَ لكنه بعـد ذلك طار كالعصفور "

" ألم تسقط عنه؟ "

" نعم. مرة واحدة. لم تكن غلطة ثندركلاب. أنا فقط باعدتُ ساقيّ اللعينتين ورفعتُ مؤخرتي "

* * *

سألته بريندا " كيف كانت المحاضرة؟ "

" سيئة. سيئة وعفنة "

" المشكلة هي أنّ ناني تغار من بن "

" لستُ متأكداً من أننا نحن أيضاً لن نصبح كذلك قريباً "

تناولا طعام الغداء حول طاولة صغيرة، مستديرة وسط قاعة الطعام. بدا أنه لا مجال لضمان درجة حرارة ثابتة في تلك الغرفة، حتى حين يكون أحد جوانبها يتحمّص بصورة مؤلمة بلظى مباشر من فرنٍ مفتوح، والجانب الآخر مُتجمداً من تيارات هواء متقاربة. وكانت بريندا قد أجرت تجارب عديدة بالستائر والمِشعاع الكهربائي المحمول، ولكن دون نجاحٍ كبير. وحتى هذا اليوم، والاعتدال في كل مكان آخر، يشيع الجو البارد القارس في قاعة الطعام.

على الرغم من أنّ كليهما في صحة تامة ولهما شكل خارجي مثالي، إلا أنّ توني وبريندا كانا يتبعان الحمية. وقد جعل ذلك وجباتهما مُثيرة للاهتمام ووفر عليهما حالتيّ الإفراط غير الحضاريتين اللتين يُعاني منهما الذين يتناولون الطعام وحدهم - الانغماس في الشَرَه أو الحِمية غير المنتظمة المؤلّفة من البيض المخفوق وشطائر لحم الخنزير النيء. وفي ظل نظامهما الحالي حرما نفسيهما من اجتماع البروتين والنشا في الوجبة الواحدة. وكان لديهما جدول مطبوع يُخبرهما عن نوعية الأطعمة التي تحتوي البروتين وتلك التي تحتوي النشا. وقد بدا أنّ معظم الأطباق

العادية ممتلئة بكليهما، لذا كان من الممتع لتوني وبريندا أنْ ينتقيا لائحة الطعام. وفي المعتاد كان الأمر ينتهي بإعلانهما أنَّ بعض الأطعمة هي " نكات ".

" أنا واثق من أنه يفيدني كثيراً "

" نعم، يا عزيزي، وحين نملّ منه قد نجرِّب حِمية حسب ترتيب الأحرف الأبجدية، ونجعل الأشياء تبدأ بحرف مختلف كل يوم. حرف J يعني جائع، لا شيء غير مربى وحنكليز مُهلَّم... ما هي خطتك لِما بعد الظهر؟ "

" لا شيء هام. كارتر قادم عند الساعة الخامسة لكي يقوم ببعض الأعمال. وقد أذهب إلى بيغستاتن بعد الغداء. أعتقد أننا حصلنا على مُستأجر للواتر فارم، لكنه خالٍ منذ وقت طويل ويجب أنْ أرى كم يحتاج من عمل "

" لا أمانع في ارتياد دار السينما "

" حسن. يمكنني بسهولة أنْ أغادر لواتر حتى يوم الاثنين "

" وقد نذهب إلى وولوورث بعد ذلك، هه؟ "

ما بين أساليب بريندا الجميلة وحس توني السليم، لم يكن مُفاجئاً أنَّ أصدقاءهما كانوا يُشيرون إليهما كزوجٍ ناجح بتفوُّق في مجال حلّ مشكلة العيش معاً.

الكعكة، الخالية من البروتين، لم تكن لذيذة.

بعد ذلك بخمس دقائق وصلت برقية. فتحها توني وقال " اللعنة ".

" أهناك ما هو أشد سوءاً؟ "

" لقد حدث أمر فظيع. انظري إلى هذا "

قرأتْ بريندا ، " أصلُ في الثالثة وثماني عشرة دقيقة. أتطلّع إلى زيارتكما. بيفر " وسألته " من هو بيفر؟ "

" إنه شاب "

" يبدو الأمر حسناً "

" أوه كلا إنه ليس كذلك. انتظري حتى ترينه "

" ولماذا يأتي إلى هنا؟ هل طلبتَ منه أنْ ينزل عندنا؟ "

" أعتقد أني فعلتُ بطريقة غامضة. لقد ذهبتُ إلى نادي برات ذات أمسية وكان هو الشاب الوحيد هناك فشربنا بعض الكؤوس وذكَرَ شيئاً عن رغبته في مشاهدة المنزل... "

" أعتقد أنكَ كنتَ ثملاً "

" ليس كثيراً، ولكن لم يخطر في بالي قطُّ أنه سيسيء الظن بي "

" حسن، تستأهل. هذه هي نتيجة ذهابك إلى لندن بداعي العمل وتركي وحدي هنا... مَنْ هو على أي حال؟ "

" مجرد شاب. أمه تدير ذلك المحل التجاري "

" كنتُ أعرفها. إنها فظيعة. وإذا فكّرنا في الأمر نجد أننا ندين لها ببعض المال "

" انظري هنا، يجب أنْ نتصل ونُشيعُ أننا مرضى "

" فات الأوان، إنه على متن القطار الآن، يمزج بتهوُّر البروتين والنشا في وجبة غداء الغرب العظيم بستة بنسات... على أي حال، يمكنه أنْ ينزل في غالاهاد. إنَّ كل مَنْ ينام هناك لا يعود أبداً - أعتقد أنَّ السرير كالعذاب "

" ماذا سنفعل به بحق الله؟ لقد فات الأوان لاستدعاء أي شخص آخر "

" انتقل أنتَ إلى بيغستن. وأنا سأعتني بأمره. من الأسهل أنْ أكون وحدي. يمكننا أن نصطحبه إلى السينما هذا المساء، وغداً يمكنه أنْ يتفرَّج على المنزل. وإذا حالفنا الحظ ربما يُغادر في قطار المساء. هل هو مضطر إلى الالتحاق بالعمل في صباح يوم الاثنين؟ "

" كيف لي أنْ أعرف "

* * *

كان توقيت الساعة الثالثة وثماني عشرة دقيقة أسوأ وقت للوصول. يمكن الوصول إلى المنزل عند الرابعة إلا ربع وإذا كان الشخص غريباً، مثل بيفر، هناك فترة مُحرجة من الوقت حتى موعد شرب الشاي، ولكن غياب توني الذي يجعل بريندا تشعر بالخجل، سوف يُمكّنها من إدارة الأمور بشكلٍ رائع، وبيفر نادراً ما يلقى أي ترحيب في أي مكان بحيث أنه عديم الإحساس أمام إبداء قليلٍ من التحفُّظ في استقباله.

استقبلته في الغرفة التي لا تزال تُسمّى غرفة التدخين، كانت بصورة ما المكان الأقلّ كآبة في المنزل كله. قالت " جميل أنكَ تمكنتَ من المجيء. يجب أنْ أبلغكَ على الفور أننا لا نُقيم حفلاً. وأخشى أنكَ ستشعر بملل فظيع... لقد اضطرَّ توني إلى المغادرة لكنه سيعود قريباً... هل كان القطار مزدحماً؟ غالباً ما يكون كذلك في أيام الأحد... هل ترغب في الانتقال إلى الخارج؟ سوف يحلُّ الظلام قريباً وقد نحصل على قدر من أشعة الشمس ما دام في مقدورنا ذلك..." وما إلى ذلك. لو أنَّ توني كان موجوداً لأصبح الوضع صعباً، لتلاقت عيونهما ولانهار سلوكها كسيدة للقصر. كان بيفر متعوّداً على الانخراط في الحديث، فخرجا معاً خلال الواجهات الفرنسية إلى المصطبة وهبطا الدرج، وانتقلا

إلى الحديقة الهولندية، وعادا منعطفَين حول دفيئة البرتقال دون أنْ يُعانيا من الإحساس بالحرج الحقيقي للحظة واحدة. بل إنها سمعتْ نفسها تقول لبيفر إنَّ أمه كانت من أعزّ صديقاتها.

عاد توني في الوقت المناسب لشرب الشاي. اعتذر لعدم وجوده في المنزل ليرحّب بضيفه وخرج من جديد على الفور تقريباً ليُجري مقابلة مع العميل في غرفة مكتبه.

سألتْ بريندا عن لندن والحفلات التي تقام هناك. وكان توني على اطّلاع خاص بذلك.

" بولي كوكبرس ستُقيم واحدة قريباً "

" نعم، أعلم هذا "

" هل ستحضرينها ؟ "

" لا أعتقد ذلك. إننا لا نذهب إلى أي مكان في هذه الأيام "

النكات التي كانت تُتداوَل طوال ستة أسابيع كانت جديدة على بريندا، أضحت مُهذَّبة ومُتقنة بفعل التكرار واستطاع بيفر أنْ يُلقيها ويُعطي الأثر الجيد. أخبرها عن تغيرات عديدة طرأت على التحالف بين أصدقائها.

" ماذا يحدث لميري وسايمون؟ "

" أوه، ألم تعلمي؟ لقد انفصلا "

" متى؟ "

" بدأ الأمر في النمسا خلال هذا الصيف... "

" وبيلي أنغميرنغ؟ "

" إنه على علاقة ممتازة بفتاة اسمها شيلا شراب "

" وآل هلم-هبارد ؟ "

" ذلك الزواج أيضاً لا يسير على ما يُرام... ديزي افتتحت مطعماً جديداً. والعمل فيه يسير بشكلٍ جيد... وهناك نادٍ ليليّ جديد يُدعى وارن... "

أخيراً قالتْ بريندا " يا إلهي، إنَّ الجميع يقضون وقتاً ممتعاً "

بعد شرب الشاي جُلِبَ جون أندرو وسرعان ما استولى على زمام الحديث. قال " كيف حالك؟ لم أكن أعلم أنكَ آتٍ. قال أبي إنه سيقضي عطلة نهاية أسبوع وحده ولو لمرة واحدة في حياته. هل تمارس الصيد؟ "

" لم أفعل منذ وقتٍ بعيد "

" يقول بن إنَّ من البديهي أنْ يتعلَّم الصيد كل مَنْ تتوافر له الوسائل لذلك، لصالح البلد "

" ربما لا تتوافر لديّ الوسائل "

" أأنتَ فقير؟ "

" أرجوك، يا سيد بيفر، يجب ألا تدعه يُضجرك "

" نعم، أنا فقير جداً "

" إلى درجة أنْ تصف الناس بأنهم فاسقون؟ "

" نعم، فقير إلى هذه الدرجة "

" وكيف أصبحتَ فقيراً؟ "

" لطالما كنتُ كذلك "

" أوه " وفقد جون اهتمامه بالموضوع. " الحصان الرمادي في المزرعة مُصاب بالديدان "

" كيف تعرفُ ذلك؟ "

" بن يقول هذا. ثم إنه يكفي أنْ تنظر إلى روثه "

قالت بريندا " أوه يا إلهي، ماذا ستقول ناني إذا سمعتكَ تتكلَّم هكذا ؟ "

" كم عمرك؟ "

" خمسٌ وعشرون. وما عمرك أنت؟ "

" ماذا تعمل؟ "

" ليس الكثير "

" حسن، لو كنت مكانك لقمتُ بعملٍ ما وكسبت بعض المال. بعد ذلك سوف تستطيع أنْ تمارس الصيد "

" ولكن حينئذٍ لن أتمكن من وصف الناس بالفاسقين "

" على أي حال لا أرى أهمية لهذا "

(لاحقاً، في غرفة الحضانة، وأثناء تناوله طعام العشاء، قال جون :

" أعتقد أنَّ السيد بيفر رجل سخيف جداً، ألا تعتقدين؟ "

قالت ناني " أنا متأكدة من أنني لا أعلم "

" أعتقد أنه أسخف رجل حضر إلى هنا "

" المقارنات بغيضة "

" كل ما في الأمر أنَّ لا شيءَ فيه جميل. فصوته سخيف ووجهه سخيف، وعيناه سخيفتان وأنفه سخيف "، تحوَّلَ صوت جون إلى ما يشبه التنغيم الطقسي، " وقدماه سخيفتان وأصابع قدميه سخيفة، ورأسه سخيف وملابسه سخيفة... "

قالت ناني " الآن كُل عشاءك ")

* * *

في أمسية ذلك اليوم وقبل تناول العشاء أتى توني بريندا من خلفها وهي جالسة على طاولة زينتها ورسم لها وجهاً مُضحكاً في المرآة.

" أشعر بالذنب حيال بيفر - بابتعادي وتركك هكذا. لقد كنتِ رائعة معه "

قالتْ " أوه، لم يكن الأمر سيئاً حقاً. إنه مُثير للشفقة "

بعيداً في آخر الممر راح بيفر يتفحَّص غرفته، بالعناية التي يتَّصف بها ضيف متمرّس. لم يكن هناك مصباح للقراءة، والمِحبرة جافّة. كانت النار قد أُضرِمَتْ لكنها خمدتْ. واكتشفَ أنَّ غرفة الاستحمام بعيدة بمسافة، يصلُ إليها بارتقاء مطلع للدرج. ولم يُعجبه أبداً مظهر وملمس السرير، فنوابضه مكسورة في المنتصف وأُصدرَ صريراً مشؤوماً عندما استلقى عليه ليجربّه. إنَّ بطاقة العودة، بالدرجة الثالثة، ثمنها ثمانية عشر شلناً. هذا غير الإكراميات.

بسبب إحساس توني بالذنب شربوا الشمبانيا على مائدة العشاء، التي لا هو ولا بريندا كانا يُحبانها كثيراً. ولا بيفر، بالمصادفة، لكنه كان سعيداً بوجودها. كانت موضوعة في إبريق طويل وحُمِلَتْ حول الطاولة، متنقّلة بينهم، كعربون حُسن الضيافة. بعد ذلك انتقلوا بالسيارة إلى بيغستنتن ليرتادو دار سينما بيكتشردوم، حيث يعرضون فيلماً كان بيفر قد شاهده قبل بضعة أشهر. ولدى عودتهم تناولوا المشروبات والشطائر في غرفة التدخين. تحدثوا عن الفيلم لكنَّ بيفر لم يكشف عن أنه كان قد شاهده. ثم رافقه توني حتى باب غرفة سير غالاهاد.

" أتمنى لكَ نوماً هانئاً "

" أنا متأكد من ذلك "

" هل ترغب في أنْ نستدعيك في الصباح؟ "

" هل يمكن أنْ أقرع الجرس؟ "

" حتماً. هل لديك كل ما تريد؟ "

" نعم، شكراً لك. تصبح على خير "

" تصبح على خير "

ولكن حين عاد أدراجه قال "أتعلمين، أشعر بانزعاج شديد من بيفر"

قالت بريندا " أوه، إنَّ بيفر على ما يُرام "

لكنه كان أبعد ما يمكن عن الارتياح وبينما هو يتقلّب في فراشه بحثاً عن وضع يستطيع فيه أنْ يحصل على النوم، فكَّر في أنه ما دامت ليست لديه نية في العودة إلى المنزل مرة أخرى، فلن يمنح الساقي أي شيء ولن يُعطي أكثر من خمسة شلنات للخادم الذي كان يعتني به. وفي الحال تكيَّفَ مع التضاريس الوعرة للفراش وغفا، بنومٍ متقطِّع، حتى الصباح. لكنَّ اليوم الجديد بدأ بشكلٍ مُقبض للصدر مع خبرٍ يقول إنَّ كل صحف يوم الأحد قد ذهبت إلى غرفة سيادتها.

* * *

كان توني يرتدي على الدوام بزّة قاتمة اللون في أيام الأحد ويضع ياقة مُنشّاة. توجه إلى الكنيسة، وهناك جلسَ على مقعد كبير من خشب الصنوبر، كان جدّه قد وضعه عند إعادة بناء المنزل، وفرشها بوسائد للركوع وبمدفأة، وأكملها بشبك من الحديد وبقضيب مذكٍ للنار كان والده يعبث به كلما أثارت الموعظة حنقه. ومنذ أيام والده لم تُضرَم النار هناك،

وفكَّرَ توني في إحياء العملية في الشتاء التالي. وفي يوم عيد الميلاد وشكر الحصاد قرأ توني دروساً من خلف النسر النحاسي.

بعد انتهاء القدّاس وقفَ بضع دقائق على الردهة المسقوفة يتبادلُ مع أخت القسّ ومع بعض سكان القرية حديثاً دمثاً. ثم عاد إلى المنزل سالكاً درباً عبر الحقول يؤدي إلى بابٍ جانبي في الحديقة المُسوَّرة، وقام بزيارة المُستنبتات الزجاجية وقطف زهرةً وضعها في عروة سترته، ثم توقف عند أكواخ البستانيين ليتبادل معهم بضع كلمات (وعبقُ وجباتِ عشاء يوم الأحد تتصاعد دافئة ومُهيمنة من الأبواب الصغيرة) ومن ثم، وبرصانة، شرب كأساً من الشيري في غرفة المكتب. هذا هو نسقه البسيط، الرسمي والمعتدل لصباح يوم الأحد، الذي نشأ، عفوياً بصورةٍ أو بأخرى، من الممارسات الأشد قسوة من والديه، وقد التزم به برضا تام. وكانت بريندا تضايقه كلما ضبطته مُتّخذاً سِمة السيد المحترم المستقيم الذي يخشى الله حسب أصول المدرسة القديمة وكان توني يعي الجانب المضحك لسلوكه، لكنَّ هذا لم يُدمّر الاستمتاع الذي استمدّه من روتينه الأسبوعي، أو من انزعاجه حين يتسبب حضور ضيوف في تعليقه. لهذا السبب غاصَ قلبه بين أضلعه حين قابل، حالما خرج من غرفة مكتبه إلى القاعة الكبيرة عند الساعة الحادية عشرة إلا ربع، بيفر وقد ارتدى ملابسه للتو واستعدَّ للتسلية، لكنَّ غيظه كان لحظياً فقط، ذلك أنه بينما كان يقول له صباح الخير لاحظَ أنَّ ضيفه يحمل بيده دليلاً وكان جلياً أنه يفتش عن قطار.

" أتمنى أنْ تكون قد نمت جيداً؟ "

قال بيفر " جيد جداً "، على الرغم من أنَّ تعبير وجهه الواهن لم يتناسق مع الجملة.

" أنا سعيد جداً. أنا دائماً أنامُ جيداً هنا. بالمناسبة، لا يُعجبني منظر دليل القطارات ذاك. آمل أنكَ لا تفكِّر في مغادرتنا باكراً؟ "

" للأسف، أخشى أني يجب أنْ أنطلق هذا المساء "

" أمر مؤسف جداً. إنني بالكاد رأيتك. إنَّ القطارات ليست جيدة كثيراً في أيام الأحد. أفضَلُها يُغادر في السادسة إلا ربعاً وينطلق في التاسعة. إنه يتوقف كثيراً ولا يحتوي عربة مطعم "

" هذا مناسب جداً "

" أمتأكدٌ من أنكَ لا تستطيع أنْ تمكث حتى الغد؟ "

" تمام التأكُّد "

كانت نواقيس الكنيسة تقرع بعد الحديقة العامة.

" حسن، سوف أذهب إلى الكنيسة. لا أعتقد أنكَ تهتم بمرافقتي "

كان بيفر دائماً يفعل ما يُتوقَّع منه حين يكون بعيداً عن المنزل، حتى وهو يقوم بزيارة بغيضة كهذه الحالية. " أوه نعم، أودُّ كثيراً أنْ أذهب "

" كلا، حقاً، لو كنتُ مكانك لما فعلت. لن تستمتع بهذا. إنني أذهب فقط لأنني مضطر إلى ذلك بصورةٍ أو بأخرى. ابقَ أنتَ هنا. سوف تنزل برِندا فوراً. اقرع الجرس لتطلب مشروباً حين ترغب فيه "

" أوه، حسن "

" أراكَ لاحقاً إذن ". تناول توني قبعته وعصاه من البهو ثم انطلق. قال في نفسه " ها قد سلكتُ من جديد سلوكاً مضيافاً مع ذلك الشاب "

كان قرع النواقيس صافياً وهادراً على الممشى وسار توني برشاقة متوجهاً نحوها. وعلى الفور سكتتْ وأفسحت المجال لنغمة واحدة، مُحذِّرةً القرية من أنه لم يتبقَّ إلا خمس دقائق على بدء عازف الأرغن بعزف الترتيل الأول.

لحقَ بناني وجون، وكانا أيضاً في طريقهما إلى الكنيسة. كان جون في أحد أمزجته السرِّية، النادرة، وضعَ يده التي تلبس القفاز في يد توني، وباشر، دون مقدمة، في سردِ قصةٍ استغرقت منهما كل الطريق حتى باب الكنيسة، ودارت حول البغل نعناع الذي شرب معيار الشركة من الرَمْ، بالقرب من وايبرز في عام ١٩١٧، حكاها جون بنَفَسٍ واحد، وهو يخبُّ لكي يتعادل في الخطوة مع والده. وفي الختام، قال توني " كم هي حزينة "

" في الواقع، أنا أيضاً اعتقدتُ أنها حزينة، لكنها ليست كذلك. قال بن إنها دفعته إلى الضحك حتى تمزَّقَ سرواله الداخلي "

كانت النواقيس قد سكتت وكان عازف الأرغن يراقب من خلف الستارة وصول توني. سار قُدُماً على ممر بين المقاعد، تتبعه ناني وجون. بين صف المقاعد احتلا إحدى الأرائك، وجلسا على مقعد خشبي خلفه. مال إلى الأمام مدة نصف دقيقة واضعاً جبينه على يده، وعندما عاد بظهره إلى الخلف، عزفَ عازف الأرغن الأنغام الأولى من الترتيل، " لا تأتِ يوم الحساب مع خادمك، يا إلهي... ". وواصل القداس مساره. وبينما توني يستنشق الهواء المتع، المبتذل قليلاً ويقوم بأداء حركات الجلوس المعتادة، يقفُ وينحني إلى الأمام، انجرفَتْ أفكاره منتقلة من موضوع إلى آخر، بين أحداث الأسبوع المنصرم ومخططاته من أجل المستقبل. أحياناً كانت عبارة جذّابةٌ ما تردُ في الطقس الدينيّ تُعيده إلى ما يُحيط به، ولكن خلال معظم فترة صباح ذلك اليوم انشغلَ بمشكلة غرف الاستحمام والمراحيض، وكيف يمكن إدخالها بأفضل طريقة دون إفساد طابع منزله الخاص.

قام مدير مكتب بريد القرية بجولة في المكان حاملاً حقيبة التبرعات. وضعَ توني نصف كراون، ووضع جون وناني ما لديهما من بنسات.

ارتقى القس، مع بعض الجهد، إلى المنبر. كان رجلاً عجوزاً خدمَ في الهند طوال الردح الأكبر من حياته. وكان والد توني قد منحه رزقه بطلبٍ من طبيب أسنانه. كان يتمتع بصوتٍ نبيل رنّان واعتُبِرَ أفضل واعظ ضمن نطاق أميال من المكان.

خلال أيامه الأكثر نشاطاً كانت المواعِظ تُكتَب لكي تُلقى في كنيسة الحامية العسكرية، ولم يفعل أي شيء ليجعلهم يتكيّفون مع الأحوال المتغيّرة لمنصبه الكهنوتي وكان في الغالب يختمها بالإشارة إلى أرض الوطن والأعزاء البعيدين. والقرويون لم يجدوا هذا مُفاجئاً البتة. فقليل من الأشياء التي تُقال في الكنيسة كان يبدو أنها ذات صِلة خاصة بهم. كانوا يستمتعون بمواعظ القس كثيراً وكانوا يعرفون أنه عندما يبدأ الحديث عن أوطانهم البعيدة، يحين الوقت لنفض الغبار عن رُكبهم وتحسُّس مظلاتهم.

"... وهكذا بينما نحن نقفُ هنا حاسري الرؤوس خلال هذه الساعة المهيبة من الأسبوع "، يقرأ هذا ويتضخَّمُ صوته القوي العجوز استعداداً للخاتمة المُنمّقة، " فلنتذكّر إمبراطورتنا العظمى الشفوق التي نخدمها هنا، ولنصلِّ كي يمدَّ الله في عمرها وتصدر لنا أوامرها لنؤدي واجبنا في أقصى أقاصي الأرض، ولنُفكّر في أعزائنا البعيدين وفي الأوطان التي تركناها باسمها، وتذكّروا أنه على الرغم من أنَّ قارةً قاحلة وفراسخ من المحيط تفصلنا عنها، فإننا في أوقات صباح يوم الأحد هذه نكون أقرب

من أي وقت منها، ونتّحد بها عبر الكثبان والجبال من خلال ولائنا لملكتنا وشُكراً لِما تسبغه علينا من رخاء، متحدين بها كرعايا فخورين بصولجانها وتاجها "

(ذات مرة علّقَتْ زوجة بستانيّ قائلة لتوني " إنَّ المحترم تندريل يقول كلاماً غريباً عن الملكة ")

بعد أنْ خرج أولاد الكورس رتلاً واحداً، أثناء إلقاء الترنيمة الأخيرة، انحنى جمع المُصلّين بتذلُّلٍ ورعٍ وصمتٍ بضع ثوانٍ ومن ثم خرجوا. لم يتعرّف أحدهم على الآخر إلى أنْ أصبحوا في الخارج بين القبور، حينئذٍ تبادلوا للتحيات، بتوق جزعٍ، ومودّة، وثرثرة.

تحدث توني مع زوجة الطبيب البيطري ومع السيد بارتريدج من المحل التجاري، ثم انضمَّ إليه القس.

" آمل ألاّ تكون الليدي بريندا مريضة؟ "

" كلا، لا شيء يدعو إلى القلق ". كانت تلك الصيغة التي يلجأ إليها عندما يظهر في الكنيسة من دونها. " موعظتك ممتعة جداً، أيها القس "

" يُبهجني قولك هذا، يا بني العزيز. إنها من أحبّ المواعِظ إلى قلبي. ولكن ألم تسمعها من قبل؟ "

" كلا، أنا واثق من هذا "

" أنا لم ألجأ إليها هنا مؤخراً. وحين أُسأل أنْ أزوّدهم بواحدة في مكانٍ آخر فإني أختارها على الدوام. دعني أرَ الآن، إنني دائماً أكتبُ ملاحظة عن الوقت الذي ألقيتها فيه ". فتحَ رجل الدين العجوز دفتراً مخطوطاً كان يحمله معه، له غلاف أسود رخو وصفحاته مُصفرَّة بفعل

الزمن. " أوه، نعم، ها هي. لقد ألقيتها أولاً في مدينة جلال آباد حين كان حرس كولدستريم[٤] هناك، ثم ألقيتها في البحر الأحمر أثناء عودتي إلى أرض الوطن من رحلتي الرابعة، ثم في سيماوث... ومنتون... ووينشستر... على فتيات الكشافة في تجمعهنَّ الصيفي في عام ١٩٢١... وفي كنيسة نقابة كتّاب المسرح في ليسستر... ومرتين في بورنماوث خلال شتاء عام ١٩٢٦ أثناء فترة مرض المسكينة أدا... كلا، لا يبدو أنني ألقيتها هنا منذ عام ١٩١١، وعندئذ كنتَ أصغر سناً من أنْ تستمتع بسماعها... "

كانت أخت القس قد انهمَكَتْ في حديث مع جون. كان يحكي لها قصة نعناع: "... لم يكن ليُصاب بمكروه، كما يقول بن، لو أنه استطاع أنْ يتقيّأ الرَمْ، لكنَّ البِغال غير قادرة على التقيُّؤ، ولا الأحصنة... "

أمسكتْ ناني بيده بحزم وأسرعت به عائدة إلى المنزل. " كم مرة قلتُ لك ألاّ تُردّد كل ما يخبرك به بن هاكت؟ إنَّ الآنسة تندريل لا ترغب في سماع ما حدث لنعناع. وإياك أنْ تستخدم تلك الكلمة الفظّة " تقيُّؤ " مرة أخرى "

" إنها فقط تعني أنّه مريض "

" حسن، الآنسة تندريل ليست مهتمة بمرضه... "

مع بداية تفرُّق الجمع المُلتئم عند مدخل الكنيسة المسقوف، انطلقَ توني نحو الحدائق. هناك يتوفَّرُ مجال واسع للانتقاء من الأزهار التي

---

٤ – حرس كولدستريم : هو أقدم فوج نظامي في الجيش البريطاني . – المترجم

توضع في العُرى في المُستنبتات الزجاجية، فانتقى قرنفل الليمون ذا الحواف القرمزية، المتغضنة لأجله ولأجل بيفر وأزهار كاميليا لزوجته.

تدفقتْ أشعة شمس شهر تشرين الثاني منسابةً من النافذة الرمحية[٥] ومن المشربية، مصبوغة باللونين الأخضر والذهبي، والأحمر واللازوردي من المعاطف، تكسرها الأدوات المُرصَّصة إلى عدد لا يُحصى من الرؤوس المُستدقة وبقع الضوء الملوَّن. هبطتْ بريندا الدَرَج الكبير درجة فدرجة خلال تعاقُب الغسق وقوس قُزح. كانت كلتا يديها مشغولتين، تحملان إلى صدرها كيساً، وقبعة صغيرة، لوحاً نصف منته من التطريز بالغرزة الخيميّة وحزمة مشوَّشة، ضخمة، من صُحف يوم الأحد، لم يبرز من فوقها إلا عيناها وظهرَ جبينها وكأنما من فوق ملفع. وبرز بيفر من الظلال في الأسفل ووقفَ عند أسفل الدرج يرفعُ بصره إليها.

" ما رأيك، هل أحملُ عنك شيئاً؟ "

" كلا شكراً، كل شيء معي آمن. كيف كان نومك؟ "

" رائعاً "

" ظننتُ أنكَ لم تنعم بالنوم "

" حسن، أنا في المعتاد لا أنام جيداً "

" حين تأتي في المرة القادمة سوف تحصل على غرفةٍ مختلفة. ولكن أعتقد أنكَ لن تأتي مرة أخرى. نادراً ما يفعل ضيوفنا. وهذا مؤسف جداً لأننا نقضي وقتاً ممتعاً في صحبتهم ونحن لا نعقد صداقات جديدة بعيشنا هنا "

---

٥ – النافذة الرمحية : نافذة عالية وضيّقة تنتهي بعقدٍ مُستدق الطرف .

" توني ذهب إلى الكنيسة "

" نعم، هو يحبُ ذلك. سيعود سريعاً. فلنخرج قليلاً، يبدو الجو جميلاً "

حين عاد توني كانا جالسَين في غرفة المكتب. كان بيفر يتنبّأ بحظ بريندا بأوراق اللعب، كان يقول "... والآن اقطعي الورق مرة أخرى، وسأرى إنْ كان سيصبح أوضح... أوه نعم... سوف تقع وفاة مُفاجئة وسوف تكون مصدر سرورٍ لكِ ومنفعة. في الواقع سوف تقتلين شخصاً. لا أستطيع أنْ أتبيَّن إنْ كان رجلاً أو امرأة... نعم، امرأة... ثم ستذهبين في رحلةٍ طويلة عبر البحر، وستتزوجين ستة رجال سُمر وتنجبين أحد عشر طفلاً، وستنمو لك لحية وتموتين "

" يا لكَ من متوحش. وكل هذا الوقت وأنا أعتقد أنكَ جاد. مرحبا، توني. هل استمتعتَ في الكنيسة؟ "

" كل الاستمتاع، ما رأيكما ببعض الشيري؟ "

حين عادا وحيدَين من جديد، قبل وجبة الغداء، قال " لقد كنتِ بطوليّة مع بيفر، يا حبيبتي "

" أوه، إنني أستمتع تماماً بالتلاؤم مع الوضع - في الواقع إنني بالأحرى أخدعه "

" هذا ما لاحظته. حسن، سوف أعتني به بعد ظهر هذا اليوم ثم إنه راحل في هذا المساء "

" أحقاً؟ سوف أشعر بالأسف. أنتَ تعرف أنَّ هذا هو الفرق بيننا، أي عندما يكون شخص ما ثقيلاً تكتفي أنتَ بالهرب وتختبئ، في حين أني في الواقع أستمتع بصحبته - أعوّضه وأُبيِّن لنفسي كم أستطيع أنْ

أحسنِ التصرُّف. ثم إنَّ بيفر ليس سيئاً جداً. إنه يُشبهنا تماماً من بعض النواحي "

قال توني " إنه لا يُشبهني "

بعد تناول طعام الغداء قال توني " حسن، إذا كان هذا يُسليك، يمكننا أنْ نقوم بجولة بين أرجاء المنزل. أعلمُ أنَّه ليس من الشائع أنْ تحب هذا النوع من الهندسة المعمارية هذه الأيام - عمتي فرانسيس تقول إنه بكسنيف[٦] أصلي - ولكن أعتقد أنه جيد مهما كان نوعه ".

استغرق منهما الأمر ساعتين. وكان بيفر مُدرباً جيداً في مجال فن التفرُّج على المنازل، وفي الواقع لقد نشأ على هذا، ومن ثم بدأ يصطحب أمه، التي طالما كانت تلك هوايتها، ولاحقاً، بظروف مختلفة، مهنتها. وأدلى بتعليقات تنمُّ عن ذكاء حادّ ومُستحسنة وعزَّز الاستمتاع الذي كان توني يستمدّه من عرض كنوزه.

شاهدا كل شيء: غرفة الجلوس بنوافذها ذات المصاريع، كقاعة محاضرات في مدرسة، والممرات الجديرة بدير، والفناء الداخلي المظلِم، والمُصلّى حيث، حتى خِلافة توني، كان المُصلون من العائلة يقرؤون يومياً على أهل المنزل المجتمعين، وغرفة الأطباق ومكتب العقارات، وغرف النوم والعلّيات، وحاويات المياه المُخبّأة بين فتحات الإطلاق. وصعدا مطلع الدَرج اللولبي داخل أجزاء ساعة حائط وانتظراها لتدق الساعة الثالثة والنصف. بعد ذلك هبطا بآذانٍ تطنّ من مشاهدة المجموعة - المينا، المُسننات، الأختام، عُلب النشوق، أواني الصيني، نحاس

---

٦ - بكسنيف : إحدى شخصيات رواية " مارتن تشزلويت " لتشارلز ديكنز ، وهو رمز لتكلُّف الخير وتبنّي المبادئ الأخلاقية السامية .

الترصيص، الميناء المُجتزعة، كانا يتوقفان أمام كل لوحة في صالة العرض المكسوة بخشب الزان وناقشا الأفكار والخواطر المتداعية، وأخرجا طبعات الكتب النادرة الأروع في المكتبة وتفحّصا صور الأبنية الأصلية، ومخطوطات سجلات الدير القديم، ويوميات رحلات أسلاف توني. وكان بيفر يقول على فترات " إنَّ فلان الفلاني لديه واحدة مثل هذه تماماً في المكان الفلاني "، فيردّ عليه توني " نعم، لقد شاهدتها ولكني أعتقد أنَّ مخطوطتي هي الأقدم ". وفي الختام عادا إلى غرفة التدخين وترك توني بيفر في عُهدة برِيندا.

كانت تواصل النسج الدقيق، محنيّة الظهر على أريكة. سألتْ، دون أنْ ترفع نظرها عن شغل الإبرة، " حسن، ما رأيك؟ "

" رائع "

" لستَ في حاجة إلى أنْ تقول هذا لي، كما تعلم "

" في الواقع، هناك الكثير من الأشياء الرائعة جداً "

" نعم، أعتقد أنَّ الأشياء جيدة "

" ولكن ألا تحبين المنزل؟ "

" أنا؟ أنا أمقته... على الأقلّ لا أعني بالضبط ما أقول، ولكنني أتمنى أحياناً لو لم يكن، بكل جزءٍ منه، بكل ذلك القبح الشنيع. إلا أنني أفضّل الموت على أنْ أبوح بهذا لتوني. وطبعاً لم نتمكن من العيش في أي مكانٍ آخر. إنه مجنون بالمكان... وهذا أمر غريب. لا أحد منا اهتمَّ كثيراً حين قام أخي ريغي ببيع منزلنا - وكان قد بناه فانبرو[٧]، في

---

٧ - سير جون فانبرو (١٦٦٤ - ١٧٢٦) : كاتب مسرحي ومهندس معماري . من أعماله المسرحية ، " اللاانتكاس "

الواقع... وأعتقد أننا محظوظان لأننا قادران على تكاليف المحافظة عليه. أتعلم كم يُكلّف العيش فيه؟ ولولا ذلك لكنا من الأغنياء فعلاً. في الواقع نحن نعيل خمسة عشر خادماً داخل المنزل، إلى جانب العاملين في الحديقة والنجارين وحراس الليل وكل العاملين في المزرعة وعدد من الرجال الذين يظهرون فجأةً ليضبطوا ساعات الجدران ويتلاعبوا بنا وينظفوا الخندق، بينما توني وأنا نتشاجر حول ما إذا كنا سنستقل السيارة للذهاب إلى لندن لتمضية أمسية أو نشتري تذكرة سياحية.... لن أنزعج كثيراً إذا كان المنزل جميلاً حقاً - كمنزلي مثلاً... ولكن طبعاً توني نشأ هنا وينظر إلى الأمر من زاوية مختلفة تماماً... "

انضمَّ توني إليهما ليشرب الشاي. " لا أريد أنْ أبدو غير مضياف، ولكن إذا أردتَ أنْ تلحق بذلك القطار، فعليك حقاً أنْ تستعد لذلك "

" لا بأس. لقد أقنعته بالمكوث حتى الغد "

" إذا كنتَ متأكداً من أنكَ لا... "

" ممتاز. أنا فعلاً سعيد. إنَّ الزحام يكون رهيباً في مثل هذا الوقت، خاصةً في ذلك القطار "

حين دخل جون قال " حسبتُ أنَّ السيد بيفر سيرحل "

" ليس قبل الغد "

" أوه "

بعد العشاء جلسَ توني ليطالع الصحف. وجلستْ بريندا مع بيفر على الصوفا يمارسان بعض الألعاب معاً. كانا يحلاّن الكلمات المتقاطعة. قال بيفر " كنتُ أفكر في أمر "، وأخذتْ بريندا تطرح عليه الأسئلة لتعرف ما هو. كان يُفكِّرُ في الرَمْ الذي شربه نعناع. كان جون قد

حكى له الحكاية أثناء شرب الشاي. وسرعان ما خمَّنت بريندا الأمر. ثم لعبا " التناظر " بين أصدقائهما وأخيراً فيما بينهما.

في تلك الليلة تبادلا تحية الوداع لأنَّ بيفر كان سيستقل قطار التاسعة وعشر دقائق.

" اعلِمني حالما تصل لندن "

" قد أكون منشغلاً هذا الأسبوع "

في صباح اليوم التالي نقدَ بيفر كلاً من الساقي والخادم عشرة شلنات إكرامية. هبطَ توني، وكان لا يزال يشعر بالذنب على الرغم من تعامُل بريندا معه ببطولة، ليتناول طعام الفطور وليشيِّع ضيفه في رحيله. وبعد ذلك عاد أدراجه إلى غوينيفر.

" حسن، هذا آخر عهدنا به. لقد كنتِ ممتازة، يا حبيبتي. أنا واثق من أنه عاد وهو يعتقد أنكِ مولعة به "

" أوه، هو لم يكن سيئاً جداً "

" كلا. يجب أنْ أعترف بأنه أبدى اهتماماً ثقافياً كبيراً أثناء تجوالنا في أرجاء المنزل "

* * *

كانت السيدة بيفر تتناول نصيبها من اللبن المُصفّى عندما وصل بيفر إلى المنزل. " مَنْ كان هناك؟ "

" لا أحد "

" لا أحد؟ يا بنيّ المسكين "

" لم يكونا يتوقعان زيارتي. في أول الأمر كان الوضع فظيعاً لكنه تحسَّنَ. لقد كانا بالضبط كما قلتِ. هي فاتنة. وهو كاد لا ينطق بكلمة "

" أتمنى لو أني أراها أحياناً "

" لقد جاءت على ذكر أنها ستأخذ شقة في لندن "

" أقالتْ هذا ؟ ". كان الحديث عن الإسطبلات والمرائب يُشكّلُ جزءاً من عمل السيدة بيفر. " ماذا تريد؟ "

" شيئاً غاية في البساطة، غرفتين وحمّام. لكنَّ الأمر كله شديد الغموض. فهي لم تذكُر بعد أي شيءٍ عن توني "

" أنا واثقة من استطاعتي أنْ أعثر لها على شيء "

- ٢ -

إذا اضطرت بريندا إلى النزول إلى لندن للتسوق اليومي، أو لقص شعرها، أو لتجبير عظامها (وهو استجمام كانت تستمتع به استمتاعاً خاصاً)، كانت تفعلَ ذلك في يوم الأربعاء، لأنَّ التذاكر في ذلك اليوم تكون بنصف السعر المعتاد. كانت تغادر في الثامنة صباحاً وتعود إلى المنزل بُعيد الساعة العاشرة ليلاً. وتسافر في الدرجة الثالثة وغالباً ما تكون العربات ممتلئة، لأنَّ الزوجات الأخريات اللائي يسافرن على الخط كنَّ يستفدن من التعريفة المنخفضة. كانت في المعتاد تُمضي النهار مع أختها الأصغر سناً، مارجوري، المتزوجة من المُرشَّح المُحتمل للمحافظين عن دائرة جنوب لندن المتعاطفة بشدّة مع حزب العمال. كانت أكثر صلابة من بريندا. وكانت الصحف دائماً تُشير إليهما بعبارة " الأختان ريكس الظريفتان ". وكانت مارجوري وألان معوزين ومحبوبَين، ولم يكن في استطاعتهما تحمُّل تكاليف إنجاب طفل، وكانا يعيشان في منزلٍ صغير في حيّ قريب من ساحة بورتمن، ومناسب جداً لقُربه من محطة بادنغتن. وكان لديهما كلب من نوع بكّيني اسمه جنّي.

كانت بريندا قد جاءت بغرض معيَّن، وتركت الساقي يتصل هاتفياً ويُخبر مارجوري بوصولها. خرجت من القطار، بعد ساعتين وربع في عربة مكتظة بخمسة أشخاص على كل جانب، تبدو منتعشة وهشّة وكأنها غادرتْ للتو جلسة مُدلّكين، واختصاصيين في العناية بالأقدام ومُصففي شعر في جناحٍ في فندق. وكانت لديها المقدرة على ألاّ تبدو شبه مُنتهية، وعندما تكون مُرهقة فعلاً، كما هو حالها غالباً لدى عودتها إلى هيتون بعد قضاء مثل تلك الأيام في لندن، تنهار فجأةً بشكل كامل وتصبح كالتائهة، ثم تقترب من موقد النار مع كوبٍ من الخبز والحليب، وهي شبه مُستنزفة، إلى أنْ يحملها توني إلى السرير.

كانت مارجوري تعتمر قبعتها وتجلس على طاولة الكتابة مُستغرقة في التفكير في دفتر شيكاتها وفي حزمة من الأوراق النقدية.

" عزيزتي، ماذا يفعله الريف لكِ؟ تبدين في أحسن حال. من أين حصلتِ على هذا الثوب؟ "

" لا أعلم. من أحد المحال "

" ما أخبار هيتون؟ "

" كل شيء على حاله. توني عدائيّ بجنون، وجون أندرو يسبُّ كصبي إسطبل "

" وأنت؟ "

" أنا؟ أَوه، أنا على ما يرام "

" مَنْ نزلَ عندكما؟ "

" لا أحد. نزل عندنا صديق لتوني اسمه السيد بيفر في نهاية الأسبوع الفائت "

" جون بيفر؟... ما أغرب هذا. ما كان ليخطر في بالي على الإطلاق أنه من نمط توني "

" لم يكن كذلك... كيف هو؟ "

" أكاد لا أعرفه. لقد رأيته في محل مارغو في وقتٍ ما. هو رائع من ناحية الترحال إلى أي مكان "

" حسبتُ أنه من النوع المُثير للشفقة "

" أوه، هو مُثير للشفقة فعلاً. هل أثار إعجابك؟ "

" يا إلهي، كلا "

أخذتا جنّي في نزهة في الحديقة العامة. كان كلباً لا يعترفُ بالجميل ولا ينظر حوله وينبغي جرّه من رسنه، أخذاه إلى تمثال " الطاقة الفيزيائية " لواتس[8]، وحين أُطلِقَ سراحه وقف بسكونٍ تامّ، يُحدِّقُ بحزن إلى الإسفلت إلى أنْ استداروا وعادوا إلى المنزل، لم يكن يُبدي أي دلالة على المشاعر إلا في مناسبةٍ واحدة، وذلك عندما عضَّ طفلاً صغيراً حاولَ أنْ يضربه، ولاحقاً تاه وتمَّ العثور عليه على بُعد ياردات قليلة، جالساً تحت كرسي ويُحدِّقُ إلى قطعة ورق مرميّة. كان معدوم اللون، وذا أنفٍ وشفتين ورديّة وتُحيطُ بعينيه دوائر ورديّة من اللحم الأصلع. قالت مارجوري " لا أعتقد أنه يتمتّع بأي شرارة من المشاعر الإنسانية "

تحدثتا عن السيد كراتويل، مُجبِّر العِظام، وعن عِلاج مارجوري الجديد، قالتْ بريندا بحسد، " هو لم يفعل ذلك قطُّ معي "، ثم أردفت تواً، " كيف هي في اعتقادك حياة بيفر الجنسية؟ "

---

٨ - جورج فريدريك واتس (١٨١٧ - ١٩٠٤) : رسّام ونحّات إنكليزي . أشهر لوحاته " أمل " ، وأشهر تماثيله " الطاقة الفيزيائية " ، ويوجد في كنسنغتن غاردنز ، في لندن .

" كيف لي أنْ أعرف. أعتقد أنها غامضة جداً... أنتِ فعلاً مُعجَبَة؟ "

قالت بريندا " أوه حسن، إنني لا أرى الكثير من الشبان... "

تركتا الكلب في المنزل وقامتا ببعض التبضُّع - مناشف لغرفة الحضانة، دراّق مُخلل، ساعة حائط لأحد المُحاسبين يحتفل بمرور ستين عاماً على خدمته في هتون، وصندوق من قريدس موركامب باي كمفاجأة لتوني، وأخذتا موعداً مع السيد كراتْويل بعد ظهر ذلك اليوم. وتحدثتا عن حفلة بولي كوكْبيرس. " انضمي إليها. سوف تكون مسلية حتماً "

" قد أفعلْ... إذا استطعتُ أنْ أجد مَنْ يصحبني. إنَّ توني لا يُحبها... وأنا لا أستطيع أنْ أرتاد الحفلات وحدي وأنا في مثل هذه السن "

خرجتا لتناول طعام الغداء، وقصدتا مطعماً يقعُ في شارع ألبيمارل كانت صديقةٌ لهما اسمها دايزي قد افتتحته حديثاً. قالت مارجوري، حالما دخلتا من الباب، " أنتِ محظوظة، ها هي أم صاحبك السيد بيفر "

كانت تقوم على تسلية مجموعة من ثمانية أشخاص مجتمعين حول طاولة كبيرة تقع في مركز المكان، وكانت تفعل ذلك بمقابلٍ تدفعه لها دايزي، التي لم يكن مطعمها ناجحاً كما توقعتْ منه - بمعنى أنَّ الغداء كان مجانياً وكانت السيدة بيفر تستعد، إذا ما بقيَ المطعم فاتحاً أبوابه، لكي تُعيد زخرفته في فصل الربيع. كان جلياً أنها حفلة مُدبَّرة، اختيرَ فيها الضيوف دون أنْ يكون بينهما رابط - ناهيك عن الودّ للسيدة بيفر أو لكلٍ منهما للآخر - اللهم إلا أسماؤهم التي كانت مُتداولة - دوقٌ منفتح العقل ولكنه ليس مُرتداً بشكلٍ كامل، وفتاة عزباء مُجرّبة،

وراقص وروائي ومُصمم مناظر، وكاهن مُستجد خجول لم يُدرك سبب وجوده إلا بعد فوات الأوان، وليدي كوكْبيرس. قالتْ مارجوري، وهي تُلوِّح بيدها لهم جميعاً بإشراق، " يا إلهي، يا لها من حفلة "

ضجَّتْ نغمات صوت بولي كوكبيرس الحادة في أرجاء المطعم، "أأنتما الاثنتان جئتما إلى حفلتي، أيتها العزيزتان؟ فقط لا تخبرا أحداً عنها . إنها حفلة سرية، ضمن أضيق الحدود. سوف يضمُ المكان فقط بضعة أشخاص - فقط الأصدقاء المُقرَّبين "

قالت مارجوري " رائعُ أنْ نتعرَّف على أصدقاء بولي المُقرَّبين جداً. إنها لم تتعرَّف إلى أحد منذ أكثر من خمس سنوات "

" يا ليت توني يفهم ما ترمي إليه "

(على الرغم من أنَّ بولي جمعت ثروتها من الرجال، إلا أنَّ شعبيتها كانت في المقام الأول بين النساء، اللواتي كنَّ يُبدين إعجابهنَّ بملابسها وكن يشترينها من محلّها الذي يبيع الملابس المُستعملة بسعر منخفض، وخطواتها الأولى نحو البروز خطتها بين حلقات مغمورة إلى درجة أنها لم تخلق أعداء لها في العالم الذي تصبو إليه، وكانت قبل بعض الوقت قد تزوجت من إيرل طيب، بدا أن لا أحد يرغب فيه في ذلك الوقت، ومنذ ذلك الحين وهي ترتقي أعلى الذُرى في كل جبلٍ اجتماعي)

بعد الغداء انتقلتْ السيدة بيفر إلى طاولتهما. " يجب أنْ آتي وأتحدث معكما، مع أني مستعجلة جداً. لقد مرّ وقت طويل منذ أنْ تقابلنا آخر مرة وجون كان يُخبرني عن نهاية الأسبوع الممتع الذي أمضاه معكما "

" كان وقتاً هادئاً جداً "

" هذا بالضبط ما يحبّه. مسكين، إنه يعيشُ حياةً متسارعة في لندن. أخبريني، ليدي بريندا، أصحيح أنكِ تفتشين عن شقّة؟ - لأني أعتقد أنَّ لدي المكان المناسب لكِ. إنه يُعدُّ وسوف يُصبح جاهزاً قبل حلول عيد الميلاد " ونظرت في ساعة يدها. " أوه يا إلهي، يجب أنْ أسرع. هل تستطيعين أنْ تأتي إلينا لشرب كأس من الكوكتيل هذا المساء؟ لكي نسمع الحكاية كلها "

قالت بريندا مع ظل من الشك، " أستطيع... "

" إذن تعالي. إنني أنتظرك عند نحو الساعة السادسة. ولكن هل تعرفين أين أقطن؟ " وأخبرتها وغادرت الطاولة.

سألتها مارجوري " ما قصة تلك الشقة؟ "

" أوه، مجرد شيء كنتُ أفكّر فيه... "

* * *

بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما هي مُستلقية بترفٍ على طاولة مُقوِّم العِظام، وفِقراتها تفرقع، تحت وطأة أصابعه القوية، كمُثبّتات ممتازة، تساءلتْ بريندا إنْ كان بيفر سيتواجد في المنزل في مساء ذلك اليوم. قالت في نفسها " ربما لا، إذا كان ميالاً إلى التسكُّع، وعلى أي حال، ما أهمية هذا؟... "

لكنه كان موجوداً، على الرغم من وجود دعوتين أُخريين.

سمعت السيدة بيفر قصة الشقة كلها. وعرفت ما عليها أنْ تفعل. قالت، إنَّ ما يُريده الناس هو مكان لارتداء الملابس وجهاز هاتف. كانت تعمل على تقسيم منزلٍ صغيرٍ في بلغرافيا إلى ست شُقق بثلاثة جنيهات في الأسبوع، وكل منها يتكوّن من غرفة وحمّام، وغرف الاستحمام سوف

تكون من الطراز الأول، مع فيضٍ لا ينضب من الماء الحار وكل رفاهية ما وراء الأطلسي، والغرفة الأخرى ستحتوي خزانة كبيرة مبنية في الجدار وفي داخلها إضاءة كهربائية، ومساحة لوضع السرير. وسوف تلبي حاجة طال أمدها، كما قالت السيدة بيفر.

" سأخبر زوجي وأتّصل بك "

" يجب أنْ تُخبريني بقرارك قريباً، لأنَّ الطلب عليها كثير "

" سأتصل بكِ قريباً جداً "

عندما حان وقت مغادرتها، صحبها بيفر إلى المحطة. وكانت متعوّدة أنْ تأكل الشوكولاة وكعكاً مُحلّى في عربتها، اشترياها معاً من البوفيه. كان لا يزال هناك وقت طويل قبل مغادرة القطار ولم تكن العربة قد امتلأت. فدخلَ بيفر وجلسَ معها.

" أنا متأكدة من أنكَ تريد أنْ تذهب "

" كلا، حقاً "

" لدي الكثير لأقرأه "

" أنا أريد أنْ أبقى "

قالت على الفور، بشيء من الخوف، " هذا لطف شديد منك "، لأنها لم تكن متعوّدة على طلب مثل هذا الشيء، " هل ترغب في اصطحابي إلى حفلة بولي؟ "

تردَّدَ بيفر. سوف تُقام عِدّة حفلات عشاء في تلك الأمسية، وهو شبه متيقن من أنه سيُدعى إلى إحداها... فإذا خرج مع بريندا سيعني ذلك الذهاب إلى إمباسي أو إلى أحد المطاعم... أي سيحتاج إلى ثلاثة جنيهات على الأقلّ... وسوف يكون مسؤولاً عنها وسيضطر إلى

إيصالها إلى المنزل... وكأنها حقاً، كما قالت، لا تعرف العديد من الناس في هذه الأيام (حقاً، لماذا طلبت منه ذلك إذا لم تكن تعنيه؟) قد يعني أنه سيبقى مقيَّداً طوال الأمسية... قال " ليتني أستطيع، لكنني قطعتُ وعداً لأحدهم بتناول طعام العشاء معه "

لاحظتْ بريندا تردّده. " كنتُ أخشى أن ترفض "

" لكننا سنتقابل هناك "

" نعم، هذا إذا ذهبتُ "

" كنتُ أتمنى أنْ أصحبك "

" لا بأس... أنا فقط كنتُ أتساءل "

كان المرح الذي اشتريا به الكعك المُحلّى قد تلاشى كله حينئذٍ. صمتا برهة. ثم قال بيفر، " حسن، أعتقد أني سأرحل الآن "

" نعم، أسرِعْ. شكراً لك لمجيئك "

انطلقَ خارجاً إلى الرصيف. كانت لا تزال هناك ثماني دقائق متبقّية للانطلاق. قالت في نفسها " ولماذا يرغب في اصطحابي، ذلك المسكين؟ ولكن كان يمكن أنْ يفعل ذلك بشكلٍ أفضل "

* * *

" القصة نفسها؟ "

أومأت بريندا برأسها إيجاباً. قالت " متشرِّد، غارق، وفي أسوأ حال ". جلسَتْ تأكل الحليب والخبز، وتحرّكه دون توقّف. كان كل جزء منها يشعر بالارتياح دون سبب.

" أكان يومكِ جيداً؟ "

أومأتْ برأسها إيجاباً. " قابلتُ مارجوري وكلبها القذر. اشتريتُ

بعض الأغــراض. تناولتُ الغــداء في مطعم دايزي الجـديد. ثم مُـقــوِّمٌ العِظام. هذا كل شيء "

" أنتِ تعلمين أني أتمنى أنْ تتوقفي عن القيام بجولات اليوم الواحد تلك. إنها ترهقك "

" أنا ؟ أوه، أَنا على مــا يُرام. إنني أتمنى الموت، هذا كل شيء... وأرجـوك، أرجـوك، يا عـزيزي توني، إياك أنْ تأتـي على ذِكـر السـرير، لأنني عاجزة عن الحركة "

* * *

في اليـوم التـالي وصلتْ برقـيـة من بيـفـر. تخلَّصت من عـشـاء يوم السادس عشر. ألا تزالين حرّة.

أجابت : يُسعدني ذلك. مراجعة الأفكار دائماً هي الأفضل. بريندا. كانا حتى ذلك الحين قد تجنّبا التخاطب باسميهما الأولَين.

علّقَ توني " تبدين اليوم في حالة نفسية رائعة "

" أشعـر بأني عظيـمـة. أعتـقـد أنَّ السـيـد كـرتْويل هو السـبب. إنه يُصحح من وضع الأعصاب كلها والدورة الدموية وكل شيء "

-٣-

" إلى أين ذهبتْ الماما ؟ "

" إلى لندن "

" لماذا ؟ "

" هناك سيدة اسمها ليدي كوكْبيرس تُقيم حفلة "

" هل هي لطيفة؟ "

" هذا ما تعتقده الماما. أنا لا أجدها كذلك "

" لماذا ؟ "

" لأنها تشبه القرد "

" أحبُّ أنْ أراها. هل تعيش في قفص؟ هل لها ذيل؟ بن شاهدَ امرأةً تُشبه سمكة، مكسوّة كلها بالزعانف بدل الجلد. شاهد ذلك في سيرك في القاهرة. وكانت رائحتها أيضاً كرائحة السمك، كما يقول بن "

كانا يتناولان الشاي معاً بعد ظهيرة اليوم الذي غادرت فيه بريندا.

" بابا ، ماذا تأكل ليدي كوكْبيرس؟ "

" أوه، جوزاً وأشياء "

" جوزاً وأي أشياء؟ "

" أنواع مختلفة من الجوز "

شغلتْ صورة تلك الكونتيسة الكثيفة الشعر، المؤذية، بال جون أندرو على مدى أيام. أضحت من سكان هذا العالم، مثل نعناع، البغل الذي مات من شرب الرَمْ. وعندما يُخاطبه الناس في القرية بلطف كان يحكي لهم عنها وكيف أنها تتدلى مقلوبة من الشجرة وترمي قشور الجوز على المارّة.

قالت ناني " ينبغي ألاّ تتلفَّظ بمثل هذه الأشياء عن أناسٍ حقيقيين. ماذا يمكن لليدي كوكْبيرس أنْ تفعله إذا سمعت بها ؟ "

" سوف تبربر وتثرثر وتضرب بذيلها في كل اتّجاه، ومن ثم أتوقَّع أنْ تتصيَّد بعض القمل الكبير، الجميل، الرطيب وتنسى الأمرَ كله "

* * *

كانت بريندا تبيت عند مارجوري. ارتدتْ ثوباً أولاً ثم انتقلَتْ إلى غرفة أختها. " رائع، يا عزيزتي. أهو جديد؟ "

" تماماً "

اتّصلتْ بمارجوري المرأةُ التي ستتناول العشاء عندها. (" اسمعي، هل أنتِ متأكدة تماماً من أنكِ لا تستطيعين أنْ تدفعي ألان إلى المجيء هذه الليلة " " كل التأكُّد. لديه اجتماع في كامبروْيل. بل إنه قد لا يحضر حفلة بولي " " هل تستطيعين أنْ تُحضري أي رجل آخر؟ " " لا أتذكَّر أحداً " " حسن، سوف ينقصنا شخص، هذا كل ما في الأمر. لا أفهم ماذا حدث هذه الليلة. لقد اتّصلتُ بجون بيفر ولكن حتى هو رفضَ أنْ يأتي ")

قالت مارجوري، وهي تعيد سماعة الهاتف إلى مكانها، " أتعلمين، أنتِ تُثيرين الكثير من المشاكل. لقد استوليتِ على الرجل الوحيد الباقي في لندن "

" أوه يا إلهي، لم أُدرك أنَّ... "

وصل بيفر عند الساعة التاسعة إلا ربعاً وهو في حالة من الرضا التام عن النفس، كان قد رفضَ تلبية دعوتَين على العشاء أثناء ارتدائه ملابسه في تلك الأمسية، وصرف شيكاً بقيمة عشرة جنيهات في ناديه، وحجزَ مائدة بأريكة في مطعم اسبينوزا. كانت تلك أول مرة في حياته يخرج مع أحد على العشاء، لكنه كان يعلم جيداً كيف يفعل ذلك.

قالت مارجوري " يجب أنْ أرى صاحبك السيد بيفر عن قُرب. فلندعه يخلع معطفه ويشرب شيئاً "

كانت الأختان تشعران بشيءٍ من الحياء وهما تهبطان إلى الطابق السفلي، لكنَّ بيفر كان يتصرَّف بكل ارتياح. بدا شديد الأناقة وأكبر من عمره الحقيقي.

بدت مارجوري وكأنها تقول " أوه، صاحبك بيفر ليس سيئاً أبداً، ليس سيئاً على الإطلاق "، وحين شاهد هو المرأتين معاً، وكلتاهما جميلتان، وإنْ كان ذلك بأسلوبٍ من شدّة الاختلاف بحيث كان من الممكن أنهما، على الرغم من أنه من الجليّ أنهما أُختان، تنتميان إلى سلالتين منفصلتَين، بدأ يفهم ما الذي أربكه طوال الأسبوع، ولماذا، خِلافاً لكل عادة ومبدأ، أبرقَ إلى بريندا يدعوها لتناول العشاء.

" إنَّ السيدة جيمي دين منزعجة جداً لأنها لم تتمكن من دعوتك هذه الليلة. أنا لم أُفشِ ما كنتَ تفعله "

قال بيفر " انقلي لها حبي. على أي حال سوف نجتمع كلنا عند بولي "

" يجب أنْ أذهب، نحن نتناول العشاء عند الساعة التاسعة "

قالت بريندا " ابقي قليلاً، هي حتماً ستتأخَّر "

والآن وقد بات الأمر مُحتّماً، لم ترغب في أنْ تُترك وحدها مع بيفر.

" كلا، يجب أنْ أذهب. استمتعا معاً، بوركتما أنتما الاثنان "، وغادرتْ وكأنها هي الأخت الكبرى، ولاحظتْ خوف بريندا وترقّبها على أعتابِ مغامرةٍ جديدة.

بعد أنْ غادرتْ مارجوري شعرا بالارتباك والحرج، ذلك أنه خلال فترة الأسبوع التي فصلَت بين اللقاءين، أصبح كلٌ منهما، في الفكر، أشدّ تآلفاً مع الآخر من أي حادث طارئ حقيقي ومُبرَّر. ولو أنَّ بيفر كان أكثر خِبرة، لانتقل إلى حيث تجلس بريندا على الأريكة، وطارحها الغرام على الفور، ولربما أفلتَ بفعلته. وبدل ذلك علّقَ بسهولة " أعتقد أننا يجب أنْ نذهب نحن أيضاً "

" نعم، إلى أين؟ "

" أنا فكَّرتُ في مطعم اسبينوزا "

" نعم، جميل. ولكن اسمع. أريدُ منكَ أنْ تفهم فوراً أنها دعوتي أنا "

" طبعاً لا... هذا غير وارد "

" بل هو كذلك. أنا أكبر منك بعام وامرأة متزوجة قديمة وفاحشة الثراء، لذا، أرجوك، أنا سأدفع الحِساب "

استمرَّ بيفر في الاحتجاج حتى وصلا إلى باب سيارة الأجرة.

ولكن كان لا يزال هناك تحفُّظ سائد بينهما وبدأ بيفر يتساءل، "هل تتوقع مني أنْ أنقضَّ عليها؟ ". وهكذا، أثناء انتظارهما وسط شلل حركة المرور عند ماربل آرك، مالَ إلى الأمام لكي يُقبِّلها، حين أصبحَ قريباً جداً، تراجعَتْ. قال " بريندا، أرجوكِ "، لكنها أشاحتْ بوجهها ونظرت إلى خارج النافذة، وهي تهزّ رأسها مرات عِدّة بحركة سريعة. ثم مدَّتْ يدها، ولا تزال عيناها مثبتتين على النافذة، إلى يده وجلسا صامتَين حتى وصلا المطعم.

حار بيفر أيَّما حيرة.

حالما خرجا إلى العَلَن من جديد، عادتْ إليه ثقته في نفسه. قادهما اسبينوزا إلى مائدتهما، كانت مائدة منزوية تقع إلى يمين الباب، المائدة الوحيدة في المطعم التي لا يُسمَع ما يجري عليها من حديث. سلّمته بريندا اللائحة. " اختَرْ أنت. أنا يكفيني القليل، ولكن يجب أنْ يحتوي فقط على نشا، ولكن من دون بروتين "

الفاتورة في مطعم اسبينوزا تكون في الأساس واحدة تقريباً مهما

أكل المرء، لكنَّ بريندا لم تكن تعلم ذلك، لذا، بما أنه بات الآن مفهوماً أنها هي التي ستدفع، شعر بيفر بالانكماش عن طلب أي شيء يبدو بوضوح أنه غالي الثمن. لكنها أصرَّتْ على طلب الشمبانيا، ولاحقاً أمرَتْ له ببالون[٩] من البراندي. " لن تتصوَّر كم أنا مُبتهجة لأني أخرجُ مع شاب. أنا لم أفعل هذا من قبل "

بقيا في مطعم اسبينوزا إلى أنْ حان موعد الالتحاق بالحفلة، رقصا مرةً أو مرّتين، لكنهما في الغالب جلسا على الطاولة، وتحدثا. كان اهتمام كل منهما في الآخر حتى ذلك الحين قد سبقَ معرفتهما بأنَّ هناك الكثير من الكلام يجب أنْ يُقال.

في الحال قال بيفر " أنا آسف لأني تصرَّفتُ بحمق في سيارة الأجرة الآن "

" هه؟ "

غيَّرَ من صيغة الكلام وقال " هل كان لديكِ اعتراض على مُحاولتي تقبيلك قبل قليل؟ "

" أنا؟ لا، أبداً "

" إذن لماذا لم تدعيني أفعلْ؟ "

" أوه، يا إلهي، ما زال أمامك الكثير لتتعلّمه "

" ماذا تقصدين؟ "

" ينبغي ألاّ تطرح مثل هذه الأسئلة. هلاّ حاولت وتذكَّرت هذا؟ "

ثم أصبحَ متجهّماً. " إنكِ تُخاطبينني وكأني طالب يحظى بأوَّل موعد "

---

٩ – بالون: وعاء أشبه بالدورق.

" أوه، وهل هذا موعد؟ "

" ليس من ناحيتي "

سادت فترة صمت قالت بريندا خلالها " لست متأكّدة مما إذا كان الخروج معك لتناول العشاء ليس خطأ. فلنطلب الفاتورة ومن ثم ننتقل إلى حفل بولي "

لكنَّ جلْبَ الفاتورة استغرقَ عشر دقائق، وخلال ذلك الوقت كان على بيفر وبريندا أنْ يقولا شيئاً، فقال إنه آسف.

قالت برصانة " ينبغي أنْ تتعلّم أنْ تكون أكثر لطفاً. لا أعتقد أنكَ ستجد ذلك مستحيلاً ". حين جاءتْ الفاتورة أخيراً، قالت، " كم أعطيه إكرامية؟ "، فبيَّنَ لها بيفر " أتعتقدين أنَّ هذا يكفي؟ لو كنتُ مكانك لأعطيته ضعفه "

قال بيفر، شاعراً من جديد بأنه الأكبر سناً، تماماً كما قصدَتْ بريندا أنْ تجعله يشعر، " هذا هو المبلغ الصحيح "

عندما جلسا في سيارة الأجرة أدركَ بيفر على الفور أنَّ بريندا تمنَّت منه أنْ يُطارحها الحب. لكنه قرَّرَ أنه حان الوقت ليمسك بزمام الأمر. لذا جلس على مسافة منها وأبدى ملاحظةً حول منزلٍ قديم كان يُهدَم لكي يُقام مكانه مجمع سكني.

قالت بريندا " اصمت. تعال إلى هنا "

عندما قبَّلها، أخذت تحتك بخدّه كما تفعل عادةً.

* * *

كانت حفلة بولي بالضبط كما تمنَّتها، نسخةً دقيقة عن كل الحفلات الجيدة التي حضرتها خلال العام السابق، الفرقة الموسيقية نفسها، مائدة

العشاء نفسها، وقبل كل شيء، الضيوف أنفسهم. لم يكن طموحها أنْ تُحدِث جواً رائعاً، أنْ تجعل الحفل حديث الناس على مدى شهور تالية بسبب أي مظهر غير اعتيادي فيها، وأنْ تتصيَّد المشاهير الخجولين أو أنْ تقدِّم غرباء أجانب إلى المجتمع. لقد أرادتْ حفلةً أنيقة، عادية جداً وقد حقَّقَتْ ما أرادت. وعملياً كل مَنْ دُعيَ حضر. وإذا كان هناك عوالم أخر، أنأى لم ترتطم بها بولي، فهي لا تعلم بوجودها. هؤلاء هم الأشخاص الذين تسعى إليهم، وها هم قد حضروا. وحين تتلفَّت حولها إلى ضيوفها، ولورد كوكْبيرس، الذي يتلبَّس بإخلاص إحدى أندر هيئاته من أجل الأمسية، إلى جانبها، تستطيع أنْ تهنّئ نفسها لأنَّ عدد الأشخاص الذين لا ترغب في وجودهم قليل. في أعوام أخرى كان الناس يتقبّلون حُسن ضيافتها بشكلٍ عادي وكانوا يجلبون معهم أي شخص تصادفَ أنْ تناولوا العشاء معه. أما هذا العام، ومن دون أنْ تبذل جهداً واعياً، ساد جو رسمي أكثر. وأولئك الذين أبدوا رغبة في اصطحاب أصدقاء اتّصلوا هاتفياً في الصباح وسألوا إنْ كان في وسعهم أنْ يفعلوا ذلك، وفي الإجمال كانوا حذرين في المغالاة في إبداء الجراءة. والذين كان جديراً بهم، قبل ثمانية عشر شهراً، أنْ يتظاهروا بجهلهم بوجودها، يتزاحمون الآن على دَرَجها. كانت تقف في صفٍ واحد مع المتزوجات في عالمها.

أثناء ارتقائهما الدَرَج، قالتْ بريندا " لا تتركني، أرجوك. ليست لدي نيّة في التعرُّف على أحد "، ومرةً أخرى وجد بيفر نفسه الذكَر المُهيمن.

دخلا مباشرةً إلى موقع الفرقة الموسيقية وباشرا الرقص، دون أنْ

يتبادلا من الكلام الكثير إلا لكي يُحيّيا زوجاً آخر يعرفانهما. رقصا مدة نصف ساعة ومن ثم قالت " حسن، سأمنحك فترة راحة. ولكن لا تتركني وحدي "

رقصَتْ مع جوك غرانت-منزيس ومع اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء القدامى ولم تعُد إلى الاجتماع ببيفر إلى أنْ صادفته وحيداً على البار. كان يجلس هناك منذ وقت طويل، يتحدث أحياناً إلى أزواج يدخلون أو يخرجون، ولكن كان دائماً ينتهي به الأمر وحيداً. لم يكن يستمتع بالأمسية وقال لنفسه بامتعاض إنَّ ذلك بسبب بريندا، لو أنه جاء إلى هنا ضمن مجموعة كبيرة لاختلف الأمر.

لاحظتْ بريندا أنه حانق فقالت " حان وقت تناول العشاء "

كان الوقت مُبكراً، وأكثر الموائد خالية إلا من زوجين تبدو عليهما الجدّية جالسَين وحدهما. كانت هناك طاولة كبيرة مستديرة بين نافذتَين، لا يجلس عليها أحد، فجلسا عليها.

" أنا لا أعتزم الانتقال قبل فترة طويلة، فهل تُمانع؟ ". أرادتْ أنْ تدفعه إلى الشعور بأهميته من جديد، فسألته عن أشخاص آخرين موجودين في المكان.

وسرعان ما امتلأت طاولتهما بالأشخاص. حضرَ أصدقاء بريندا القُدامى الذين كانت تعيشُ بينهم في أول خروجٍ لها وخلال السنتين الأوليين من زواجها، قبل وفاة والد توني، رجال في أوائل ثلاثينات أعمارهم، نساء متزوجات من أقرانهن، ولا أحد منهم كان يعرف بيفر أو أحبّه. كانت بلا جِدال أكثر الموائد مرحاً في المكان. قالتْ بريندا في نفسها " كم كان زوجي المسكين سيكره هذا "، ولم يتبدَّ لها، من وِجهة

نظر بيفر، أنَّ أصدقاءها القُدامى أولئك كانوا من أمتع مَن في الحفل صُحبة، وأنَّه سعُدَ بوجوده على طاولتهم. همسَتْ " هل أنتَ ضجِر؟ "

" كلا، حقاً، لم أكن مرةً أسعدَ حالاً "

" حسن، أنا ضجِرة. هيا بنا نرقص "

لكنَّ الفرقة الموسيقية كانت تأخذ قسطاً من الراحة ولم يكن هناك أحدٌ في صالة الرقص غير الزوج الجدّي الذي نزح مبتعداً عن الحشد وجلس رابضاً في عزلة الجدران، غائصاً في الحديث. قالتْ بريندا، " أوه يا إلهي، الآن قُضيَ علينا. لا نستطيع أنْ نعود إلى الطاولة... يكاد يبدو وكأنَّ علينا أنْ نعود إلى بيوتنا "

" الساعة لم تبلغ الثانية بعد "

" هذا وقت متأخر بالنسبة إليّ. اسمع، لا تأتِ أنتَ معي. ابقَ واستمتع "

قال بيفر " طبعاً أنا آتٍ معك "

كان الليل صافياً وبارداً. ارتعشَتْ بريندا فأحاطها بذراعه في سيارة الأجرة. لم يتبادلا الكثير من الحديث.

" أوَصَلنا بهذه السرعة؟ "

بقيا جالسَين بضع لحظات دون أنْ يأتيا بحركة. ثم تحرَّرت بريندا منه وخرج بيفر "

" أخشى أني لا أستطيع أنْ أدعوكَ إلى الدخول لتناول مشروب. كما تعلم إنه ليس منزلي وأنا لا أعرف مكان أي شيء "

" لا، طبعاً لا "

" حسن، تصبح على خير، يا عزيزي. ألف شكر على عنايتك بي. أخشى أني أفسدتُ عليك الأمسية "

قال بيفر " كلا، هذا طبعاً غير صحيح "

" اتصل بي هاتفياً في الصباح... أتعدني؟ ". لمسَتْ شفتيها بيدها ثم أدارت المفتاح في ثقب الباب.

تردَّدَ بيفر دقيقة هل يعود إلى الحفل أم لا، وقرَّرَ ألا يفعل. كان قريباً من المنزل، وفي ذلك الوقت كل شخص في حفل بولي قد استقرَّ، لذا ترك عنوانه في سسكس غاردنز، وذهب لينام.

بينما كان يخلع ملابسه سمعَ جرس الهاتف يرنّ في الطابق السفلي. إنه هاتفه. هبطَ إلى أسفل، مطلعيّ درج في عز البرد. كان صوت بريندا.

" عزيزي، كدتُ أنهي المكالمة. حسبتُ أنكَ رجعتَ إلى حفلة بولي. هل الهاتف بعيد عن سريرك؟ "

" كلا، إنه في الطابق الأرضي "

" أوه يا إلهي، إذن لم تكن فكرة جيدة جداً أنْ أتصل بكَ، أليس كذلك؟ "

" أوه، لا أدري. ما الأمر؟ "

" فقط لأقول لك " تصبح على خير " "

" أوه، فهمت، حسن - تصبحين على خير "

" وستتصل بي في الصباح؟ "

" نعم "

" باكراً، قبل أنْ تضع أي خطط "

" نعم "

" إذن تصبح على خير، بوركت "

ارتقى بيفر مطلعيّ الدَرَج من جديد، واندس في السرير.

* * *

"... مغادرة في منتصف الحفل "

" لا أستطيع أنْ أصِفَ لكِ كم كان الحفل بريئاً. إنه حتى لم يندمج "

" لن يعلم بهذا أحد "

" وكم غضب حين اتصلتُ به "

" ما هو رأيه فيك؟ "

" ببساطة لا يستطيع أنْ يفهمني على الإطلاق... إنه شديد الارتباك، وضجِر جداً "

" هل ستستمرين في العلاقة؟ "

" لا أدري "، ورنَّ جرس الهاتف، " لعله هو ".

لكنه لم يكن هو.

ولجَتْ بريندا غرفة مارجوري وتناولتا معاً طعام الإفطار. وكانت مارجوري أكثر من أي وقتٍ مضى أختاً كبرى في صباح ذلك اليوم.

"ولكن، حقاً، يا بريندا، إنه شاب كئيب جداً "

" أعلمُ هذا جيداً. إنه مبتذل ومتعجرف، وأعتقد أيضاً أنه باردٌ كسمكة، ولكن تصادفَ أني أولعتُ به، هذا كل ما في الأمر... ثم إني لستُ متأكدة كثيراً من أنه رديء من كل النواحي... لديه أم بغيضة يعبدها... ولطالما كان فقيراً. لا أعتقد أنّه قد حظيَ بفرصة عادلة مرةً في حياته. سمعتُ حكايته كلها في الليلة الفائتة. لقد خطبَ مرةً لكنهما لم يتمكنا من الزواج بسبب قِلّة المال ومنذ ذلك الحين لم يُقِمْ أي علاقة جيدة مع أي شخص لائق... يجب أنْ يتعلّم أشياء كثيرة. وهذا يشكّل جزءاً من جاذبيته "

" أوه يا إلهي، أرى أنكِ جادة جداً "

رنَّ جرس الهاتف.

" ربما هذا هو "

لكنَّ صوتاً مألوفاً انبعثَ عالياً من الجهاز لكي تسمعه بريندا، " صباح الخير، يا عزيزتي، ما الأخبار اليوم؟ "

" أوه، بولي، كم كانت حفلة رائعة بالأمس "

" ليست سيئة جداً بالنسبة إلى الصديقة القديمة. أليس كذلك؟ بالمناسبة، ما أخبار أختك والسيد بيفر؟ "

" ماذا عنهما ؟ "

" منذ متى يجري هذا ؟ "

" لا شيء يجري هناك، بولي "

" لا تُخفي عني. ليلة أمس كانا غاية في الانسجام. كيف نجحَ الفتى في ذلك؟ هذا ما أريد أنْ أعرفه. لابد أنَّ لديه شيئاً لا نعرفه... "

" إذن فقد عرِفَتْ بولي بعلاقتك. في هذه اللحظة هي تخبر كل إنسان في لندن عنها "

" كم أتمنى أنْ يكون هناك ما يُحكى! حتى إنَّ الفتى لم يتصل بي... حسن، سأدعه وشأنه. إذا لم يفعل شيئاً بخصوصي، فسأتوجه إلى هتون بعد ظهر هذا اليوم. ربما هذا هو "، لكنه كان ألان من المكتب المركزي للمحافظين، يتصل ليعبِّر عن عميق أسفه لأنه لم يتمكَّن من الالتحاق بالحفلة في الليلة السابقة. قال " أسمعُ أنَّ بريندا أساءتْ إلى سمعتها "

قالتْ بريندا " يا إلهي، إنَّ الناس يظنون أنَّ المرء يُصادف الشبان بسهولة "

* * *

قالت السيدة بيفر " إنني بالكاد رأيتكَ في حفل بولي مساء أمس. ماذا حدث لك؟ "

" لقد غادرنا باكراً. كانت بريندا لاست مُتعبة "

" بدت ظريفة. أنا في منتهى السعادة لأنكَ عقدتَ صداقةً معها. متى ستقابلها من جديد؟ "

" قلتُ لها إني سأتصل بها "

" حسن، ولِمَ لم تفعل؟ "

" أوه، ماما، ما الفائدة؟ لا يمكنني تحمّل تكاليف البدء بعلاقة مع نساء من نوع بريندا لاست. إذا اتّصلتُ بها ستقول، ماذا تفعل، وسأُضطر إلى دعوتها إلى شيءٍ ما، وسيتكرّر الأمر كل يوم. وأنا ببساطة ليس لديّ المال اللازم لذلك "

" أعلمُ، يا بُني. إنَّ الأمرَ شديد الوطأة عليك... وأنت رائع فيما يخص النقود. وجدير بي أنْ أكون ممتنّة لأنه ليس لدي ولد يأتي إليّ دائماً مُثقلاً بالديون. ومع ذلك، هذا لا يعني أنْ تحرم نفسك من كل شيء. لقد بدأتَ تصبح عازباً عجوزاً منذ الآن وأنت لم تتجاوز الخامسة والعشرين. لقد وجدتُ أنَّ بريندا تشبهك، عندما جاءت إلى هناك في تلك الأمسية "

" أوه، إنها مُعجبة بي فعلاً "

" آمل أنْ تُقرِّر أخذ تلك الشقة. إنها تُباع كالكعك الساخن. سوف أضطر إلى التفتيش عن منزلٍ آخر مناسب لأقوم بتقسيمه. سوف تُفاجأ إذا علِمتَ مَنْ يشتريها - عدد كبير من الناس لديهم في الأصل منازل في لندن... حسن، يجب أنْ أعود إلى العمل. وبالمناسبة سوف أغيب عن

المنزل مدة يومين. اجعل تشامبرز يعتني بكَ جيداً. لقد قابلْتُ سيلفيا نيوبورت عدداً من الأستراليين يريدون أنْ يشتروا بيتاً في الريف، لذا سآخذهم بالسيارة لأعرضَ عليهم بيتاً أو بيتين قد تناسبهم. أين ستتناول طعام الغداء؟ "

" عند مارغو "

بحلول الساعة الواحدة، ولدى عودتهما من نزهة جنّي في الحديقة العامة، ولم يكن بيفر قد اتّصلَ بعد، قالتْ بريندا " إذن لا مفرّ. أستطيع أنْ أقول إني سعيدة حقاً " وأرسلتْ برقية إلى توني تنبئه بأنها ستصل بعد الظهر بالقطار ثم أمرتْ، بصوت منخفض، بحزمِ أمتعتها. قالت "يبدو أنه ليس لي أي مكان أتناول طعام الغداء فيه "

" لِمَ لا تأتين إلى منزل مارغو؟ أنا متأكدة من أنها ستحب ذلك "

" حسن، اتصلي بها هاتفياً واسأليها "

وهكذا قابلت بيفر من جديد.

كان جالساً على مسافة قريبة منها ولم يتبادلا الكلام إلا بعد أنْ بدأ الجميع بالمغادرة. قال " حاولت طوال فترة الصباح أنْ أتّصلَ بكِ، لكنَّ الخط كان دائماً مشغولاً "

قالتْ بريندا " أوه، هيا، سأدعوك لمشاهدة فيلم "

لاحقاً أبرقَتْ إلى توني تقول : " سأمكث مع مارجوري يوماً آخر أو يومين مع حبي لكما ".

- ٤ -

" هل ستعود الماما اليوم؟ "

" آمل أنْ تفعل "

" لقد دامت حفلة تلك المرأة-القردة مدة طويلة. هل أستطيع أنْ أذهب إلى المحطة لأقابلها ؟ "

" نعم، سنذهب معاً "

" إنها لم ترَ ثندركلاب من أربعة أيام. ولم تشاهدني وأنا أقفز من فوق العائق والحاجز الجديدين، أليس كذلك، يا أبي؟ "

كانت ستصل بحلول الساعة الثالثة وثماني عشرة دقيقة. ووصلَ توني مع جون أندرو إلى هناك باكراً. راحا يجولان حول المحطة ويتفرّجان على الأشياء، واشتريا بعض الشوكولاة من آلة شقّية. ثم خرج مدير المحطة ليتحدث معهما. " هل ستعود سيادتها اليوم؟ ". كان صديقاً قديماً لتوني.

" إننا نتوقّع وصولها كل يوم. وأنتَ تعلم كيف يكون الحال عندما تذهب النساء إلى لندن "

" لقد ذهبت زوجة سام بريس إلى لندن ولم يستطع أنْ يستعيدها. واضطرّ إلى إعادتها بنفسه. ومن ثم ضربَته "

سرعان ما وصل القطار وظهرت بريندا بهيئة رائعة من عربتها في الدرجة الثالثة. " أرى أنكما أتيتما أنتما الاثنان. أنتما ملاكان. أنا لا أستحق هذا أبداً "

" أوه، ماما، هل جلبتِ معك المرأة-القردة؟ "

" ماذا يقصد الطفل؟ "

" لقد دخلَ في خَلَده أنَّ لصديقتك بولي ذيلاً "

" حين أفكّر في الأمر، لن أُفاجأ إذا اتّضحَ أنَّ لها واحداً "

كانت أمتعتها كلها يحتويها صندوقان. حَزَمَهما سائق السيارة الخاصة خلف السيارة، وانطلقوا إلى هيتون.

" ما الأخبار؟ "

" بن وضع الحاجز في أعلى نقطة وثندركلاب وأنا قفزنا من فوقه ست مرات بالأمس وست مرات أخرى اليوم وماتت سمكتان أُخريان في البركة الصغيرة، طفتا على جنبيهما منتفختان وأحرقت ناني إصبعها على إبريق الشاي بالأمس وأبي وأنا شاهدنا ثعلباً عن قُرب كأي شيء وجلسَ بهدوء تام ومن ثم ابتعد داخل الغابة وباشرتُ رسمَ صورةٍ معركة لكنني لم أستطع أنْ أنهيها لأنَّ الألوان لم تكن مضبوطة وحصان العربة الرمادي المُصاب بالديدان استعاد صحّته من جديد "

قال توني " لم يحدث الشيء الكثير. لقد اشتقنا إليك. ماذا فعلتِ طوال ذلك الوقت في لندن؟ "

" أنا ؟ أوه، لقد أسأت التصرُّف إلى درجة أني لا أستطيع أنْ أبوح بالحقيقة "

" في شراء الأغراض؟ "

" أسوأ. لقد كنتُ أقيمُ علاقة مجنونة مع شبّان وأنفقتُ مبالغ هائلة من المال واستمتعتُ بذلك كل الاستمتاع حقاً. ولكن هناك شيء واحد فظيع "

" وما هو؟ "

" كلا، أعتقد أنه يُستحسَن أنْ أحتفظ بها. إنه شيء لن يعجبك أبداً "

" اشتريت كلب بكيني "

" أسوأ، أَسوأ بكثير. لكني لم أفعله بعد. ولكنني أرغب في ذلك بشكلٍ رهيب "

" تابعي "

" توني، لقد عثرتُ على شقّة "

" في الواقع، يُستحسن أنْ تخسريها مرة أخرى، وبسرعة "

" حسن. سوف أهاجمك بشأنها من جديد لاحقاً. وحتى ذلك الحين، حاولْ ألا تُكثِر من التفكير في الأمر "

" لن أُعيد التفكير فيه "

" أي شقة، بابا ؟ "

* * *

ارتدت بريندا بيجاما على العشاء، وبعد ذلك جلست قريبة من توني على الصوفا وأكلتْ بعض قطع السُكر التي أخذتها من فنجان قهوته.

" هل أفهم أنَّ هذا كله يعني أنكِ ستباشرين من جديد الحديث عن شقّتك؟ "

" مممم "

" هل وقّعتِ على أي أوراق؟ "

" أوه كلا "، هزّتْ بريندا رأسها مُشدِّدة.

" إذن فلم يحدث أي ضرر " وباشر توني بملء غليونه.

ركعَتْ بريندا على الصوفا، وجلست على عقبيها. " اسمع، هل كنتَ مُستغرقاً في التفكير؟ "

" كلا "

" لأنكَ، في الواقع، حين تقول " شقة " فإنكَ تبدو لي مختلفاً تماماً. أنتَ تعني بالشقّة، مصعداً ورجلاً بزيّ رسمي، وباباً أمامياً كبيراً

ومقابض أبواب، ومدخلاً واسعاً وأبواباً تُفتَح في كل الاتجاهات، مع مطابخ وحجرات للمؤن وغرف لتناول الطعام وغرف جلوس وغرف نوم للخدم... أليس كذلك، يا توني؟ "

" بصورةٍ أو بأخرى "

" بالضبط. أما أنا فأعني بها غرفة نومٍ وحمّاماً وجهاز هاتف. هل ترى الفرق؟ أنا أعرف امرأةً - "

" مَنْ هي؟ "

" مجرد امرأة - عثرت على منزلٍ بأكمله يُشبه هذا بالقرب من ساحة بلغريف ويكلّف ثلاثة جنيهات في الأسبوع، بلا فوائد أو ضرائب، ومياه حارة لا تنقطع وتدفئة مركزية، وامرأة لترتِّب السرير عند اللزوم، فما رأيكَ في هذا؟ "

" فهمت "

" هكذا أرى الأمر. ما قيمة ثلاثة جنيهات في الشهر؟ إنها أقلّ من تسعة شلنات في الليلة. أين يمكن النزول مقابل أقلّ من تسعة شلنات مع كل هذه المزايا؟ أنتَ تتردَّد دائماً على النادي، وهذا يُكلِّف أكثر، وأنا لا أستطيع أنْ أنزل عند مارجوري كثيراً لأنَّ ذلك يزعجها كثيراً، وعلى أي حال لديها ذلك الكلب، ومن الطبيعي دائماً أنْ تقول إبّان عودتي في المساء بعد التسوُّق، " لِمَ لا تمكثين هذه الليلة بدل أنْ تقتلي نفسك؟ " وتكرر ذلك. وأنا متأكدة من أننا ننفق أكثر من ثلاثة جنيهات بكثير في الأسبوع إذا لم نحصل على شقّة. أقول لكَ شيئاً، سوف أتخلّى عن جلسات السيد كرتْويل. ما رأيكَ في هذا؟ "

" أحقاً تريدين هذا الشيء؟ "

" ممم "

" حسن، يجب أنْ أعاين بنفسي. قد ننجح في أخذها، ولكن ذلك سيعني تأجيل إجراء الإصلاحات هنا "

قالت، متشبّثة بالأمر، " أنا حقاً لا أستحقها، على أي حال لقد كنتُ أتمادى هذا الأسبوع "

* * *

استمرَّ مكوث بريندا في هيتون فقط ثلاث ليال. ثم عادت إلى لندن، قائلةً إنَّ عليها أنْ تستعرض الشقّة. لكنَّ الشقة لم تكن تتطلَّب الكثير من العناية. هناك فقط انتقاء لون الدهان وبعض قِطع الأثاث. وكانت السيدة بيفر قد أعدَّتها لها لكي تتفحّصها، سرير، سجادة، طاولة زينة وكرسي - لم يكن هناك مُتَّسع للمزيد. حاولتْ السيدة بيفر أنْ تبيعَها مجموعة لوحات مصنوعة بشغل الإبرة لتعليقها على الجدران، لكنها رفضت، وأيضاً مُدفئ سرير كهربائي، وميزاناً صغيراً للحمّام، وبرّاداً، وساعة أثرية من أيام الأجداد، ومجموعة لعبة طاولة مصنوعة من الزجاج والعاج المُركّب، ومجموعة ذات غلاف جميل لشعراء فرنسيين من القرن الثامن عشر، وجهاز تدليك، وجهاز لا سلكي مُثبَّت إلى علبة من لِكْ ريجنسِي، كلها جُمِعَتْ في المحل لأجلها كـ " اقتراح ". لم تحقد السيدة بيفر على بريندا بسبب تواضع متطلباتها، كانت تنجز عملاً جيداً جداً في الطابق العلوي مع سيدة كندية تقوم بتغطية جدرانها بألواح الكروم بتكلفة باهظة.

في تلك الأثناء مكثتْ بريندا مع مارجوري، بشروطٍ أضحت بالتدريج قاسية. وذات صباح قالتْ " يؤسفني أنْ أبدو مغرورة، ولكني لا

أريد من صاحبك السيد بيفر أنْ يحوم في أرجاء المنزل طوال النهار ويُناديني بمارجوري "

" أوه حسن، قريباً ستصبح الشقّة جاهزة "

" وأنا سأظل أقول إني أعتقد أنكِ ترتكبين خطأً جسيماً "

" كل ما في الأمر أنكِ لا تحبّين السيد بيفر "

" ليس هذا فقط. أعتقَد أنَّ ما يحدث لا يُعجب توني "

" أوه، إنَّ توني لا يُمانع "

" وإذا نشب شجار - "

" لن ينشب شجار "

" مَنْ يدري. فإذا حدثَ ذلك، لا أريد لألان أنْ يعتقد أنَّ لي يداً في الأمر "

" أنا لم أزعجكِ فيما يخص روبن بيزلي "

قالتْ مارجوري " لم يحدث الشيء الكثير في ذلك "

ولكن إذا استثنينا مارجوري، فإنَّ الرأي العام كان إلى حدٍ بعيد لصالح مغامرة بريندا. رنَّ هاتف الصباح حاملاً أخباراً عنها، حتى الذين ليست لها إلا أقلّ معرفة بهم سعدهم أنْ يحكوا أنهم قد شاهدوها مع بيفر في الأمسية السابقة في أحد المطاعم أو دور السينما. كاد فصل خريف يخلو من الرومانسية، لم يفترق خلاله أو يلتئم شمل إلا المعروفين من الناس، وكانت بريندا تُشبِعُ حاجةً طالما شعر بها الذين متعتهم البسيطة، التي يُمارسونها بالنيابة، أنْ يُناقشوا الموضوع وهم في السرير عبر الهاتف. بالنسبة إليهم ظروفها تشع وَهَجاً خاصاً، فعلى مدى خمسة أعوام كان اسمها أسطورياً، وكاد يصبح مُخيفاً، كأميرة الحكاية الخرافية

السجينة، والآن بعد أنْ تحرَّرتْ أصبح لظهورها سحراً أقوى من مجرَّد تغيير عادة أي زوجة حذرة أخرى. وقد أضفى مجرَّد اختيارها لشريكها على العلاقة لمسة خيالية مناسبة، فبيفر، الشخصية المُضحكة التي يعرفها الجميع ويحتقرونها، ارتبطَ فجأةً بها بين سحب عُلويّة مُضيئة. ولو أنها، بعد مرور سبع سنوات، ودون أنْ تلتفت إلى اليسار أو إلى اليمين، انفصلَتْ على الأقلّ عن جوك غرانت-منزيس أو روبن بيزلي أو عن أي متأنّق شاب آخر أولعَ به الجميع تقريباً في وقتٍ من الأوقات، لكان الأمر مُثيراً دون أدنى شك، ولكن كمسرحية هزلية مباشرة، تصلح لغرف الجلوس. لقد رفعَ اختيارها لبيفر هذا التصرُّف المتهور الطائش إلى مرتبةٍ من الشعر بالنسبة إلى بولي ودايزي وأنجيلا وشلّة الثرثرة كلها.

لم تجد السيدة بيفر أي حرج في ابتهاجها. " طبعاً الموضوع لم يُثَر بين جون وبيني، ولكن إذا صحَّ ما سمعت، أعتقد أنه سيُفتَح أمام الفتى عالم من السعادة. طبعاً هو كان دائماً مطلوباً وله عدد كبير من الأصدقاء، لكنَّ الأمرين مختلفان. لطالما شعرتُ أنه يفتقر إلى شيءٍ ما، وأنَّ امرأةً فاتنة ومُجرِّبة مثل بريندا لاست هي الشخص المناسب لمساعدته. إنه يتمتَّع بفطرةٍ عاطفيّة جداً، لكنه من فرط الحساسية بحيث يُظهِرها... وأقول لك الحقيقة لقد شعرتُ بشيءٍ من هذا القبيل في الأسبوع الفائت، لذا اختلقتُ عذراً لأبتعد بضعة أيام. ولو كنتُ موجودة هناك لما وصلت الأمور إلى أي نتيجة. إنه شديد الحياء ومتحفظ حتى معي. سوف أرتِّب الأمور وأبعث إليكِ رسالة بعد ظهر هذا اليوم. شكراً جزيلاً لك "

وجد بيفر نفسه، للمرة الأولى في حياته، مركزَ اهتمام، وتقريباً ذا

أهمية. كانت النساء يُدققنَ النظر فيه، متسائلات ما الذي أفلتْ من انتباههن فيه، وكان الرجال يعاملونه كمساوٍ لهم، بل كزميل ناجح ومنافس. وربما تساءلوا " كيف أفلتْ بحق الله بفعلته؟ "، أما الآن، عندما ولجَ نادي برات، أفسحوا له مكاناً على البار وقالوا "حسن، أيها الصديق العزيز، ما رأيك بمشروب؟ "

* * *

كانت بريندا تتصل بتوني في صباح ومساء كل يوم. وكان جون أندرو أيضاً يُكلمها أحياناً، بصوت حادّ كصوت بولي كوكْبيرس، ويعجز تماماً عن سماع ردودها. وذهبت إلى هيتون لتمضية عطلة نهاية الأسبوع، ومن ثم عادتْ إلى لندن، هذه المرة إلى الشقة حيث كان الدهان قد جفَّ، على الرغم من أنَّ الماء الحار لم يكن يعمل بصورة جيدة تماماً، كان كل شيء يفوح برائحة جديدة جداً - الجدران، الملاءات، الستائر - والمشعات الجديدة كانت تبعثُ رائحة حديد ساخن ليست مقبولة كثيراً.

في مساء ذلك اليوم اتّصلتْ كالمعتاد بهيتون. " أنا أتكلّم من الشقة "

" أوه، أه "

" عزيزي، حاول أنْ تُظهِر الاهتمام. أنا شديدة الحماس "

" كيف شكلها؟ "

" في الواقع، هناك الكثير من الروائح الذكية في الوقت الحاضر والحمّام يُصدِر أصواتاً غريبة وعند فتح حنفية المياه الحارة لا ينبثق إلا دفق من الهواء ولا أكثر، وحنفية المياه الباردة لا تكفّ عن القطر والمياه يميل لونها إلى البنّي وأبواب الخزانات لا تُفتح بسهولة والستائر لا

تنسحب بسهولة بحيث أنَّ ضوء مصباح الشارع يسطع طوال الليل... لكنها لذيذة "

" لا داعي لأنْ تقولي "

" توني، يجب أنْ تكون لطيفاً حول الموضوع. إنَّ الأمر مُثير جداً - باب أمامي ومفتاح مزلاج وكل شيء... وأرسل لي أحدهم الكثير من الأزهار اليوم - كثيرة إلى درجة أنه لم يعُد هناك مُتّسع لها واضطررتُ إلى وضعها في الحوض لأنه لم يبقَ لدي أُصص. هل أنتَ مَنْ أرسلها ؟ "

" نعم... في الواقع "

" عزيزي، هذا ما كنتُ آمل... كم هو خليقٌ بك "

" ثلاث دقائق، من فضلك "

" يجب أنْ أتوقف الآن "

" متى ستعودين؟ "

" على الفور تقريباً. عمتَ مساءً، يا حبيبي "

قال بيفر " ما أكثر كلامك "

طوال فترة الحديث عبر الهاتف، كانت منشغلة بإحدى يديها في إبعاده عن جهاز الهاتف، الذي كان يُهدد عابثاً بفصل خطّه.

" أليس لطيفاً من توني أنْ يُرسِل هذه الأزهار؟ "

" أنا لستُ مولعاً كثيراً بتوني "

" لا تدع هذا يُقلقكَ، أيها الوسيم، فهو لا يحبك البتّة "

" أحقاً؟ ولِمَ لا؟ "

" لا أحد يحبك غيري؟ يجب أنْ تفهم هذا جيداً.. أمر شديد الغرابة أنْ أفعل أنا "

* * *

كان بيفر وأمه مسافرين إلى أيرلندا لقضاء فترة عيد الميلاد، في زيارة لأقربائهما. وأقام توني وبريندا حفلاً عائلياً في هيتون : بحضور مارجوري وألان، ووالدة بريندا، وعمّة توني فرانسيس وعائلتين من فرع لاست المعوزين، ضحايا بكورة[١٠] ذليلتين ولا تشتكيان، تعني لهم هيتون بقدر ما تعني لتوني. كانت هناك شجرة ميلاد صغيرة في غرفة الحضانة من أجل جون أندرو وأخرى كبيرة في الطابق السفلي موضوعة في منتصف الصالون وقد قام آل لاست المعوزون مدة نصف ساعة بتزيينها وإضاءتها بعد شرب الشاي (وقد وقف خادمان واقفان جانباً يحملان عصوين على طرفيهما اسفنجتين مُبلّلتين، من أجل إطفاء الشموع التي أضحت مُحدَّبة وهدَّدت بإحداث حريق). وكانت هناك هدايا للخدم كلهم، قيمتها مُحدَّدة بصرامة وفقاً لمرتبة كلٍ منهم، وللضيوف جميعاً (شيكات للمعوزين من آل لاست). وكان ألان دائماً يجلب معه شريحة من لحم العجل، وهي وجبة مُرفّهة كان شديد الولع بها. وأكل الجميع كميات كبيرة من الطعام وأصبحوا خدرين قليلاً مع حلول مساء يوم العطلة، وأخذت مغارف فضّية من البراندي المتوهج تدور حول المائدة، وفُتِحت صناديق البسكويت الهش، وكان هناك قبعات من الورق، ومفرقعات للاستعمال داخل المنزل، وشعارات. وفي هذا العام، حدث كل شيء بأسلوبه المعتاد، ولم يبدُ أنَّ شيئاً يُهدد سلام واستقرار المنزل. ونهضَ أفراد الكورس ورتلوا تراتيل عيد الميلاد في الرواق المكسو بخشب الصنوبر، ولاحقاً شربوا البنش الحار وأكلوا البسكويت. وألقى القس عِظة عيد الميلاد المعتادة التي كان أبناء أبرشيته مولعين كثيراً بسماعها.

١٠ – البكورة : أي كون المرء بِكر أبويه . وتعني أيضاً حق الابن البِكر في الإرث .

باشـر بالقـول، وهـو يقـوم برقـة بمسح المصلّين بعـينيـه، الذين كـانوا يسعلون داخل اللفاع ويدعكون تقرُّح أيديهم بفعل البرد تحت قفازاتهم الصوف، " ما أصعب علينا أنْ نُدرك أنَّ هذا بحق عيد الميلاد. فبدل نار الحطب المتوهجة والنوافذ ذات المصاريع المُحكمة الإغلاق في وجه الثلج المنهمر، ليس لدينا غير السطوع القاسي لشمسٍ غريبة، وبدل الدائرة السعيدة من الوجوه الحبيبة، بدل المنزل والعائلة، لدينا تحديقات مُبهمة لأناسٍ مُستعبَدين، وإنْ كانوا دون أدنى شك ممتنين، وثنيين. وبدل ثور وحمار بيت لحم الوديعَين " قال القس، وقد فقد قليلاً خط المقارنة التي يُجريها، " لدينا كرفاق النمر الضاري والجمل المجلوب، ابن آوى الماكر والفيل المتأمّل... " إلخ، وهو يقرأ من صفحات مخطوط باهت اللون. لمست الكلمات لفترة وجيزة شِغاف قلوب العديد من رجال الشرطة الراكبين الفظّين، ولدى سماعها من جديد، كما سمعها عاماً بعد عام منذ أنْ التحق السيد تندريل بالأبرشية، شعر توني وأغلب ضيوفه أنها تشكّل جزءاً أصيلاً من احتفالاتهم بعيد الميلاد، وكان صعباً جداً الاستغناء عنها. وأضحى " النمر الضاري والجَمَل المجلوب " منذ زمن بعيد كلمات مأثورة في العائلة، يتردَّد ظهورها في الألعاب كلها.

هذه الألعاب كانت تشكّلُ الجزء الأصعب بالنسبة إلى بريندا. فهي لم تكن تسلّيها، وما زالت كلما رأت توني يتأنّق من أجل ممارسة لعبة التمثيلية التحزيرية تشعر بالخجل. وزيادة على ذلك، كان يُعذّبها خوفها من أنْ يفهم آل لاست الفقراء افتقارها إلى الحماس على أنه ترفُّع. ولو أنها علِمَتْ لأدركَتْ أنَّ هذه الأشياء الصغيرة كانت أموراً تافهة جداً، لأنَّ أقرباء زوجها لم يكن ليخطر على بالهم أنْ ينظروا إليها إلا بودّ الأقرباء

وبقدر من المسامحة، إذ بوصفهم من آل لاست اعتبروا أنَّ لهم حقاً في ضيعة هيتون أكثر مما لها. ولاحظت العمّة فرانسيس على الفور، بعقلها الحادّ، المشكلة وحاولتْ أنْ تُطمئنها، قائلة " يا ابنتي العزيزة، إنَّ المشاعر المُرهفة تلك كلها قيّمة، وحدهم الأثرياء يُدركون الفجوة التي تفصلهم عن الفقراء ". لكنَّ القلق ألحَّ عليها، وليلةً بعد ليلة كانت تُبعَد عن الغرفة، تطرح أسئلة وتجيبُ عن أخرى، تقوم بأفعالٍ بأساليب خرقاء، تدفع غرامات، ترسم لوحات، تكتب شعراً، ترتدي ملابسها بل وتتم ملاحقتها في أرجاء المنزل، وتعتزل داخل الخزانات، بإرادة أقربائها. وفي ذلك العام كان يوم عيد الميلاد هو يوم جمعة، لذا استغرقَ الاحتفال طويلاً، من يوم الخميس وحتى يوم الاثنين.

كانت قد حرَّمَتْ على بيفر أنْ يبعث إليها هدايا أو أنْ يكتب لها، من باب حماية النفس، ذلك أنها كانت تعلم أنه مهما قال فإنَّ قوله سيؤلمها بفقرِه، ولكن على الرغم من ذلك كانت تنتظر البريد بعصبية، على أمل أنْ يكون قد عصى أمرها. وكانت قد أرسلتْ إليه في أيرلندا خاتماً يتألف من ثلاثة أطواق متشابكة من الذهب والبلاتين. وبعد أنْ أمرت بصنعه بساعة ندمَت على اختيارها. وفي يوم الثلاثاء وصلتها منه رسالة شكر. كتب يقول " عزيزتي بريندا، شكراً لكِ جزيل الشكر على هدية عيد الميلاد الرائعة. يمكنكِ أنْ تتخيلي بهجتي لدى رؤيتي للعلبة الجلدية الوردية اللون ودهشتي لدى فتحها. لقد كان ظرفاً ضافياً منكِ أنْ ترسلي إليّ مثل تلك الهدية. شكراً لك من جديد جزيل الشكر عليها. آمل أنْ تكون حفلتك قد نجحت. إنَّ الجو خامل هنا. الآخرون خرجوا إلى الصيد بالأمس. أما أنا فذهبتُ إلى الاجتماع. لم يقضوا يوماً

ممتعاً. أمي أيضاً موجودة هنا وتُرسل إليك حبها. سوف نغادر غداً أو بعد غد. لقد أُصيبتْ أمي بالبرد "

انتهت الرسالة هناك عند أسفل الصفحة. كان بيفر يكتبها قبل العشاء ولاحقاً وضعها داخل مغلّف دون أن يتذكّر أنْ يُنهيها.

كتبها بخط بنت مدارس، كبير، مع ترك مسافة واسعة بين السطور.

شعرت بريندا بشيءٍ من الاشمئزاز بعد أنْ انتهت من قراءة رسالته لكنها أظهرت ذلك لمارجوري، بقولها " لا أستطيع أنْ أتذمّر، إنه لم يتظاهر أبداً بأنه مُعجَب بي كثيراً. وعلى أي حال كانت هدية سخيفة لعينة "

كان توني قد أصبح ينزعج من زيارته لأنجيلا. ولطالما كره الخروج.

" لا تأتِ، يا عزيزتي. سوف أتدبَّر الأمر معهم على أحسن ما يُرام "

" كلا، أنَا قادمة. أنا لم أركَ كثيراً خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة "

أمضيا يوم الأربعاء كله معاً وحدهما. بريندا بذلَتْ أقصى جهدها وخمد اضطراب توني. كانت رقيقة بصورة استثنائية معه في تلك الفترة ونادراً ما ضايقته.

في يوم الخميس اتجها شمالاً إلى يوركشير. كان بيفر موجوداً هناك. اكتشفَ توني وجوده خلال النصف ساعة الأولى وحمل النبأ إلى بريندا في الطابق العلوي.

قال " سوف أخبرك شيئاً غريباً جداً. مَنْ تعتقدين موجود هنا ؟ "

" مَنْ؟ "

" صديقنا القديم بيفر "

" ولماذا تعتبر هذا شديد الغرابة؟ "

" أوه، لا أدري. كنتُ قد نسيتُ أمره تماماً، ألم تنسيه أنتِ؟ أتعتقدين أنه أرسل برقية كما فعل معنا ؟ "

" أعتقد "

افترضَ توني أنه لابد أنَّ بيفر يشعر بالوحدة وبذل جهداً كي يكون مقبولاً في نظره. قال " لقد طرأ الكثير من التغييرات منذ أنْ قابلناك آخر مرة. لقد استأجرتْ بريندا شقة لها في لندن "

" نعم، أعلم "

" كيف؟ "

" في الواقع، أمي هي التي أجَّرتها لها "

دُهِشَ توني أيَّما دهشة واتّهمَ بريندا بذلك. " أنتِ لم تخبريني قطُّ عمَّن كان وراء شقّتك. لو عرفتُ لما كنتُ لطيفاً معك "

" كلا، يا عزيزي، لهذا لم أقُلْ لك "

تساءلَ نصف حضور الحفلة عن سبب تواجد بيفر هناك، والنصف الآخر كانوا يعرفون. ونتيجة لذلك أصبح هو وبريندا لا يتقابلان إلا نادراً، أقل مما لو أنهما كانا من المعارف الطارئين، إلى درجة أنَّ أنجيلا أبدت ملاحظة لزوجها، " أعتقد أنه كان من الخطأ دعوته. من الصعب جداً معرفة ما قد يحدث "

لم تُثِر بريندا قطُّ موضوع الرسالة غير المُكتملة، لكنها لاحظتْ أنَّ بيفر يضع خاتمها، وكان قد اكتسب تواً عادة تدويره وهو يتكلَّم.

عشيّة رأس السنة الجديدة أقيمت حفلة في منزلٍ مجاور. عاد توني إلى المنزل باكراً وعاد بيفر مع بريندا معاً في خلفيةٍ إحدى السيارات. وفي صباح اليوم التالي، بينما كانا يتناولان طعام الفطور، قالت لتوني " لقد اتّخذت قراراً بمناسبة رأس السنة الجديدة "

" أي شيء بخصوص تمضية مزيد من الوقت في المنزل؟ "

" أوه كلا، على العكس تماماً. اسمع، يا توني، الأمر جادّ. أعتقد أني يجب أنْ آخذ دورة في شيءٍ ما "

" لا تقولي لي إنه تقويم العِظام من جديد؟ حسبتُ أنكِ انتهيت من هذا "

" كلا، بل شيء له صِلة بالاقتصاد. في الواقع، كنتُ أفكر. إنني في الحقيقة لا أفعل أي شيء في الوقت الحاضر. إنَّ المنزل يُديرُ نفسه بنفسه. ويبدو لي أنه قد حان الوقت لكي أنهمك في أمرٍ ما. إنكَ دائماً تتكلَّم عن الانضمام إلى البرلمان. حسن، لو أني أخذتُ دورة في الاقتصاد لكنتُ ذات فائدة في مجال جمع أصوات الناخبين وكتابة الخطابات وما شابه - كما فعلتْ مارجوري عندما كان ألان يقف على كلايدزديل. هناك مُحاضرات متنوعة تُلقى في لندن، فيما يخص الجامعة، التي تلتحق بها الفتيات. ألا تعتقد أنها فكرة جيدة؟ "

اعترفَ توني " إنها أفضل من تقويم العِظام "

هكذا بدأ العام الجديد.

الفصل الثالث

أمرٌ صعب على توني

- ١ -

ليس من المستغرَب في نادي برات أنْ تجد، بين الساعة التاسعة والعاشرة مساءً، رجالاً يضعون ربطات عنق بيضاء ويرتدون سترات بذيل جالسين وحدهم يأكلون، بروح مُكتئبة جليّة، وجبات عشاء ضخمة ومُترفة. إنهم أولئك الذين تخلّت عنهم نساؤهم في الدقيقة الأخيرة. يجلسون على مدى عشرين دقيقة أو نحوها في بهو أحد المطاعم، يُحدّقون بتوقُّع باتجاه الأبواب الدوّارة ويُخرِجون ساعات أيديهم اختيارياً ويطلبون مشروب الكوكتيل، إلى أنْ تُجلَب إليهم بعد وقت طويل رسائل هاتفية تقول إنَّ ضيوفهم لا يستطيعون أنْ يحضروا. ثم يتوجهون إلى نادي برات، مع شبه أمل في أنْ يجدوا أصدقاء هناك لكنهم، في الغالب، يشعرون برضا كئيب إذ يجدون النادي مُقفِراً أو يشغله الغرباء. فيجلسون هناك، حول الجدران، ينظرون بكآبة إلى طاولات الماهوغاني أمامهم، ويأكلون ويشربون بشراهة.

في هذا الجو النفسي ولهذا السبب وصل جون غرانت-منزيس، ذات مساء قُرابة منتصف شهر شباط، إلى النادي.

" أما مِنْ أحد هنا ؟ "

" الجو شديد الهدوء هذه الليلة، يا سيدي. السيد لاست في قاعة الطعام "

وجده جوك جالساً في إحدى الزوايا ، في ملابس النهار، كانت الطاولة والكرسي إلى جانبه مغطّاتين بأوراق ومجلات، وكانت إحدى المجلات مفتوحة. كان قد تناول نصف عشائه وشرب ثلاثة أرباع زجاجة البرغندي. قال " مرحبا ، أطُرِدت؟ هيا انضمّ إليّ "

لم يكن جوك قد قابل توني منذ بعض الوقت، وقد جعله اللقاء يشعر بالارتباك قليلاً، ذلك أنه ككل أصدقائه، كان يتساءل عن شعور توني وكم يعرف عن علاقة بريندا بجون بيفر. لكنه جلس على طاولة توني.

عاد توني يسأل " أطُرِدت؟ "

" نعم، هذه آخر مرة أطلب فيها من تلك العاهرة أنْ تخرج معي "

" يُستحسن أنْ تشرب. لقد شربتُ حتى الآن قدراً كبيراً. هذا أفضل بكثير "

شربا ما تبقّى من البرغندي ثم أمرا بزجاجة أخرى.

قال توني " أتيتُ لأبيتُ هنا. سأمكث هنا "

" أصبحَ لديك شقة الآن، أليس كذلك؟ "

" في الواقع، بريندا لديها واحدة. ليس فيها مُتّسع لاثنين... حاولنا مرة لكنّ المحاولة لم تنجح "

" ماذا تفعل هذه الليلة؟ "

" خرجت إلى مكانٍ ما. لم أخبرها بأني قادم... وهذه حماقة، ولكن في الواقع لقد سئمتُ بقائي وحيداً في هيتون وأحببتُ أنْ أرى بريندا ،

فأتيت فجأةً دون سابق إنذار، هكذا. تصرف شديد الحماقة. كان يمكن أنْ أعلم أنها قد خرجت إلى مكانٍ ما... إنها صاحبة مبادئ عالية بخصوص الطرد... هذا هو الأمر. سوف تتصل بي هاتفياً هنا لاحقاً، إذا استطاعت أنْ تفر "

وأكثرا من الشرب.

قام توني بأغلب الكلام، قال " إنَّ فكرة اهتمامها بالاقتصاد خارقة. لم يخطر في بالي قط أنها ستستمر فيها، لكنها تبدو جادة تماماً فيما تفعل... أعتقد أنها خطة جيدة. في الحقيقة لم يكن لديها ما تفعله طوال الوقت في هيتون. وطبعاً كانت تفضّل الموت على الاعتراف بذلك، ولكن أعتقد أنها كانت تشعر بشيء من الضجر أحياناً. لقد قلّبتُ التفكير في الأمر وهذه هي النتيجة التي توصلت إليها. لابد أنَّ بريندا كانت ضجرة... أعتقد أنها تسأم الاقتصاد أحياناً... على أي حال، هي تبدو مرحة الآن. مؤخراً أصبحنا نُقيم حفلاً في نهاية كل أسبوع... أتمنى أنْ تزورنا أحياناً، يا جوك. يبدو أني لا أنسجم من أصدقاء بريندا الجُدد"

" أشخاص من مدرسة الاقتصاد ؟ "

" كلا، لكني لا أعرفهم. أعتقد أني أُثير ضجرهم. وحين أفكر في الأمر، أجد أنَّ هذه هي النتيجة التي وصلتُ إليها. لقد أثرتُ ضجرهم. إنهم يتحدثون عني على أني " الصديق الحميم ". جون سمعهم يقولون هذا "

" حسن، هذا يدل على الود "

" نعم، على الود "

أجهزا على زجاجة البرغندي وشربا بعض البورت. وسرعان ما قال توني " ما رأيك أنْ تزورنا في نهاية الأسبوع التالي؟ "

" أعتقد أني أحب هذا "

" أتمنى أنْ تفعل. أنا لا أقابل الكثير من الأصدقاء القُدامى... لاشك في أنه سيكون هناك الكثير من الناس في المنزل، ولكن لا أعتقد أنك تمانع في هذا، أليس كذلك؟... أنت رجل اجتماعي، يا جوك... ولا يزعجك وجود الناس. أما أنا فيزعجونني كالجحيم ". وشربا بعض البورت. قال توني، " ليس هناك ما يكفي من غرف الاستحمام، كما تعلم... ولكن طبعاً أنتَ تعلم. لقد زرتنا هناك كثيراً. أنت لست كالأصدقاء الجُدد الذين يرون أني ممل، أليس كذلك؟ "

" كلا، يا صاحبي "

" حتى وأنا ثمل، كما أنا الآن؟... سوف تكون هناك غرف استحمام. لقد خطَّطت لذلك. سأضيف أربعة أخرى جديدة. هناك رجل وضع المخططات... ولكن بعد ذلك رغبت بريندا في استئجار شقة لذا اضطررتُ إلى إرجاء الأمر من باب الاقتصاد... أعتقد أنَّ هذا أمر غريب. علينا أنْ نقتصد بسبب اهتمام بريندا بالاقتصاد "

" نعم، هذا غريب. فلنشرب بعض البورت "

قال توني " تبدو مُكتئباً جداً هذه الليلة "

" أنا هكذا فعلاً. إنني قلق بشأن " خطة لحم الخنزير ". إنَّ الناخبين لا يكفّون عن السؤال عنها "

" وأنا شعرت بالاكتئاب، اكتئاب لعين، لكني تحسّنت الآن. أفضل شيء هو أنْ تسكر. وهذا ما فعلته ولم اعُد أشعر بأي اكتئاب... شيء مُحبِط أنْ آتي إلى لندن وأرى أنك غير مرغوب. شيء غريب، أنت تشعر بالاكتئاب لأنَّ فتاتك طردتكَ، وأنا أشعر بالاكتئاب لأنَّ فتاتي ترفض أنْ تطردني "

" نعم، هذا غريب "

" لكنكَ تعلم أني مُكتئب منذ أسابيع مضت... اكتئاب لعين... ما رأيك ببعض البراندي؟ "

" نعم، ولِمَ لا ؟ فقبل كل شيء، هناك أشياء كثيرة في الحياة غير النساء والخنازير "

كان هناك بعض البراندي وبعد قليل بدأ جوك يبتهج.

وسرعان ما اقترب خادم من طاولتهما ليقول " رسالة من الليدي بريندا، يا سيدي "

" عظيم سأذهب وأكلّمها "

" ليس سيادتها مَنْ يتكلّم. امرأة أخرى تُبلّغ الرسالة "

" سآتي وأتكلّم معها "

ذهب إلى جهاز الهاتف في البهو في الخارج. قال " عزيزتي "

" هل هذا السيد لاست؟ لدي رسالة هنا، من الليدي بريندا "

" حسن، صِليني بها "

" لا تستطيع أنْ تكلّمك بنفسها، لكنها طلبتْ مني أنْ أبلّغكَ هذه الرسالة، وهي أنها شديدة الأسف لكنها لن تنضمَّ إليك هذه الليلة. إنها شديدة التعب وِذهبت إلى المنزل لتنام "

" قولي لها إني أريد أنْ أكلّمها "

" أخشى أني لا أستطيع، لأنها أوت إلى السرير. إنها شديدة الإرهاق "

" إذن هي شديدة الإرهاق، وأوتْ إلى السرير؟ "

" هذا صحيح "

" حسن، أريد أنْ أكلّمها "

قال الصوت " أسعدت مساءً "

قال بيفر مُنهياً المُكالمة " العجوز ثمل "

" أوه يا إلهي. أشعر بانزعاج لأجله. ولكن ماذا يمكن له أنْ يتوقّع، بمجيئه فجأةً هكذا ؟ يجب أنْ يتعلّم ألاّ يقوم بزيارات مُفاجِئة "

" أهو هكذا دائماً؟ "

" كلا، هذا أمر جديد تماماً "

رنَّ جرس الهاتف. " أتعتقد أنه هو من جديد؟ يُستحسن أنْ أردَّ عليه "

" أريد أنْ أتكلّم مع الليدي بريندا لاست "

" توني، عزيزي، هذه أنا، بريندا "

" هناك حمقاء لعينة قالت إنه ليس في استطاعتي أنْ أتكلّم معك "

" لقد تركتُ لك رسالة من حيث كنتُ أتناول العشاء. هل تقضي أمسية ممتعة؟ "

" بل جحيمية. أنا مع جوك. إنه قلِق على مشروع لحم الخنزير. هل نأتي ونراك؟ "

" كلا، ليس الآن، يا عزيزي، أنا شديدة التعب وسأنام فوراً "

" سنأتي وسنراك "

" توني، هل أنت ثمل قليلاً؟ "

" بل عفن. أنا وجوك قادمان لنراك "

" توني، لن تأتي. أتسمع؟ لن أسمح لك بافتعال شِجار. الشقق في كل الأحوال تحوم حولها الشبهات "

" سيصبح اسمها وحلاً حين نأتي جوك وأنا "

" توني، اسمع، أرجوك لا تأت، ليس هذه الليلة. كن ولداً طيباً وابقَ في النادي. هلاّ فعلتَ أرجوك؟ "

" لن أغيب " وأنهى المكالمة.

قالت بريندا " أوه يا إلهي، هذا ليس من طبع توني أبداً. اتّصل بالنادي واطلب جوك. سيكون أكثر عقلانية "

* * *

" تلك كانت بريندا "

" هذا ما ظننته "

" إنها في الشقة. قلتُ لها إننا سنعرّج عليها "

" ممتاز. أنا لم أرها منذ أسابيع. إنني شديد الولع ببريندا "

" وأنا كذلك. فتاة عظيمة "

" فتاة عظيمة "

" ثمة سيدة على الهاتف تريدك، يا سيد غرانت-منزيس "

" مَنْ؟ "

" لم تُعط اسمها "

" حسن. أنا آتٍ "

قالت له بريندا ، " جوك، ما الذي كنتَ تفعله لزوجي؟ "

" إنه ثمل قليلاً، هذا كل ما في الأمر "

" إنه يهذي. اسمع هنا ، إنه يُهدِّد بالمجيء. إنني ببساطة لا أستطيع أنْ أواجهه هذه الليلة وهو في هذه الحال، أنا شديدة الإرهاق. هل تفهم؟ "

" نعم، أفهم "

" وهو يجب أنْ يفهم، أرجوك، هلاّ أبعدته؟ هل أنتَ ثمل أيضاً؟ "

" قليلاً "

" أوه يا إلهي، هل أستطيع أنْ أثق بك؟ "

" سأحاول "

" حسن، لا يبدو الوضع جيداً جداً. الوداع... جون، يجب أنْ تذهب. قد يظهر قُطّاع الطرق في أي لحظة. هل معك أجرة السيارة؟ ستجد بعض الفكّة في حقيبتي "

* * *

" أكانت تلك فتاتك؟ "

" نعم "

" أتصالحتما؟ "

" ليس بالضبط "

" الأفضل أنْ تتصالحا. هل نشرب المزيد من البراندي أم نذهب إلى بريندا مباشرةً؟ "

" دعنا نتناول المزيد من البراندي "

" جوك، هل ما تزال تشعر بالإحباط؟ ليس جيداً الشعور بالإحباط. أنا لم أعد أشعر بالإحباط. كنتُ هكذا، ولكن لم أعد كذلك "

" كلا، لا أشعر بالإحباط "

" إذن سنشرب بعض البراندي ومن ثم نتوجه إلى شقة بريندا "

" حسن "

بعد ذلك بنصف ساعة ركبا سيارة جوك. " أقولُ لكَ شيئاً، لو كنتُ مكانك لما قدتُ السيارة "

" لا أقود ؟ "

" كلا، ما كنتُ قدتها. سيقولون إنكَ ثمل "

" مَنْ سيقول؟ "

" كل مَن ستدهسه. سيقولون إنكَ كنتَ ثملاً "

" حسن، وهكذا أنا فعلاً "

" إذن لو كنتُ مكانك لما قمت بالقيادة "

" المسافة طويلة لنمشيها "

" سنستقل سيارة أجرة "

" أوه، اللعنة، أنا أستطيع أنْ أقود "

" أو دعنا من الذهاب إلى بريندا أصلاً "

قال " يُستحسن أنْ نذهب إلى بريندا، إنها في انتظارنا "

" بصراحة، أنا لا أقوى على سير كل تلك المسافة. ثم إنني لا أعتقد أنها حقاً تريد منا أنْ نوافيها "

" سوف تفرح عندما ترانا "

" نعم، لكنَّ الطريق طويلة. دعنا نذهب إلى مكان آخر "

قال جوك " أنا أريد أنْ أرى بريندا، إنني شديد الولع ببريندا "

" إنها فتاة عظيمة "

" إنها فتاة عظيمة "

" حسن، فلنستقل سيارة أجرة إلى شقة بريندا "

ولكن في منتصف الطريق قال جوك " دعنا من الذهاب إلى هناك. فلنذهب إلى مكانٍ آخر. فلنذهب إلى مربّع رخيص "

" سيان عندي. أخبره أنْ يتوجه إلى أي مربعٍ رخيص "

قال جوك، ماداً يده من النافذة، " اذهب إلى أحد المرابع الرخيصة "
دارت السيارة عائدة واتّجهت نحو شارع ريجنت.

" نستطيع دائماً أنْ نتصل ببريندا من المربع الرخيص "

" نعم، أعتقد أنَّ علينا أنْ نفعل ذلك. إنها فتاة عظيمة "

" فتاة عظيمة "

انعطفَتْ السيارة إلى ساحة غولدن ومن ثم نحو شارع سينك، وهو مكان حقير وقذر يسكنه في الغالب آسيويون.

" أتعلم، أعتقد أنه يأخذنا إلى أولد هندريدث "

" لا يمكن أنْ يكون مفتوحاً؟ حسبتُ أنهم أغلقوه منذ سنوات مضت"

لكنَّ الباب كان مُضاءً متوهجاً وخرج شخص رث الهيئة يعتمر قلنسوة مُستدقة ويرتدي معطفاً مزركشاً بشريط ليفتح باب سيارة الأجرة لهما.

لم يكن أولد هندريدث يُغلِق أبوابه قطُّ. على مدى جيل، وفي حين ظهرت نوادٍ ليلية أخرى إلى الوجود، وأسماء مختلفة ومديرون، وادّعاءات الاحترام، مدة وجيزة متقلقلة، وعانت على أيدي إما رجال الشرطة أو الدائنين، حافظ أولد هندريدث على واجهته الصلبة في وجه كل المِحن. لم يكن منيعاً ضد المضايقة، لم يكن قطُّ. فكم من مرة سدّد له القُضاة الضربات، ألغوا رخصته، أدانوا ما يجري بين جدرانه، وكان العاملون فيه ومالكه دائماً إما داخلين أو خارجين من السجن، وثارت الأسئلة في البرلمان وفي لجان التحقيق، ومهما برز إلى الشهرة من وزراء داخلية ومفوضي شرطة واستقالوا بسبب سوء السمعة، بقيَت أبواب أولد

هندريدث دائماً مفتوحة من التاسعة مساءً وحتى الرابعة ليلاً، وفي الداخل كان يجري سيل من الاستعدادات المُريبة، الكحوليّة. دعَتْ شابة لطيفة توني وجوك إلى داخل المبنى المتداعي.

" هل لكما أنْ توقّعا هنا؟ ". وقَّعَ توني وجوك باسْمَين زائفين في أسفل استمارة تقول، لقد دُعيتُ إلى حفل زجاجة[11] في ١٠٠ شارع سينك أقامها الكابتن وايبريدج.

إنَّ إدارة هذا النادي لا تُكلّف كثيراً، لأنه لا أحد من العاملين، ما عدا الفرقة الموسيقية، يتلقّى أي أجر، إنهم يجمعون قدرَ ما يستطيعون من تفتيش جيوب المعاطف وإعطاء الفكّة الخطأ للسكارى. وكان الدخول مجانياً للصبايا اليافعات ولكن عليهن أنْ يحرصن على أنْ ينفق الأوصياء عليهن المال.

" في آخر مرة زرت هذا المكان، يا توني، كان بمناسبة حفل العزّاب الذي أقمته قبل زواجك "

" وسكرنا في تلك الليلة "

" حتى العفن "

" سأخبركَ مَنْ كان ثملاً أيضاً في تلك الليلة - ريغي. كسرَ آلة بيع علكة الفاكهة "

" ريغي كان طينة "

" بالمناسبة، ألا تزال مُحبَطاً تجاه تلك الفتاة؟ "

" لم أعُد أشعر بالإحباط "

" هيا، سنهبط إلى الطابق السفلي "

---

١١ - حفل الزجاجة : حفل يُقام في مكان عام يقدّم المُسكِرات بعد ساعات الإقفال .

كانت صالة الرقص مملوءة حتى آخرها. وكان رجلٌ عجوز قد انضمَّ إلى الفرقة الموسيقية ويُحاول أنْ يقودها. قال جوك " أحبُ هذا المربع. ماذا سنشرب؟ "

" براندي "

كان عليهما أنْ يشتريا الزجاجة. قاما بملء استمارة طلب لشركة خمور مونمورينسي ودفعا جنيهين. وحين لبّيَ الطلب كانت عليه رقعة تقول شمبانيا ممتازة مُعتّقة. استوردتها شركة خمور مونتمورينسي. جلبَ النادل جعة الزنجبيل وأربع كؤوس. اقتربت اثنتان من الصبايا وجلستا معهما. كان اسمهما ميلي وبابس. قالت ميلي " حل ستستقرّان في المدينة مدة طويلة؟ هل معكما شيء يُدعى سيجارة؟ "

رقصَ توني مع بابس. قالت " أتحب الرقص؟ "

" كلا، وأنتِ؟ "

" يعني "

" حسن، فلنجلس "

قال النادل " هل تودّ أنْ تشتري بطاقة يانصيب وتنال صندوقاً من الشوكولاة؟ "

" كلا "

قالت بابس " اشترِ واحدة لي "

بدأ جوك يصف مواصفات الخنزير النموذجي... قالت ميل " أنتَ متزوج، أليس كذلكَ؟ "

قال جوك " كلا "

قالت ميلي " أوه، أنا دائماً أخمّن بشكلٍ صحيح. وصديقك كذلك أيضاً "

" نعم، هو متزوج "

" سوف تُدهش عندما تعلم كم من سيدٍ مُحترَم يأتي إلى هنا فقط لكي يتكلَّم عن زوجته "

" هو لم يفعل "

كان توني يميل عبر الطاولة ويقول لبابس، " في الواقع، المشكلة هي أنَّ زوجتي مجتهدة. إنها تأخذ دورة في الاقتصاد "

قالت بابس " أعتقد أنَّ من الجميل بالنسبة إلى الفتاة أنْ تُبدي اهتماماً بالأشياء "

قال النادل " ماذا ستتناولان على العشاء؟ "

" في الواقع، لقد تناولنا العشاء تواً "

" ما رأيكما بسمك حدّوق لذيذ؟ "

" إنَّ ما سأفعله هو أنني سأُجري اتّصالاً هاتفياً. أين هو؟ "

" أتقصد الهاتف أم السيد؟ " قالت ميلي.

" كلا، الهاتف "

" في الطابق العلوي في المكتب "

اتصل توني ببريندا. مرَّ بعض الوقت قبل أنْ تُجيب، ثم، " نعم، مَنْ؟ "

" لديّ رسالة هنا من السيد أنتوني لاست والسيد جوسلن غرانت-منزيس "

" أوه، هذا أنت، توني. حسن، ماذا تريد؟ "

" أتعرَّفتِ على صوتي؟ "

" نعم "

" حسن، أردتُ فقط أنْ أسلّم رسالة ولكن بما أني أكلّمكِ أستطيع أنْ أسلّمها بنفسي، أليس كذلك؟ "

" نعم "

" في الواقع، جوك وأنا نبدي أسفنا الشديد لأننا لا نستطيع أنْ نعرّج عليكِ هذا المساء"

" أوه "

" آمل ألاّ تجدي في هذا تصرّفاً شديد الفظاظة، ولكن لدينا الكثير من الأعمال يجب إنجازها "

" لا بأس، توني "

" هل أيقظتكِ من النوم؟ "

" لا بأس، توني "

" إذن، تصبحين على خير "

عاد توني إلى الطاولة . " كنتُ أتحدث مع بريندا. بدتْ منزعجة. أتظن أنه كان علينا أن نوافيها ؟ "

قال جوك " لقد وعدنا أنْ نفعل "

قالت ميلي " ينبغي ألاّ تخذل سيدة "

" أوه، لقد فات الأوان الآن "

قالت بابس " أنتما من الضباط، أليس كذلك؟ "

" كلا، لماذا ؟ "

" حسبتُ أنكما كذلك "

قالت ميلي " من ناحيتي، أنا أفضّل رجال الأعمال. إنَّ لديهم ما يتكلمون عنه "

" ماذا تفعل أنت؟ "

قال جوك " أنا أُصمّم قبعات سُعاة البريد "

" أوه، تابع "

" وصديقي هنا يُدرّب أسود البحر "

" أخبرنا حكاية أخرى "

قالت بابس " لدي صديق يعمل في الصحافة "

بعد ذلك قال جوك " ما رأيك، ألا ينبغي أنْ نفعل شيئاً بشأن بريندا؟ "

" لقد أخبرتُها بأننا لن نمرّ عليها، ألم أفعل؟ "

" نعم... ولكن لعلّها لا تزال تأمل في حضورنا "

" سأقول لك ماذا نفعل، اذهبْ أنت واتصل بها هاتفياً واعرفْ إذا كانت فعلاً ترغب في حضورنا "

" حسن ". ذهبَ وعاد بعد عشر دقائق. " يجب أنْ تستيقظ باكراً لحضور دروس الاقتصاد. وحين أُعيد التفكير في الأمر الآن أرى أنَّ شخصاً ما قد قال فعلاً أنها مُتعبة، في وقتٍ مبكّر من الأمسية "

" ما هذه القطعة المخيفة من السمك؟ "

" قال النادل إنكَ أنتَ طلبتَها "

" لعلّي فعلتُ "

قالت بابس " سأعطيها لقطة النادي. إنها لطيفة اسمها بلاكبيري "

ورقصوا مرةً أو مرّتين. ثم قال جوك " أتعتقد أنَّ علينا أنْ نتصل ببريندا مرة أخرى؟ "

" ربما علينا أنْ نفعل. لقد بدت لنا منزعجة "

" فلنذهب الآن ونتصل بها ونحن في طريقنا إلى الخروج "

قالت بابس " ألن ترافقاننا إلى المنزل؟ "

" أخشى أننا لن نفعل هذه الليلة "

قالت ميلي " كونا مُهذَّبَين "

" كلا، لا نستطيع حقاً "

قالت بابس " لا بأس. حسن، ما رأيكما بهدية صغيرة؟ نحن رفيقتا رقص مُحترفتان، كما تعلمان "

" أوه، نعم، آسف، كم تريدان؟ "

" أوه، نترك أمر هذا للسيدَين "

أعطاهما توني جنيهاً. قالت بابس " يمكنكَ أنْ تزيده قليلاً. لقد جلسنا معكما مدة ساعتين "

أعطاهما جوك جنيهاً آخر. قالت ميلي " تعالا وقابلانا من جديد ذات مساء حين يتوافر لكما مزيد من الوقت "

في طريقهما إلى الطابق العلوي قال توني " أشعر بأني مريض. لا أعتقد أني سأزعج نفسي بالاتصال ببريندا "

" ابعث رسالة "

" هذه فكرة جيدة... انظر هنا "، قال هذا مُخاطباً الحاجب الرث، "هل لكَ أنْ تتصل بهذا الرقم في سلون وتتكلَّم مع صاحبة المنزل وتقول إنَّ السيد غرانت-منزيس والسيد لاست يُبديان عميق أسفهما لأنهما لا يستطيعان أنْ يتصلا بها هذا المساء؟ هل فهمت؟ "، ونفحَ الرجلَ نصف كراون وخرجا بخطى متئدة إلى شارع سينك. قال " لا يمكن لبريندا أنْ تتوقع منا أن نفعل أكثر من ذلك "

" سأقول لكَ ماذا سنفعل. سأمرّ من أمام باب بيتها، وأدق الجرس قليلاً في حال كانت يقظة وتنتظرنا "

" نعم، افعلْ هذا. يا لك من صديق مخلص، يا جوك "

" أوه، أنا مولع ببريندا... فتاة عظيمة "

" فتاة عظيمة... ليتني لا أشعر بأني مريض "

كان توني مستيقظاً في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، وفي ذهنه صورة واضحة بشكل بائس لمقاطع من ذكرياته عن الليلة الفائتة. وكلما تذكّر أكثر، بدا له سلوكه وضيعاً أكثر. عند الساعة التاسعة أخذ حمّامه وشرب بعض الشاي. وعند الساعة العاشرة كان يتساءل إنْ كان يتصل ببريندا وإذا بالمشكلة تُحلّ باتّصالها هي به.

" كيف حالك، توني؟ "

" بائس. كنتُ ثملاً "

" كنتَ كذلك فعلاً "

" وأشعر بالذنب أيضاً "

" لستُ مندهشة "

" إنني لا أتذكّر كل شيء بوضوح شديد، ولكن لديّ انطباعاً بأنّ جوك وأنا كنا نشعر بضجر فظيع "

" كنتما كذلك "

" هل أنتِ غاضبة؟ "

" حسن، كنتُ كذلك ليلة أمس. ما الذي دفعك إلى فعل هذا، يا توني، وأنتما الاثنان بالغان "

" شعرنا بالاكتئاب "

" أعتقد أنكَ كنتَ أشد اكتئاباً مما أنت عليه هذا الصباح... لقد وصلني تواً صندوق من الورود البيضاء من جوك "

" كنتُ أتمنى لو أني أنا فكّرتُ في هذا "

" يا لكما من طفلَين، أنتما الاثنان "

" أحقاً لست غاضبة؟ "

" طبعاً لستُ كذلك، يا عزيزي. لديّ محاضرات طوال فترة الصباح وسوف أتناول الغداء في الخارج. لكنني سأعود مساء يوم الجمعة أو في صباح يوم السبت على أي حال "

"فهمت. ألا تستطيعين أنْ تُلغي أمر الغداء أو إحدى المحاضرات؟"

" ليس ممكناً، يا عزيزي "

"فهمت. أنتِ ملاك لأنكِ تصرفتِ بعذوبة فيما يخصّ الليلة الفائتة"

* * *

قالت بريندا " كان ذلك مناسباً جداً. وإذا كنتُ أعرفُ توني جيداً فسوف يُعذّبه الشعور بالذنب على مدى أسابيع تالية. كانت الليلة الفائتة مُثيرة للجنون لكنُّها تستأهل تحمّلها. لقد وضع نفسه الآن في الموقف الخطأ إلى درجةِ أنه لن يجرؤ على الشعور بالاستياء، ناهيك عن قول أي شيء، مهما فعلت. وهو لم يكن يستمتع بوقته قطٌّ، ذلك اللطيف المسكين، لذا هذا أمر جيد أيضاً. كان عليه أنْ يتعلّم ألا يقوم بزيارات مُفاجئة "

قال بيفر " أنتِ لا مثيل لكِ في جعل الناس يتعلّمون الأشياء "

وصل توني بقطار الثالثة وثماني عشرة دقيقة شاعراً بالبرد، والتعب، وبالذنب الثقيل، وكان جون أندرو قد جاء بالسيارة ليستقبله.

" مرحبا، بابا، هل أمضيتَ وقتاً ممتعاً في لندن؟ لا أظنكَ تعارض في مجيئي إلى المحطة، أليس كذلك؟ لقد دفعتُ ناني إلى السماح لي "

" أنا مسرور جداً لرؤيتك، يا جون "

" كيف حال الماما؟ "

" بدت في أحسن حال. أنا لم أرها "

" لكنكَ قلتَ إنك ذاهب لتراها "

" نعم، هذا ما ظننت، ولكن اتَّضحَ أني مُخطئ. لقد تكلَّمتُ معها مرات عدّة عبر الهاتف "

" لكنكَ تستطيع أنْ تتصل بها بالهاتف من هنا، أليس كذلك، يا بابا؟ فلماذا قطعتَ كل تلك المسافة حتى لندن لكي تتصل بها هاتفياً؟... لماذا، بابا؟ "

" الأمر يحتاج إلى الكثير من الشرح "

" حسن قل لي بعضاً منه... لماذا، بابا؟ "

" اسمع، أنا مُتعب. إذا لم تكفّ عن طرح الأسئلة فلن أدعك تجيء وتقابلني في المحطة مرة أخرى "

بدأ وجه جون أندرو يتغضّن. " ظننتُ أنكَ تحب أنْ آتي وأستقبلك "

" إذا بكيت سأضعكَ في المقعد الأمامي مع دوسن. من السخف البكاء في مثل سنك "

قال جون أندرو بين الدموع " قريباً سأنتقل إلى الجلوس مع دوسن "

رفعَ توني السماعة ليأمر السائق الخاص بالتوقّف، لكنه لم يستطع أنْ يجعله يسمع. لذا أعاد السمّاعة إلى مكانها وتابعا الانطلاق في صمت، وأندرو متكئ على النافذة ويجهش قليلاً. وحين وصلا إلى المنزل

قال " ناني، لا أريد لجون أنْ يذهب إلى المحطة في المستقبل إلا بإذن خاص من السيدة أو مني "

" كلا، يا سيدي، ما كنتُ لأسمح له بالذهاب اليوم، غير أنه ذهب رغم ذلك. هيا بنا يا جون، واخلع معطفك. يا إلهي، أيها الطفل، أين منديلك؟ "

ذهب جون وجلس وحيداً أمام نار موقد المكتبة. قال لنفسه " رجلان في الثلاثين من أكاديمية ساندهيرست[١٢] خرجا لتمضية سهرة - يسكران ويتصلان بالناس هاتفياً ويراقصان مومسات في أولد هندريدث... ومما يزيد الطين بِلّة أنَّ بريندا كانت شديدة اللطف حول ما حدث ". أغفى قليلاً، ثم صعد إلى فوق ليبدِّلَ ملابسه. وعلى مائدة العشاء قال " أمبروز، حين أكون وحدي أعتقد أني في المستقبل سأتناول طعام العشاء في غرفة المكتب ". بعد ذلك جلس مع كتاب أمام موقد النار لكنه لم يستطع أنْ يقرأ. وعند الساعة العاشرة رمى زِناد الحطب في الموقد قبل أنْ يصعد إلى أعلى. أحكمَ إغلاق نوافذ غرفة المكتب وأطفأ الأنوار. وفي تلك الليلة لجأ إلى غرفة بريندا الخالية لينام فيها.

-٢-

حدثَ ذلك في يوم الأربعاء، وفي يوم الخميس شعر توني بتحسُّنٍ من جديد. كان لديه اجتماع في مجلس المقاطعة في فترة الصباح. وبعد الظهيرة ذهب إلى مزرعة المنزل ليناقش أمر نوع جديد من التراكتورات مع وكيله. ومنذ ذلك الحين فصاعداً استطاع أنْ يقولَ لنفسه " غداً في

---

١٢ - ساندهيرست : الأكاديمية العسكرية الملكية في بريطانيا .

مـثل هذا الوقت سـتكون بريندا وجـوك هنا ". تناول الطعـام أمام مـوقـد النار في غـرفة المكتب. كـان قد تخلّى عن الحِـمية قـبل بضـعة أسابيع. ("أمـبـروز، حين أكـون وحـدي لا أحـتـاج حـقـاً إلـى تناول الطعـام. في المستـقبل سأتناول فقط لونين من الأطعـمة "). راجعَ بعض الحِسابات كان وكـيله قـد تركـهـا له ومن ثم أوى إلى السـرير، قـائلاً لـنفـسـه " عندمـا أستيقظ ستكون عطلة نهاية الأسبوع قد حلّتْ "

ولكن في صباح اليوم التـالي وصلته برقـية من جوك، تقول، " في عطلة نهاية الأسبوع مسـتحيل يجب أنْ أذهب إلى الدائرة الانتخابيـة ما رأيك في العطلة بعد التـاليـة ". فردّ عليـه قـائلاً " يسعدني ذلك في أي وقت أنا دائماً هنا ". وقال لنفسه " أعتقد أنه تصالح مع تلك الفتاة ".

ووصلته أيضاً رسالة من بريندا، كُتبتْ بالقلم الرصاص :

" قـادمة في يوم السـبت القـادم مع بولي وصـديقـة لبـولي اسـمـهـا فـيرونيكا في سيـارة بولي. وربما ديزي ميد والأمتعـة في الثـالثة وثمـاني عشرة دقـيقـة. هل لك أنْ تُخبر أمبروز والسـيدة موسوب. يُستـحسَن أنْ نفتح غرفة ليونيس من أجل بولي أنت تعلم كيف هي فيما يخص وسائل الراحة. يمكن لفيـرونيكا أنْ تذهب إلى أي مكان - لـيس غـالاهاد. تقـول بولي إنها مُسلية جداً. والسيدة بيفر أيضاً قادمة، أرجو ألاّ تعترض على ذلك إنها فقط مسـألة تتـعلق بالعمل، إنها تعتقـد أنّ في استطاعتها أنْ تضيف شيئاً للغـرفة الصباحية. بولي ستجلب ساقها الشخصي. بالمناسبة سأترك غريمشو في هيتـون في الأسبوع القـادم أخبِر السيـدة موسوب. إنّ إيواءها في لندن مُضجِرٌ ومُكلف. وفي الواقع، أعتقد أني قد أستغني عنها تماماً، ما رأيك، لكنها ذات فائدة في الخيـاطة. أنا مشتـاقة إلى

رؤية جون ثانية. الجميع عائدون مساء يوم الأحد. لا تسكر، يا عزيزي. حاول "

لم يكن توني يجد ما يشغل به وقته في يوم الجمعة. كان ينتهي من كتابة رسائله كلها بحلول الساعة العاشرة. ثم يتوجه إلى المزرعة ولكن هناك لا أحد يحتاج إليه. والواجبات التي كانت في السابق متعددة، لم تعُد الآن تستهلك إلا جزءاً صغيراً جداً من ذلك النهار، لم يكن يُدرك كم ساعة كان يهدر مع بريندا. وراقب جون يمتطي الجواد في حقل الترويض. كان الفتى يضمر له الضغينة بسبب شجارهما في يوم الأربعاء، وعندما صفَّقَ له بعد إحدى القفزات، قال جون، " إنه في المعتاد يقوم بأفضل من هذا ". لاحقاً قال " متى ستعود الماما؟ "

" ليس قبل الغد "

" أوه "

" يجب أنْ أذهب إلى ليتل بيتون بعد ظهر هذا اليوم. هل تودّ أنْ تأتي أنت أيضاً، وقد نشاهد الكلاب؟ "

كان جون منذ أسابيع يصلّي كي يأتي وقت الحملة. قال " كلا، شكراً، أريد أنْ أنهي لوحة أرسمها "

" يمكنك أنْ تفعل هذا في أي وقت "

" أريد أنْ أكملها بعد ظهر هذا اليوم "

بعد أنْ تركهما توني، قال بن " ما الذي جعلك تخاطبُ والدك بهذا الأسلوب؟ أنت تذهب لتشاهد الكلاب منذ حلول عيد الميلاد "

قال جون " ليس معه "

" أنت ابن حرام عاقّ صغير، وهذا أسلوب سيء تتكلّم فيه عن والدك "

" وأنتَ ينبغي ألاّ تقول ابن حرام أو قذر أمامي، ناني لا تقول هذا "

وهكذا ذهبَ توني إلى ليتل بيتون وحده، حيث كان لديه بعض الأعمال يناقشها مع الكولونيل برينك. وأمل في أنْ يطلبوا منه أنْ يمكث هناك، ولكن الكولونيل وزوجته كانا ذاهبَين إلى البحر، لذلك قفلَ عائداً بسيارته عند الغروب إلى هيتون.

خيَّمتْ طبقة رقيقة من الضباب قريبة من أرض الحديقة العامة، وبرزت فتحات الإطلاق في الدير رمادية ومُسطّحة، وكان رجل قبيح الخلقة يُنزِل العلم عن البرج الرئيسي.

* * *

قالت السيدة بيفر " يا عزيزتي المسكينة برندا، إنها غرفة فظيعة "

قال توني ببرودة شديدة " نحن لا نستعملها كثيراً "

قالت التي اسمها فيرونيكا " هذا واضح "

قالت بولي " لا أرى أنَّ فيها عيوباً كثيرة، ما عدا أنها عتيقة الطراز قليلاً "

شرحتْ برندا، دون أنْ تنظر إلى توني، " في الواقع، ما أراه هو أني يجب أنْ أحصل على غرفة واحدة صالحة للسكن في الطابق السفلي. في الوقت الحاضر هناك فقط غرفة التدخين وغرفة المكتب. وغرفة الجلوس شاسعة وغير صالحة أبداً. لذا فكّرتُ في أنَّ ما أحتاج إليه هو غرفة جلوس صغيرة بصورة أو بأخرى. أتعتقدين أنَّ هذا ممكن؟ "

قالت ديزي " ولكن، يا ملاكي، إنَّ الشكل كله غير ملائم، والمدخنة

ممَّ هي مصنوعة، إنها من الغرانيت الوردي، وكل الزخارف الجصّية والحافة السفلى المزيّنة من الجدران. إنَّ كل شيء مرعب. إنه مُعتِم جداً "

قالت السيدة بيفر باعتدال أكثر " أنا أعرف بالضبط ما الذي تريده بريندا. ولا أعتقد أنَّ الأمر مستحيل. يجب أنْ أفكّر فيه. وكما تقول فيرونيكا، إنَّ البُنية تُقيّد المرء... في الواقع، أعتقد أنَّ الشيء الوحيد الذي يجب عمله هو نفض اليد منه كله والعثور على عِلاج ما شديد الوضوح بحيث يستحوذ على الغرفة، إذا فهمت ما أعني... لنفرض أننا كسَونا الجدران بألواح الكروم البيضاء ومددنا سجادة من جلد الخروف الطبيعي... فهل هذا سيورطك في مبالغ تفوق ما كنتِ تنوين إنفاقه؟ "

قالت فيرونيكا " سوف أنسف كل شيء تماماً "

تركهن توني لنقاشهنّ.

* * *

" أحقاً تريدين من السيدة بيفر أنْ تُعيد ترتيب الغرفة الصباحية؟ "

" إلا إذا كنتَ لا تريده، يا حبيبي "

" ولكن أتتصورين الوضع - ألواح كروم بيضاء؟ "

" أوه، تلك كانت مجرّد فكرة "

أخذ توني يدخل ويخرج متنقلاً بين غرفة مورغان لو فاى وغرفة غوينيفر كما يفعل دائماً أثناء ارتداء الملابس. قال عائداً مع صدريته، "بالمناسبة، هل أنتِ مغادرة غداً أيضاً؟ "

" يجب أنْ أفعل "

عادَ أدراجه إلى مورغان لو فاى ليُحضِر ربطة عنقه ويجلبها إلى غرفة بريندا من جديد، وجلسَ إلى جوارها على طاولة الزينة ليربطها.

قالت بريندا " بالمناسبة، ماذا قلت بشأن الاحتفاظ بغريمشو؟ - أعتقد أنَّ في الأمر تبذير "

" لطالما كنتِ تقولين إنكِ لا تستطيعين الاستغناء عنها "

" نعم، ولكنني الآن أعيش في شقة وكل شيء بسيط "

" تعيشين؟ عزيزتي، إنك تتكلّمين وكأنكِ ستستقرين هناك إلى الأبد "

" هلاّ أزحتَ قليلاً يا حبيبي؟ لا أستطيع أنْ أرى كما يجب "

" بريندا، إلى متى ستستمرين في دورة الاقتصاد تلك؟ "

" أنا؟ لا أعلم "

" ولكن أليست لديك فكرة؟ "

" أوه، إنَّ العدد الهائل من الأشياء التي يمكن تعلّمها مُفاجئ... عندما بدأتُ كنتُ متخلّفة جداً... "

" بريندا... "

"الآن أسرعْ وارتدِ معطفك، سوف يكونون في انتظارنا في الأسفل "

في المساء لعبَتْ بولي والسيدة بيفر الطاولة. وجلستْ بريندا وفيرونيكا معاً على الصوفا تُخيطان وتتحدثان عن شغل الإبرة، وبين حينٍ وآخر تشترك النسوة كلّهن في الحديث، كنَّ ينغمسنَ في رطانةٍ خاصةٍ بهنّ لم يفهمها توني، كانت نوعاً من عاميّة اللصوص، تتغيَّر بها مواضع مقاطع الكلمات. وجلسَ توني خارج الدائرة مباشرةً يقرأ تحت مصباحٍ آخر.

في تلك الليلة عندما صعدا إلى فوق، جاءت الضيفات ليجلسن في غرفة بريندا ويتحدثنَ معها بينما أوت هي إلى السرير. وكان في

استطاعة توني أنْ يسمع ضحكهن الخافت من خلال باب غرفة النوم. كنَّ قد غلين ماءً في إبريق يعملُ بالكهرباء وشربن السيدوبرول Sedobrol معاً.

سرعان ما غادرن، وهن يضحكن، وولجَ توني غرفة بريندا. كان الظلام يشملها ولكن حين سمعته يدخل ورأتْ مربَّع الضوء عند ممر الباب أدارت مفتاح المصباح الصغير بجوار السرير.

قالتْ " توني "

كانت مستلقية على المِنصّة ورأسها غائص عميقاً في الوسادة، وكان وجهها يلمع من المادة الدهنية التي يستخدمها لتنظيفه، وذراع عارية على اللحاف المحشو بالزغب، تركتها هناك بعد أنْ أدارت مفتاح الضوء. قالت " توني، كدتُ أنام "

" أأنت مُتعبة؟ "

" نعم "

" أترغبين في الانفراد بنفسك؟ "

" أنا مُرهَقَة... لقد أكثرتُ من شرب ذلك المشروب الذي أعدّته بولي "

" فهمت... حسن، تصبحين على خير "

" تصبح على خير... لستَ منزعجاً، أليس كذلك.... أنا شديدة الإرهاق "

مشى حتى السرير وقبّلها، بقيَتْ مُستلقية بسكونٍ تام، وعيناها مُغمضتان. ثم أطفأ النور وقفل عائداً إلى غرفة تغيير الملابس.

* * *

" آمل ألا تكون الليدي مريضة؟ "

" كلا، لا شيء خطير، شكراً جزيلاً لك. إنها تتلقّى علاجاً في لندن، في الواقع، خلال الأسبوع، وتحب أنْ تقضي يوم الأحد بهدوء "

" وكيف تسير دراساتها الكبرى؟ "

" على أحسن ما يُرام، في اعتقادي، ولا تزال مُصرّة عليها "

" رائع. سوف نزورها كلنا قريباً لكي تحلّ لنا مشاكلنا الاقتصادية. لكنني أعتقد أنك وجون تشتاقان إليها؟ "

" نعم، نشتاق "

" حسن، انقل إليها أخلص تمنياتي "

" سأفعل حتماً. شكراً جزيلاً لك "

غادرَ توني رواق الكنيسة وشقّ طريقه المعتادة إلى البيوت الزجاجية، زهرة غاردينيا لنفسه، وبعض القرنفل الأسود للسيدات. وعندما وصلَ إلى الغرفة التي كنَّ يجلسن فيها سمعَ عاصفة من الضحك. فتوقف على العتبة، حائراً.

" ادخل، يا عزيزي، لا شيء خاصاً. كنا فقط نراهن على لون زهرة عروة السترة التي تضعها ولم تفُز أي منا "

كنَّ لا زلن يُقهقهن قليلاً وهنَّ يُثبِّتن الأزهار التي جلبها لهن، كلهن ما عدا السيدة بيفر، التي قالت " كلما أردت أنْ تشتري شتلات أو بذور تعال وخذها من عندي. لقد نجحت تماماً في هذه التجارة، لعلك لاتعلم... لدي كافة أنواع الأزهار. إنني أتاجر بكل ما شابه هذا من أجل سيلفيا نيوبورت وأناس من مختلف الطبقات "

" يجب أنْ تتحدثي مع رئيس العمال لديّ بهذا الشأن "

" في الواقع، هذا ما فعلته حقاً - هذا الصباح بينما كنتَ في الكنيسة. لقد بدا مُتفهّماً تماماً "

غادرن باكراً، لكي يصلن إلى لندن في موعد العشاء. وفي السيارة قالت ديزي " يا إلهي، يا له من منزل "

" الآن تستطيعين أنْ تدركي ما الذي كنت أعانيه طوال تلك السنوات "

قالت فيرونيكا، وهي تنزع زهرة القرنفل وترميها من النافذة إلى جانب الطريق، " يا عزيزتي المسكينة بريندا "

سألتها بولي " ما الذي يضمره الفتى العجوز؟ "

" ليس الكثير حتى الآن، لكنني أدرك كم هو ضَجِر بوجوده في هيتون طوال الوقت "

" لو كنتُ مكانك لما قلقت "

" أنا لستُ قلقة. كل ما في الأمر أني أخشى أنْ يُدمن على شرب الخمر أو ما شابه. سوف يجعل ذلك الوضع كله صعباً جداً "

" لا أعتقد أنَّ هذا من شيمه... يجب أنْ يجد فتاة تُثير اهتمامه "

" هذا ما أتمناه... هل هناك واحدة؟ "

" هناك دائماً الصديقة الحميمة سيبيل "

" يا عزيزتي، إنه يعرفها طوال حياته "

" أو سوكي دو فوكو-استرهازي "

" إنه لا يُفضّل الأميركيات "

" حسن، سوف نعثر له على واحدة "

" المشكلة هي أني أصبحتُ عادة لديه - لن يتعوَّد بسهولة على واحدة جديدة... فهل يجب أنْ تكون مثلي، أم مختلفة عني تماماً؟ "

" أنا أقول مختلفة، ولكن من الصعب التكهُّن "
وناقشا المشكلة من جوانبها كلها.

-٣-

كتبت بريندا تقول :

" *عزيزي توني،*

آسفة لأنني لم أكتب لك أو أتصلْ بك هاتفياً لكنني كنتُ منشغلة بنظام المعدنِين[١٢]، إنه شديد التعقيد.

أنا قادمة في يوم السبت مع بولي من جديد. يسعدني أنْ تأتي معي مرتين - إنَّ غرفة ليونيز ليست سيئة كباقي الغرف، أليس كذلك.

سأصطحبُ معي أيضاً فتاةً فاتنة أريدُ أنْ نكون كلنا لطيفين معها. لقد عاشت حياةً فظيعة وهي تُقيمُ في إحدى تلك الشقق. اسمها جيني عبد الأكبر. ليست سوداء بل متزوجة من أسود. ادعُها لتُخبرك. أعتقد أنها سوف تصل على متن قطار الساعة الثالثة وثماني عشرة دقيقة. يجب أنْ أتوقَّف الآن وأذهب إلى المحاضرة "

ابتعد عن الرَم الشيطاني xxxx

بريندا

لقد قابلتُ جوك في الليلة الفائتة في كافيه دو باري مع شقراء شائنة. ما اسمها ؟

---

١٢ - نظام المعدِنين : نظام يجعل لكل من النقود الذهبية والفضية قوة إبراء مطلقة بعد تحديد النسبة بينهما .

إنَّ جن، كلا، جنّي - كيف؟ - مُصابٌ بالروماتيزم ومارجوري منزعجة جداً بهذا الشأن. تعتقد أنَّ حوضه منحرف عن مكانه وكرتويل يرفض أنْ يُعالجه وهذه خِسّة إذا أخذنا في الاعتبار كل الناس الذين أحضرتهم إليه.

* * *

" هل أنت واثقة من أنَّ جيني ستكون مناسبة لتوني؟ "

قالتْ بولي " لا يمكن التأكُّد من هذا. إنها مملّة جداً، لكنها مُجرّبة جيدة "

* * *

" هل ستأتي الماما اليوم، يا أبي؟ "

" نعم "

" ومَنْ أيضاً؟ "

" واحدة اسمها جيني عبد الأكبر "

" اسمٌ سخيف. أهي أجنبية؟ "

" لا أدري "

" تبدو أجنبية، أليس كذلك، يا أبي؟ أتعتقد أنها لا تُحسِنُ أي قدرٍ من الإنكليزية؟ أهي سوداء؟ "

" الماما تقول لا "

" أوه... ومَن غيرها؟ "

" ليدي كوكْبيرس "

" المرأة القردة. في الواقع ليس فيها من شبهٍ بالقرد إلا ربما وجهها، ولا أعتقد أنَّ لها ذيلاً لأني ألقيتُ عليها نظرةً عن قُرب... إلا إذا كانت تطويه بين ساقيها. أتعتقد أنَّ لها واحداً، يا أبي؟ "

" لن أفاجأ "

" شيء مزعج جداً "

عاد توني وجون صديقَين كالسابق، لكنَّ الأسبوع كان مُثقلاً.

* * *

كان من ضمن خطة بولي كوكبيرس أنْ تصل متأخرة إلى هيتون. قالت " اعطِ الفتاة فرصة للاندماج ". وهكذا لم تغادر مع بريندا لندن إلا بعد أنْ تركت جيني المحطة. كان يوماً من البرد القارس والمطر المتفرِّق. شدَّتْ صاحبة القوام الضئيل العنيد الدثار حولها إلى أنْ وصلت إلى البوابة. ثم فتحَتْ حقيبتها ودسَّتْ فيها خِمارها، وهزَّتْ قطيفة البودرة وعدَّلَتْ من زينة وجهها.

كان توني في غرفة التدخين حين أعلنَ عن حضورها، أصبحتْ غرفة المكتب صاخبة أثناء النهار، لأنَّ هناك رجالاً يعملون على جدران الغرفة الصباحية المجاورة، على تمزيق زخرفة الجصّ المُشجّرة.

" الأميرة عبد الأكبر "

نهضَ واقفاً ليُحييها، كان يسبقها عبَقُ مسكٍ ثقيل.

قالت " أوه، سيد لاست، ما أجمل هذا المكان "

قال توني " أخشى أنَّ إصلاحات كثيرة أُجريَتْ عليه "

" أه، لكن جوّه العام رائع. لطالما اعتقدت أنَّ هذا هو المهم في المنزل. ويا للجلال، والسكون. ولكن طبعاً أنت تعوّدت عليه. عندما تكون شديد التعاسة، كما كنت أنا، فإنك تقدِّر هذه الأشياء "

قال توني " أخشى أنَّ بريندا لم تصل بعد. سوف تصل بالسيارة مع ليدي كوكبيرس "

" لقد كانت بريندا صديقة عزيزة عليّ ". خلعَتْ الأميرة عنها الفرو وجلَسَت على كرسي بلا ظهر أمام موقد النار. رافعة بصرها نحو توني.

" هل تمانع في أنْ أخلع قبعتي؟ "

" كلا، كلا... طبعاً "

رمَتها على الصوفا وهزَّتْ شعرها الأسود الفاحم والمُجعَّد. " أتعلم، يا سيد لاست، سوف أناديك تيدي مباشرةً. لا أظنكَ ترى في هذا وقاحة شديدة مني؟ وعليك أنْ تُخاطبني باسم جيني. إنَّ لقب " أميرة " شديد الرسميّة، أليس كذلك، ويوحي ببنطلون ضيّق وضفيرة ذهبية... طبعاً "، ثم تابعَتْ، مادةً يديها نحو النار وتاركةً شعرها ينهمر إلى الأمام فوق وجهها قليلاً، " إنَّ زوجي لم يكن يُكنّى بالأمير في مراكش، كان لقبه هو مولاي - ولكن لا يوجد موازٍ له لوصف المرأة، لذلك لطالما أطلقتُ على نفسي لقب أميرة في أوروبا - إنَّ لقب مولاي أرقى بكثير حقاً... وكان زوجي يتحدر من سلالة النبي. هل لديك اهتمام بالشرق؟

" كلا... نعم. أعني أني لا أعرف إلا القليل منه "

" أنا أرى أنها تتمتع بسحرٍ طاغٍ. يجب أنْ تذهب إلى هناك، ياتيدي. أنا أعلم أنكَ تحب هذا. لقد قلت الشيء نفسه لبريندا "

قال توني " اعتقد أنكِ تودين أنْ تري غرفتك. سوف يجلبون الشاي حالاً "

" كلا، سأبقى هنا. أحب فقط أنْ ألتفّ حول نفسي كقطة أمام نار الموقد، وإذا كنتَ لطيفاً معي سأخرخر، وإذا كنتَ قاسياً سأتظاهر بأني لا ألاحظ - كما تفعل القطة... هل أخرخر، يا تيدي؟ "

" إر... نعم... افعلي، أرجوك، إذا كان هذا ما تحبين فعله "

" إنَّ السادة الإنكليز شديدو الرقّة والمراعاة. ويسعدني أنْ أكون بينهم من جديد... إنهم أهلي. أحياناً حين أستعيد حياتي الماضية، خاصة في أوقات كهذا الوقت، وأنا بين أشياء إنكليزية عريقة وجميلة وأناس رقيقين، أشعر بأنَّ كل ما مرّ بي كان كابوساً مريعاً... ثم أتذكَّر نُدبي..."

" تقول بريندا إنكِ أخذتِ مثلها شقّة في البناء نفسه. يبدو أنها ملائمة جداً "

" كم أنت إنكيزيّ يا تيدي - شديد الحياء حيال الحديث عن الأمور الشخصية، الأمور الحميمة... وهذا ما يعجبني فيك، في الواقع. إنني أحب كل ما هو صلب وأليف وجيّد بعد... بعد كل ما مررتُ به "

" هل تدرسين الاقتصاد أنت أيضاً؟ "

" كلا، بريندا تفعل؟ إنها لم تُخبرني بذلك. كم هي رائعة. متى تجد الوقت اللازم؟ "

قال توني " أوه، ها قد جاء الشاي أخيراً. آمل أنْ تسمحي لنفسك بأكل الفطائر. إنَّ العديد من الضيوف هذه الأيام يتّبعون الحِمية. أعتقد أنَّ الفطائر هي أحد الأشياء القليلة التي تجعل الشتاء الإنكليزي قابلاً للتحمُّل"

قالتْ جيني " إنَّ الفطائر تمثّل أشياء كثيرة "

راحت تأكل بشهيّة مفتوحة، وكانت غالباً تُمرِّر لسانها على شفتيها، وتُلملم الفُتات عنهما والزبْد الذائب من الفطيرة. سقطَتْ قطرة من الزبد على ذقنها ولمعَتْ هناك ولم يُلاحظ وجودها إلا توني. وكان إحضار جون أندرو مصدر ارتياح له.

" تعال لنقدِّمك للأميرة عبد الأكبر "

لم يكن جون أندرو قد قابلَ أميرة قبل ذلك، فحدَّقَ إليها، مبهوراً.

" ألن تعطيني قبلة؟ "

مشى إليها وقبَّلته على فمه.

قال " أوه، وهو يتراجع ويمسح مذاق أحمر الشفاه، ثم قال " رائحة جميلة "

قالت " إنها آخر صلة لي بالشرق "

" هناك زبد على ذقنك "

مدَّتْ يدها إلى حقيبتها وهي تضحك " معك حق. تيدي، كان يمكن أنْ تخبرني "

" لماذا تُخاطبين أبي باسم تيدي؟ "

" لأنني آمل أنْ نصبح صديقين حميمين "

" يا له من سبب غريب "

مكثَ جون بينهما مدة ساعة من الزمن، وكان طوال الوقت يُراقبها، مفتوناً. سألها " هل لديكِ تاج؟ كيف تعلّمتِ التكلُّم بالإنكليزية؟ ممَّ صُنع هذا الخاتم الكبير؟ هل هو غالي الثمن؟ لماذا تلوّنين أظافرك بهذا اللون؟ هل تُحسنين ركوب الخيل؟ "

أجابتْ عن تلك الأسئلة كلها، أحياناً بأسلوبٍ مُلغز، وإحدى عينيها على توني. وأخرجَتْ منديلاً مُضمَّخاً بعطرٍ ثقيل قليلاً وعَرَضَتْ على جون أحرفاً مُزخرفة عليه. قالت " هذا تاجي الوحيد... الآن ". وحكَتْ له عن الجياد التي كانت تركبها - سوداء لامعة، ذات أعناق مُحدَّبة، وزَبَد يتشكَّل حول الشكيمة الفضيّة وريش يقفز على جِباهها، ومسامير كبيرة فضيّة على العدِّة، وقماش سرج قرمزي اللون. " في يومِ مولد مولاي - "

" من هو مولاي؟ "

قالتْ بجدّية " رجل شرير جداً وجميل، وفي عيد مولده كان فرسانه كلهم يجتمعون حول ساحة شاسعة، بأبهى ملابسهم، وزخارفهم وأحجارهم الكريمة، حاملين سيوفهم الطويلة بأيديهم. وكان مولاي يجلس على العرش تحت ظلّة عظيمة قرمزية اللون "

" ما هي الظلّة؟ "

" تشبه الخيمة "، قالتها بمزيد من الحِدّة، ومن ثم، أضافتْ مُستعيدة صوتها الناعم، " وكان الفرسان كلهم يخبّون عبر الأرض المنبسطة، ويثيرون سحابة عظيمة من الغبار، ملوّحين بسيوفهم في وجه مولاي مباشرة. وكان الجميع يحبسون أنفاسهم، مُعتقدين أنّ الفرسان سينقضّون على مولاي مباشرة، ولكن حين يُصبحون على مسافة بضع أقدام منه، بقدر قُربي منك، يخبّون بالسرعة القصوى، يكبحون جِماح أحصنتهم، حتى تقف على قوائمها الخلفية ويُحيّون - "

قال جون " أوه، ما كان ينبغي عليهم أنْ يفعلوا، إنهم فرسان سيئون جداً. هذا ما يقوله بن "

" إنهم أروع فرسان في العالم. الجميع يعرفون ذلك "

" أوه، كلا، لا يمكن أنْ يكونوا كذلك، إنْ كان هذا ما يفعلون. إنه أحد أسوأ الأشياء. هل كانوا من المواطنين الأصليين؟ "

" نعم، طبعاً "

" بن يقول إنّ المواطنين الأصليين ليسوا بشراً على الإطلاق في الواقع "

" أوه، ولكن أعتقد أنه يعني الزنوج. فهؤلاء نموذج سامٍ صِرف "

" ما معنى هذا ؟ "

" مثل اليهود "

" يقول بن، إنَّ اليهود أسوأ من السكان الأصليين "

" أوه، يا إلهي ما أقساك من فتى. أنا كنتُ كذلك ذات مرة. إنَّ الحياة تُعلِّم المرء أنْ يكون متسامحاً "

قال جون " إنها لم تعلم بن. متى ستأتي الماما ؟ حسبت أني سأجدها هنا، وإلا لَما توقفت عن رسم لوحتي "

ولكن عندما جاءتْ ناني لتأخذه، اقترب جون من جيني، دون دعوة، وقبّلها قبلة المساء. قالت " تصبح على خير، أيها الفتى جوني "

" بماذا وصفتني؟ "

" الفتى جوني "

" طريقتك غريبة في استعمال الأسماء "

في الطابق العلوي قال، وهو يتأمّل، ويضرب ملعقته بمزيج الخبز والحليب، " ناني، أَنا حقاً أعتقد أنَّ تلك الأميرة جميلة، ألا توافقين؟ "

نَشَقَتْ ناني. قالت "سيكون العالم مُضجراً لو أنَّ أفكارنا متشابهة"

" إنها أجمل حتى من مس تندريل. أعتقد أنها أجمل سيدة رأتها عيناي... أتعتقدين أنها تحب أنْ تراقبني وأنا أستحم؟ "

في الطابق السفلي، قالت جيني " ما أروعه من طفل... أنا أحب الأطفال. تلك كانت مأساتي. وعندما اكتشف مولاي أني عاجزة عن إنجاب الأطفال أظهر طبيعته الثانية. لم تكن غلطتي... في الواقع إنَّ رحمي ليس في مكانه الصحيح... لا أدري لماذا أخبركَ هذا، ولكني أشعر أنك تفهم. عندما يعرف المرء أنه سيحب شخصاً ويستمر في

الادّعاء، فإنَّ ذلك مضيَعة للوقت... أنا أعرف على الفور إنْ كان شخص ما سيُصبح صديقاً حقيقياً... "

وصلَتْ بولي وبريندا قُبيل الساعة السابعة. توجّهت بريندا مباشرةً إلى غرفة الحضانة. قال جوني " أوه، ماما، هناك سيدة جميلة جداً في الأسفل. اطلبي منها أنْ تأتي وتقول لي تصبح على خير. إنَّ ناني تعتقد أنها لن توافق "

" هل بدا البابا مُعجَباً بها؟ "

" هو لم يتكلّم كثيراً... إنها لا تعرف الكثير عن الخيول أو عن السكان الأصليين لكنها جميلة فعلاً. أرجوك اطلبي منها أنْ تصعد إليّ"

هبطتْ بريندا إلى أسفل فوجدتْ جيني مع بولي وتوني في غرفة التدخين. " لقد أحرزتِ نجاحاً ساحقاً مع جون أندرو. إنه يرفض أنْ ينام حتى يراك ثانية "

صعدتا معاً، وقالت جيني " إنَّ كليهما رائعان "

" هل تعارفتما أنت وتوني؟ أنا شديدة الأسف لأنني لم أكن موجودة عندما وصلت "

" لقد كان غاية في العطف واللطف... وشديد الكآبة "

جلستا على سرير توني الصغير في غرفة الحضانة الليلية. أزاحَ الأغطية وخرجَ زاحفاً، ولجأ إلى أحضان جيني. قالت " عُدْ إلى السرير، وإلا ضربتك "

" ستضربينني بقسوة؟ لا يهمني "

قالت بريندا " أوه يا إلهي، يبدو أنَّ لكِ تأثيراً رهيباً. إنه في المعتاد لا يحب هذا "

بعد أنْ خرجتا فتحت ناني مصراعيّ نافذة أخرى.

قالت " أووف! لقد جعلَتْ المكان كله يفوحُ قذارة "

" ألا تحبّين رائحتها ؟ أنا أعتقد أنها ذكية "

رافقَتْ بريندا بولي إلى غرفة ليونس. كانت جناحاً فسيحاً، مُزوّدة بالخشب الأطلساني من أجل الملك إدوارد عندما توقعوا وصوله، حين كان أمير ويلز، إلى حفل صيد، ولم يصل البتة.

سألت بقلق " كيف الحال؟ "

" ما زال الوقت مُبكّراً لمعرفة ذلك. أنا واثقة من أنَّ كل شيء سيكون على ما يرام "

" لقد حصلت على الشخص غير المناسب. إنَّ جون أندرو مولعٌ بها... شيء مُحرج تماماً "

" أنا أقول إنَّ تحرُّك توني بطيء. من المؤسف أنها لفظت اسمه بشكلٍ خاطئ. هل يجب أنْ نُلفِت انتباهها ؟ "

" كلا، فلندع الأمر "

أثناء ارتدائهما ملابسهما، قال توني " بريندا، مَنْ تلك المرأة المضحكة؟ "

" ألم تعجبك، يا حبيبي؟ "

كانت الخيبة والأسى في نبرة صوتها واضحَين حتى أنَّ توني تأثَّر. "لستُ متأكداً تماماً من أنها لم تعجبني. إنها مجرد مُهرّجة، أليست كذلك؟ "

" أحقاً... يا إلهي... لقد عاشتْ حياةً رهيبة، في الواقع "

" هذا ما اعتقدته "

" كنْ لطيفاً معها، يا توني، أرجوك "

" أوه، سأكون لطيفاً معها. أهي يهودية؟ "

" لا أدري. لم أفكّر في هذا قطُّ. لعلّها كذلك "

بعد العشاء مباشرةً قالت بولي إنها مُتعبة وطلبتْ من بريندا أنْ تكون معها وهي تخلع ملابسها، وهمستْ لها خارج الباب، " دعي الزوج الشاب وشأنهما "

" يا إلهي، لا أعتقد أنَّ الأمر سينجح... إنَّ الفتى العجوز المسكين لديه بعض الذوق في الواقع، وحس فكاهي "

" إنها لم تستعرض نفسها بقدرٍ كافٍ على العشاء، أليس كذلك؟ "

" سوف تستمر على هذا المنوال... إنَّ توني، في الحقيقة، تعوَّدَ عليّ طوال سبع سنوات. هذا تغيير مفاجئ "

* * *

" مُتعبة؟ "

" نعم، قليلاً "

" لقد تركتِني فترة طويلة مع عبد الأكبر "

" أعلم. أنا آسفة، يا حبيبي، لكنَّ بولي لم تلجأ إلى السرير إلا بعد وقتٍ طويل... أكانت كريهة؟ كنتُ أتمنى لو أنها أعجبتك أكثر من هذا "

" إنها كريهة "

" على المرء أنْ يلتمس الأعذار... لقد أُصيبَتْ بأبشع النُدب "

" أخبرَتني "

" أنا رأيتها "

" ثم، كنتُ آمل أنْ أراكِ "

" أوه "

" بريندا، أمــا زلتِ غــاضـبــة مني لأني ثملت في تلك الليلة وأيقظتُكِ؟ "

" كلا، يا حبيبي، هل أبدو لكَ غاضبة؟ "

"... لا أدري. في الغالب تغضبين... هل أمضيت أسبوعاً مُسلياً؟"

" ليس مُسلياً، بل عمل شاق. في نظام المعدِنين، في الواقع "

" أوه نعم... حسن، أعتقد أنكِ ستنامين "

" نعم... مُرهقة. تصبح على خير، يا حبيبي "

" تصبحين على خير "

* * *

" هل أستطيع أنْ أذهب وأقول صباح الخير للأميرة، ممّ؟ "

" لا أعتقد أنها قد استيقظت بعد "

" أرجوكِ، مـامـا، هل تسـمـحين لي بأنْ أذهب وأرى؟ سـوف أطلُّ فقط، وإذا كانت نائمة، سأبتعد "

" لا أدري في أي غرفة هي "

قالت غريمشو، التي كانت تمدّ ملابسها، " في غالاهاد، يا سيدتي "

" أو يا إلهي، لماذا وُضِعَتْ هناك؟ "

" إنها أوامر السيد لاست، يا سيدتي "

" حسن، إذن لعلّها مستيقظة "

تسلّل جون من الغـرفـة وخبَّ على الممر المؤدي إلى غـالاهاد، " هل لي أنْ أدخل؟ "

" مرحبا، جوني الفتى، ادخل "

أخذَ يتأرجح على مقبضيّ الباب، نصفه داخل الغرفة، والنصف الآخر خارجها. " هل تناولت طعام الفطور؟ ماما قالتْ إنكِ لن تكوني قد استيقظت "

" لقد استيقظت منذ وقت طويل. في الواقع لقد تألّمت كثيراً في الماضي، لذلك فأنا لا أنام جيداً دائماً. حتى أشدّ الأسرّة نعومة أصبحتُ أجدها شديدة القساوة الآن "

" أوووه. ماذا فعلت؟ أكانت حادثة سيارة؟ "

" ليس حادثة، جوني أيها الفتى، ليس حادثة... ولكن ادخلْ. الدنيا برد والباب مفتوح. انظر، هنا يوجد بعض العنب. هل ترغب في بعضه؟ "

ارتقى جوني السرير. " ماذا ستفعلين اليوم؟ "

" لا أعلم حتى الآن. لم يُخبرني أحد "

" حسن، أنا أخبركِ. سنذهب إلى الكنيسة في الصباح لأنني مُضطرٌ إلى ذلك ومن ثم سنذهب ونتفقّد ثندركلاب وسأُريك المكان الذي نقفز فيه ومن ثم يمكنكِ أنْ تراقبيني وأنا أتناول عشائي لأني أتناوله باكراً وبعد ذلك يمكننا أنْ نذهب إلى غابة برتون ولسنا بحاجة إلى اصطحاب ناني لأنها ستتلوث بالطين ويمكنكِ أنْ تشاهدي الثعلب الذي عثروا عليه مرمياً في المصرف خارج الغابة مباشرة، وكاد يُفلت، وثم يمكنكِ أنْ تأتي وتتناولي الشاي في غرفة الحضانة وأنا لديّ جهاز غرامافون صغير أعطاه لي العم ريجي في عيد الميلاد وهو يعزف لحن " عندما يُلصِق أبي ورق الجدران في الصالون "، هل تعرفين هذه الأغنية؟ بن يستطيع أنْ يُغنيها وأنا لدي بعض الكتب سأُريكِ إياها ولوحة رسمتها لمعركة مارستون مور "

" أعتقد أنَّ هذا سيكون يوماً جميلاً. ولكن ألا تعتقد أنَّ عليَّ أنْ أقضي بعض الوقت مع البابا والماما وليدي كوكبيرس؟ "

" أوه، هُم... ثم إنَّ الذنب ذنبي في أنَّ لليدي كوكبيرس ذَنَباً. أرجوكِ، هلاَّ أمضيتِ النهار معي؟ "

" حسن، سنرى "

* * *

" لقد ذهبَتْ معه إلى الكنيسة. هذه إشارة جيدة، أليس كذلك؟ "

" في الواقع، ليس هذا بالضبط ما حصل، يا بولي. إنه يذهب وحده، أو معي. لقد حان الوقت ليُثرثر مع أهل القرية "

" لن تستطيع إسكاته "

" أخشى أنكِ لا تفهمين الفتى العجوز أبداً. إنَّ أطواره أغرب مما تظنين "

* * *

" أفهمُ من موعظتك أنكَ زرتَ الشرق، أيها القس "

" نعم، نعم، معظم حياتي "

" إنه يتصف بسحرٍ طاغٍ، أليس كذلك؟ "

قال جون، وهو يجرّها من معطفها، " أوه، هيا، يجب أنْ نذهب ونرى ثندركلاب "

وهكذا عاد توني وحده مع أزهار العروة.

بعد تناول طعام الفطور قالت بريندا، " لِمَ لا تُري جيني المنزل؟ "

" أوه نعم، افعلْ "

عندما وصلا إلى الغرفة الصباحية قال " إنَّ بريندا تُعيد تنسيقها "

كانت ألواح وسلالم وأكوام من الجصّ موزّعة في كل مكان.

" أوه، تيدي، خسارة. إنني فعلاً أكره رؤية الأشياء تُحدَّث "

" إننا لا نستعملها كثيراً "

" كلا، ولكن مع ذلك... "، وبعثرَتْ قوالب شِعار الزنبق التي تغطّي الأرضيّة، شظايا مُذهَّبة فَقَدَتْ بريقها وأشغال مُروسَمة مُغبرّة. "في الواقع، لقد كانت بريندا صديقة رائعة لي. ولا يمكن أنْ أقول أي شيء ضدّها... ولكن منذ أنْ قدمِتُ إلى هنا وأنا أتساءل إنْ كانت حقاً تفهمُ هذا المكان الجميل وما يعنيه لك "

قال توني، وهو يقودها في طريق العودة إلى القاعة الرئيسية، "احكي لي أكثر عن حياتك الرهيبة "

" أنتَ فعلاً تستحي أنْ تحكي عن نفسك، أليس كذلك، يا تيدي؟ في الواقع، من الخطأ الاحتفاظ بسرّية الأشياء. أنا أيضاً كنتُ شديدة التعاسة "

تلفّتَ توني حوله في يأس بحثاً عن عون، وجاءه العون. قال صوتُ طفل صارم، " أوه، ها أنت. هيا، نحن ذاهبان إلى الغابة الآن. يجب أنْ نسرع، وإلا سيحلّ الظلام "

" أوه، أحقاً، أيها الفتى جوني؟ كنتُ أتكلّم مع البابا للتو "

" هيا. كل شيء مُعدّ. وبعد ذلك سوف يُسمَح لكِ بشرب الشاي معي في الطابق العلوي "

زحفَ توني إلى غرفة المكتب، التي أضحَتْ قابلة للسكن، بعد أنْ أخذ العمال فترة راحة. وجدته بريندا هناك بعد ذلك بساعتين. " توني، أنتَ هنا وحدك؟ حسبنا أنكَ مع جيني. ماذا فعلت معها؟ "

" جون أخذها وانطلقا... قبل أنْ أتلفّظ بكلمات فظّة مباشرة "

" أوه يا إلهي... ليس هناك غيري وبولي في غرفة التدخين. تعال واشرب الشاي. إنَّ شكلك كله غريب - أكنتَ نائماً؟ "

* * *

" يجب أنْ نعترف بأنَّ الأمرَ قد فشل، دون أدنى شك "

" ماذا يتوقع الفتى العجوز؟ هذا لا يعني أنَّ هناك مَنْ يُراهن عليه"

" أنا أقول إنَّ الأمر كان سيسير على ما يُرام، لو أنها لم تُخطئ في نُطق اسمه "

" على أي حال، هذا يُخرجك من الأمر. لقد فعلتِ أكثر مما قد تفعله غالبية الزوجات لإدخال البهجة على قلب الفتى العجوز "

قالت بريندا " نعم. هذا دون أدنى شك صحيح "

- ٤ -

مرّت خمسة أيام أُخَر، ثم عادت بريندا إلى هيتون من جديد. قالت " لن أكون هنا في نهاية الأسبوع القادم، سوف أمكث مع فيرونيكا "

" وهل أنا مدعو؟ "

" في الواقع، كنتَ كذلك، طبعاً، لكني رفضتُ من أجلك. أنتَ تعلم أنكَ دائماً تكره الابتعاد عن المنزل "

" لا مانع لديّ من المجيء "

" أوه، يا عزيزي، ليتني كنتُ أعرف هذا. كانت فيرونيكا ستحبُّ ذلك... ولكني أخشى أنَّ الأوان قد فات الآن. إنَّ منزلها صغير... وأقول لك الحق لا أعتقد أنك ستحبها كثيراً "

" إنني أكرهها كالجحيم "

" حسن، إذن... ؟ "

" أوه، لا يهم. أعتقد أنكِ يجب أن تعودي يوم الاثنين؟ كلاب الصيد سوف تجتمع يوم الأربعاء، كما تعلمين "

" هل سنمنحها أرضاً؟ "

" نعم، يا عزيزتي، أنتِ تعلمين أننا نفعل في كل عام "

" نفعلُ حقاً؟ "

" ولا تستطيعين أنْ تستقري حتى ذلك الحين؟ "

" هذا غير ممكن، يا عزيزي. في الواقع إذا ما فاتتني محاضرةٌ واحدة فإني أتخلّف ولا أستطيع أنْ ألحق بالتالية. ثم إني لستُ مشتاقة إلى لقاء كلاب الصيد "

" كان بن يتساءل إنْ كنا نسمح لجون بالخروج "

" أوه، إنه لا يزال صغيراً جداً "

" ليس على الصيد. لكني رأيتُ أنَّ من الممكن أنْ يجلب مهره إلى الاجتماع ويمتطي معهم إلى أول مكمن. إنه يُحب ذلك كثيراً "

" هل هو آمن؟ "

" أوه، دون أدنى شك؟ "

" بورك قلبه، أتمنى لو أكون هنا لأشاهده "

" غيّري رأيك "

" أوه، كلا، هذا مستحيل تماماً. لا تُضخِّم الأمر، يا توني "

حدثَ ذلك بعد وصولها في المرة الأولى، ولاحقاً تحسَّنَ كل شيء. كان جوك موجوداً في نهاية الأسبوع، كذلك ألان ومارجوري وزوجان

آخران من أصدقاء توني الذين عرفهم طوال حياته. وكانت بريندا قد أعدّت حفلة له واستمتعَ بها. وخرجَ هو وآلان مع بنادق صيد الغُداف واصطادا الأرانب عند الغسق، وبعد العشاء لعبَ الرجال الأربعة البلياردو خمس مرات بينما راقبتهما إحدى الزوجات. قالت بريندا لمارجوري " إنَّ الفتى العجوز سعيد كقُبّرة، ومُستقر بشكلٍ رائع في نظامِ الحِمية الجديد "

دخلوا مقطوعي الأنفاس ومتورّدي الخدود من شرب الويسكي مع الصودا.

قال جوك " كاد توني يُخرِجِ الكرة من النافذة "

في تلك الليلة نام توني في غوينيفر.

ذات مرة قال " هل كل شيء على ما يُرام؟ "

" نعم، طبعاً، يا عزيزي "

" إنني أشعر بالانقباض وأنا هنا وحدي وتراودني الأوهام "

" ينبغي ألاّ تُطيل التأمُّل الكئيب، يا توني. أنت تعلم أنَّ هذا من الأشياء الممنوعة عليك "

قال توني " لن أعود إلى التأمُّل الكئيب بعد الآن "

في اليوم التالي ذهبتْ بريندا إلى الكنيسة بصُحبته. كانت قد قرّرتْ أنْ تُكرِّس نهاية الأسبوع بأكملها له، وستكون تلك آخر مرة لفترة طويلة.

" وكيف حال العلوم العويصة، ليدي بريندا ؟ "

" ممتعة جداً "

" سوف نلجأ إليكِ لأخذ النصيحة بشأن المبالغ المسحوبة "

" ها، ها "

سألتْ مس تندريل " وكيف حال ثندركلاب؟ "

قال جون " سآخذه للصيد في يوم الأربعاء ". كان قد نسيَ أمر الأميرة عبد الأكبر في غمرة حماسته للّقاء القادم. " أرجوك يا الله اجعلْ الرائحة جيدة. أرجوك يا الله اجعلني أرى القنيص. أرجوك يا الله لا تجعلني أرتكب أي خطأ. وليبارك الله بن وثندركلاب. أرجوك يا الله اجعلني أقوم بقفزة عظيمة من فوق الحاجز ". هكذا ظلَّ يُردد طوال مدة القدّاس.

قامت بريندا بجولة مع توني على الأكواخ والبيوت الزجاجية، وساعدته في اختيار أزهار العروة.

كانت روح توني عالية على مائدة الغداء. وكانت بريندا قد بدأت تنسى كم يمكن له أنْ يكون مُسلياً. وبعد ذلك بدّلَ ملابسه ورافق جوك للعب الغولف. ومكثا بعض الوقت في المُنتدى. قال توني " لدينا اجتماع لكلاب الصيد في هيتون يوم الأربعاء. ألا تستطيع أنْ تمكث حتى ذلك الحين؟ "

" يجب أنْ أعود. سوف تجري مُناظرة حول مشروع لحم الخنزير "

" أتمنى منكَ أنْ تبقى. انظر هنا، لِمَ لا تطلب من تلك الفتاة أنْ تمكث معك؟ الجميع سيذهبون غداً. تستطيع أنْ تتصل بها هاتفياً، أليس كذلك؟ "

" أستطيع "

" أيمكن أنْ تكره هذا؟ يمكنها أنْ تنزل في ليونس - لقد نامت بولي مرّتين على مدى نهايتي أسبوعين مُتتاليين، لذا لا يمكن أنْ تكون غير مُريحة "

" قد تُعجبها. سأتصل وأطلب منها "

" لِمَ لا تُمارس الصيد أنتَ أيضاً؟ هناك شاب يُدعى برينكويل، وأعتقد أنَّ لديه بعض المأجورين اللائقين "

" نعم، قد أفعل "

* * *

" جوك سيمكث، وسترافقه شقراء وقحة. هل تمانعين؟ "

" أنا؟ طبعا لا "

" لقد كانت نهاية هذا الأسبوع ممتعة حقاً "

" كنتُ أعلم أنكَ تستمتع بها "

" كأيام زمان - قبل أنْ تبدأ دروس الاقتصاد "

* * *

قالتْ مارجوري لجوك " أتعتقد أنَّ توني يعلم بأمر بيفر؟ "

" ولا يعلم أي شيء "

" أنا لم أبُحْ به لألان. أتعتقد أنه يعلَم؟ "

" أشكُّ في هذا "

" أوه، جوك، كيف تعتقد أنه سينتهي؟ "

" سوف تُصاب بالضجر من بيفر قريباً "

" المشكلة هي أنه لا يُبدي أي اهتمام بها. ولو أنه فعلَ، لانتهى الأمر... كم هي حمارة "

" أنا أقول إنها نجحتْ بشكلٍ استثنائي، إذا طلبت رأيي "

* * *

الزوجان الآخران قال أحدهما للآخر " أتعتقد أنَّ مارجوري وألان يعلمان بأمر بريندا "

" أنا واثق من أنهما لا يعلمان "

* * *

قالتْ بريندا لألان " ألا ترى أنَّ توني سعيد كبرغوث الرمل؟ "

" إنه ممتلئ بالنشاط "

" إنني أقلقُ بشأنه... هل تعتقد أنه على عِلمٍ بما أفعل؟ "

" يا إلهي كلا. إنه آخر شيء يمكن أنْ يخطر في باله "

قالت بريندا " لا أريده أنْ يكون تعيساً، في الواقع... كانت مارجوري مُهيمنة بشكلٍ مُخيف على الوضع كله "

" أحقاً؟ أنا لم أناقش الأمر معها "

" وكيف سمعتَ أنتَ به؟ "

" يا فتاتي العزيزة، حتى هذه اللحظة لم يكن لديّ عِلم بعلاقتك. وأنا لا أطرح أي أسئلة عنها الآن "

" أوه... حسبتُ أنَّ الجميع يعلمون "

" هذه دائماً مشكلة الناس حين يبدؤون بالخروج. فإما أنهم يظنون أنَّ لا أحد يعرف بأمرهم أو أنَّ الجميع يعرفون. والحقيقة هي أنَّ عدداً قليلاً منهم مثل بولي وسيبيل يصرّون على معرفة الحياة الخاصّة لكل شخص، أما بقيَّتنا فلا تُبدي أي اهتمام "

" أوه "

* * *

لاحقاً قال لمارجوري " لقد حاولت بريندا أنْ تكون مُتكتّمة بشأن بيفر هذا المساء "

" لم أكنْ أعلم أنكَ تعلم "

" أوه، أنا أعلم فعلاً. لكنني لم أكن أنوي أنْ أجعلها تشعر بأهميتها بالحديث عن الأمر "

" لم أتمكّن من استهجان مُعظم الأمر برُمّته. هل تعرف بيفر؟ "

" رأيته هنا وهناك. على أي حال، هذا شأنها وشأن توني، ليس شأننا "

- ٥ -

رفيقة جوك الشقراء كان اسمها السيدة راتري. وكان توني يضمر فكرة عنها كونّها مما سمعه مُصادفة من ثرثرة بولي ومن معلومات متفرّقة أفلتت من جوك. كانت تتجاوز الثلاثين بقليل. وفي مكان ما من مقاطعة كوتسمور عاش ميجور راتري، الطويل القامة والسيء السمعة قليلاً، الذي كانت متزوجة منه ذات يوم. كانت أميركية الأصل، أما الآن فهي لا تنتمي إلى أي جنسية، وثرية، بلا أملاك أو ممتلكات، اللهم إلاّ ما يمكن حزمه في حقائب ضخمة. وكان جوك قد لمحها خلال الصيف السابق في بياريتس وصادفها مرةً أخرى في لندن حيث شاركَتْ في مباريات كبرى في لعبة البريدج، بمقدرةٍ فائقة. استمرّتْ ست ساعات أو سبع في اليوم. كانت تُبدِّل فندقها، في المعدل، مرةً كل ثلاثة أسابيع. وكانت عُرضة على فترات لتعاطي المورفين، ثم تخلّتْ عن لعب البريدج وأصبحتْ تنفرد بنفسها على مدى أيام عِدة في جناحها في الفندق، وتنعشُ نفسها بشرب كؤوس من الحليب البارد.

وصلَتْ بالطائرة بعد ظهر يوم الاثنين. وكانت تلك أول مرة يأتي فيها ضيفٌ بذلك الأسلوب، ودبَّ الحماس من أجلها في أهل المنزل.

وبتوجيه من جوك قام عاملٌ وبستانيّ بمد ملاءةِ درءِ الغبارِ في الحديقة العامة كعلامةٍ لمكانِ هبوطها وأشعلا ناراً من الأغصان الرطبة لتبيان اتّجاه الريح. ووصلت الحقائب الخمس بالطريقة التقليدية بالقطار، مع خادمة عجوز، مثالية، خالية من التخاريم والزخارف من أي نوع، إلا من نقش أحرف بسيطةٍ، صغيرة.

خرجَ توني وجوك وجون ليراقبوا عملية هبوطها. هبطتْ من ركن قائد الطائرة، وتمطَّتْ، وفكَّتْ أزرار حواشي خوذتها الجلدية، وتقدمت لتُقابلهم. قالت " إنَّ اثنتين وأربعين دقيقة مدةٌ لا بأس بها مع أنَّ الريح كانت في وجهنا "

كانت ممشوقة القامة ومستقيمة، وتكاد تبدو صارمة بالخوذة ورداء العمال، ولا تشبه أيَّ شيءٍ مما تخيّله توني. كانَ قد توقَّعَ سراً، بصورة غامضة وسخيفة قليلاً، في خلفيّة عقله، فتاةَ كورس، ببنطلون قصير من الحرير وحمّالة للثديين، تقفزُ خارجةً من بيضة فصح ضخمة مربوطة بشريط، وهي تهتف " ووبيييي، يا شباب ". كانت صيحات السيدة راتري رشيقة ومُجرّدة.

سألَ جون " هل ستشاركين في رحلة الصيد يوم الأربعاء؟ وسوف يجتمعون هنا، في الواقع "

" قد أذهب مدة نصف يوم، إذا استطعت أنْ أجد حصاناً. وسوف تكون أول مرة لي في هذا العام "

" وهي المرة الأولى لي أيضاً "

" سنكون أخرقين معاً ". خاطبته بالضبط وكأنه رجل في مثل سنها. " سوف تضطر إلى أنْ تريني المقاطعة "

" أعتقد أنهم سيتقدّمون أولاً في غابة بروتون. هناك ثعلب كبير، بابا وأنا شاهدناه "

* * *

عندما انفردا بنفسيهما، قال جوك، " إنَّ قدومك إلى هنا أمر مُبهِج. ما رأيك بتوني؟ "

" هل هو متزوج من المرأة الجميلة التي رأيناها في كافيه دو باري؟"

" نعم "

" التي قلتَ إنها تحب ذلك الشاب؟ "

" نعم "

" سلوك غريب منها... ماذا قلتَ اسم هذا من جديد؟ "

" توني لاست. إنه منزل مُخيف حقاً، أليس كذلك؟ "

" أهو كذلك؟ أنا لا ألاحظ المنازل أبداً "

كانت ضيفة من السهل تسليتها. وبعد العشاء في يوم الاثنين أخرجت أربع مجموعات من ورق اللعب ووزّعتها على طاولة غرفة التدخين لتلعب وحدها بتأنٍ، وتنشغل بها طوال الأمسية. قالت " لا تنتظروني، سوف أبقى هنا إلى أنْ تحل المسألة. إنها في الغالب تستغرق عدة ساعات "

بيّنوا لها أين تُطفأ الأنوار وتركوها للعبتها.

في اليوم التالي قال جون " هل لديك خنازير في المزرعة؟ "

" نعم "

" هل تمانع في أنْ أراها؟ "

" أبداً - ولكن لماذا؟ "

" وهل هناك مَنْ يعتني بها، ويستطيع أنْ يشرح لي عنها؟ "

" نعم "

" حسن، أعتقد أني سأقضي فترة الصباح معه. يجب أنْ ألقي خطاباً عن الخنازير، في وقتٍ قريب جداً "

لم يروا السيدة راتري حتى وقت الغداء. افترضَ توني أنها نائمة إلى أنْ ظهرتْ برداء العمال من الغرفة الصباحية. وشرحَتْ قائلة " لقد نزلتُ باكراً، ووجدت الرجال العاملين يقشرون السقف. ولم أقوَ على مقاومة الانضمام إليهم. آمل ألاّ تُمانعوا في ذلك "

في فترة بعد الظهر ذهبوا إلى إسطبلات مجاورة للعربات بحثاً عن أجراء. وبعد شرب الشاي كتبَ توني لبريندا، وكان خلال الأسابيع الأخيرة القليلة قد تعوَّدَ على الكتابة :

" كم كانت عطلة نهاية الأسبوع ممتعة [هكذا كتب]. ألف شكر لك على عذوبتك. أتمنى لو تأتين في نهاية الأسبوع القادم. أو لو أنكَ استطعت أنْ تمكثي مدة أطول. لكنني أتفهَّم تماماً.

إنَّ الشقراء الوقحة ليست على الإطلاق كما توقعنا - إنها شديدة الهدوء والنأي. لا تتناسب أبداً مع ذوق جوك الاعتيادي. أنا واثق من أنه لا فكرة لديها عن مكان وجودها أو عن اسمي.

العمل في الغرفة النهارية يسير على ما يُرام. وأخبرني كبير العمال اليوم أنه اعتقد أنه سيبدأ بألواح الكروم مع نهاية الأسبوع. وأنت تعرفين رأيي من هذا.

إنَّ جون لا يتحدث إلا عن اشتراكه في رحلة الصيد غداً. آمل ألاّ يدقّ عنقه. وجوك وشقراؤه الوقحة سيشتركان أيضاً "

كانت هيتون تقع على حواف ثلاث مجموعات من كلاب الصيد، وكان آل بيغستانتون، الذين استخدموها في الصيد، في جزء من المنطقة، قد فازوا بأسوأ ريف وطالما كرهوا بعض الغابات المجاورة لبيتون. كانوا جماعة نكدة، يحتقر كل منهم أداء الآخر، وعدائيون تجاه الغرباء، وتمزّقهم ضغينةٌ داخلية، ولا يتّحدون إلا في كرههم لقائد الرحلة. وفي حالة الكولونيل إنش كانت كراهية الناس له، التقليدية في رحلات الصيد، غير مُستحقّة على الإطلاق، لقد كان رعديداً، غامضاً، زوّد المنطقة المجاورة برياضة ذات كُلفة شخصية عالية. هو نفسه كان نادراً ما يرى كلاب صيد وغالباً ما يُرى في جزءٍ آخر من الريف يقضمُ برفق، وهو نكد المزاج، بسكويتاً بالجوز والزنجبيل في زقاق أو يخبّ نحو آخر النهار بخُطى ثقيلة عبر الريف، وقد ضلَّ طريقه، قامة قرمزية اللون أمام خلفية أرض محروثة، يُحدّق فيما حوله في الغسق الذي يزداد حلكة ويصرخ في الفلاحين طلباً للمعلومات. والمتعة الوحيدة التي استمدّها من موقعه، وهي هائلة، كانت من الإشارة إليه عَرَضاً في اجتماعات الهيئة الإدارية لشركات متنوعة يُديرها.

كانت مجموعة بيغستانتون تجتمع مرتين في الأسبوع. وفي يوم الأربعاء نادراً ما يتمّ الخوض في مجال واسع، أما اجتماع هيتون فكان شعبياً، ويُعقَد في أفضل منطقة ريفية، والأمل المعقود على كؤوس الوداع جذب العديد من العجائز المرتديات الملابس الجلدية من المجموعات المجاورة. وكان هناك تابعون جاؤوا على الأقدام وبكافة أنواع وسائل النقل، والبعض تخلّف عن الآخرين مُتحدياً، وآخرون، معروفون بصورة أو بأخرى لدى توني، احتشدوا حول طاولة المرطبات. وكان للسيد تندريل قريبة تُقيم معه، ظهرتْ ممتطية دراجة نارية.

وقفَ جون إلى جوار ثندركلاب، رصيناً متحمساً. وكان بن قد أمَّنَ مهراً قوياً، مربّع الرأس من مزرعة مجاورة، كان يأمل في أنْ يقوم بالصيد بعد أنْ يؤخذ جون إلى المنزل، ونزولاً عند تضرُّع جون الحاد حُجِزَتْ ناني داخل المنزل، بين الخادمات اللائي كانت رؤوسهن تبرز من النوافذ العليا، لم يكن ذلك أفضل أيامها. فقد فقدت أعصابها وهي تُلبسه ملابسه. " إذا كنتُ سأشهد الموت فأتوقع أنَّ الكولونيل إنش سيُرَيني إياه "

قالت ناني " لن ترى أي موت "

وقفتْ تنظر باحتقار بعينين ضيّقتين إلى المشهد الحيوي الذي يجري في الأسفل. قالت في نفسها "إنَّ كل هذا الهراء هو من صنع بن هاكيت". واستهجنت كل ما يجري، كلاب الصيد، وقائد الرحلة، والحقل، والصيادين وجامعي الكلاب، وقريبة السيد تندريل بمعطفها الجلدي، وجوك بثوب طارد الجرذان، والسيدة راتري بقبعة طويلة ومعطف بذيل، غافلة عن نظرات المشتركين، وتوني يبتسم ويُثرثر مع ضيوفه، والعجوز المجنون مع كلاب الصيد، ومُصورٍّ الصحافة، ومس ريبون الجميلة التي تعاني من مشاكل مع حصان صغير، يتبختر بانحراف على المرج، وساسة الخيل والأحصنة الثانوية، والتابعون المجهولون، المتواضعون في الخلف - كل هذا هراء من صنع بن هاكيت. قالت في نفسها " إنَّ الطفل لم يأوِ إلى السرير إلا بعد حلول الساعة الحادية عشرة ليلة أمس، لقد كان ممتلئاً بالحماسة "

سرعان ما تحركوا منطلقين نحو غابة بروتن. وكان الطريق ينحدر جنوباً مخترقاً كومبتون لاست، بمحاذاة الطريق الرئيسية على مدى نصف

ميل، ومن ثم تخترق الحقول. وكان توني قد قال " يمكنه أنْ يركب معهم حتى المكمن "

" نعم، يا سيدي، لا ضرر في بقائه قليلاً ليشاهد كيف تعمل كلاب الصيد، أليس كذلك؟ "

" كلا، لا أعتقد ذلك "

" وإذا انطلقَ عائداً إلى المنزل، فلا ضرر إذا تابعنا قليلاً، إذا التزمنا بالممرات الضيقة والبوابات، أليس كذلك، يا سيدي؟ "

" كلا، ولكن ينبغي ألاّ يبقى في الخارج أكثر من ساعة "

" لا أعتقد أنكَ تتوقع مني أنْ أوصله إلى المنزل بينما الكلاب تركض، أليس كذلك، يا سيدي؟ "

" حسن، يجب أنْ يكون في المنزل قبل حلول الساعة الواحدة "

قال " سوف أحرص على هذا، يا سيدي "، ثم وجّه كلامه إلى جون " لا تقلق، أيها الوسيم، سوف تشهد صيداً جيداً "

انتظرا حتى نهاية رتل الجياد ومن ثم خبّا برصانة خلفه. وفي إثرهما كانت السيارات، تسير بطيئة، وسط ضبابة من البخار. كان جون مقطوع الأنفاس ومُصاباً بقليل من الدوار. وكان ثندركلاب يهزّ رأسه ويتذمر من شكيمته. وحاول مرتين أنْ يهرب، مع انعطاف الحقل، ودار بجون داخل دائرة، فقال بن، " تشبّث به، يا بُني "، واقترب منه لكي يتمكّن من الإمساك بالزمام إذا بدا أنه سيفرّ. وذات مرة، وهو يهز رأسه إلى الأمام، فاجأ جون وجرّه نحو الأمام واختلّ توازنه، فقبضَ على مقدمة السرج ليثبّت نفسه وألقى نظرة شعور بالذنب على بن. " أخشى أنني أركب بشكلٍ سيء اليوم. أتعتقد أنَّ أحداً لاحظ؟ "

" لا بأس، يا بُني. لا يمكنك أنْ تركب دائمـــاً بالأسلوب المدرسي وأنت تقوم بالصيد "

خبَّ جوك والسيدة راتري جنباً إلى جنب، قالت " إنني أحب هذا الحصان السخيف ". كان تركب متباعدة الساقين وكان جلياً منذ أنْ امتطته أنها تُحسن ذلك إلى أقصى حد.

لاحظَ أفراد آل بيغستانتون هذا بامتعاضٍ ظاهر، لأنه أزعجَ آراءهم الثابتة، في حين كان أفراد فريق الصيد من المهرجين والرعاديد، كان الغرباء، ومن دون استثناء، مجانين فظّين، ويُشكّلون تهديداً خطراً على كل مَنْ يقع على مسافة ربع ميل منهم.

في منتصف الطريق إلى القرية عانت المس ريبون من مصاعب في تجاوز شاحنة خبّاز متوقفة. فقد راح حصانها يغوص ثم شبَّ على قائمتيه الخلفيتين، وهو يرتعش كله، والتفَّ حول نفسه وانزلقَ بشكلٍ مسعور على الإسفلت. فاقتربوا منها على أحصنتهم، موفّرين لعقبيه أوسع مرسى، مقطّبي الجبين بشكل يُنذر بالسوء ويهمهمون من حولها. كلهم كانوا يعرفون الحصان. وكان والد مس ريبون يحاول أنْ يبيعه طوال فترة الموسم، وانخفضَ سعره مؤخراً إلى ثمانين جنيهاً. كان جيداً في القفز أحياناً ولكنه آخر الأحصنة للركوب. فهل كان والد مس ريبون يتصوَّر حقاً أنه يُحسِّن فُرصه في بيعه بجعل مس ريبون تقوم باستعراض؟ وكان خليقاً بذلك الشحيح، والد مس ريبون، أنْ يُعرِّض عنق مس ريبون للخطر من أجل ثمانين جنيهاً. وعلى أي حال، لم يكن للمس ريبون أي صِلة بركوب أي حصان...

وسرعان ما اندفعَتْ متجاوزة إياهم عدواً، كانت متوردة الوجه

وكعكة شعرها منحرفة، مالت إلى الخلف، ساحبةً معها وزنها كله. قال جوك " هذه الفتاة لن تكون نهايتها سليمة "

لاحقاً قابلوها في المكمن. كان حصانها يتصبب عرقاً ويُزبدُ عند اللجام لكنه يأخذ قسطاً مؤقتاً من الراحة، ويحصدُ مجموعة من نبات البردي الذي ينمو في أرجاء الغابة. وكانت مس بريتون مقطوعة الأنفاس، ويداها ترتجفان وهي تعبث بالخِمار، وبكعكة شعرها وبقبعتها السوداء المستديرة، واقترب جون بحصانه إلى جوار حصان جوك.

" ما الذي يحدث، مستر غرانت-منزيس؟ "

" إنَّ كلاب الصيد تنبش المكمن "

" أوه "

" هل تستمتع؟ "

" أوه، نعم. وثندركلاب نشط جداً. لم أره هكذا من قبل "

كان هناك توقفٌ طويل بعد أنْ أُطلقَ النفير في قلب الغابة. وقف الجميع في زاوية من الحقل الواسع، بالقرب من إحدى البوابات. حين أقول الجميع، أعني، باستثناء مس ريبون، التي كانت قبل بضع دقائق قد اختفت فجأةً، في وسط الكلام، بأقصى سرعة حصانها باتجاه هيتون هيلز. وبعد نصف ساعة قال جوك " إنهم يدعون كلاب الصيد إلى التوقف "

" هل هذا يعني أنَّ المكمن فارغ؟ "

" أخشى أنَّ هذا صحيح "

قال بن " أكره أنْ يحدثَ هذا في غابتنا. إنه يُسيء إلينا "

في الواقع كان آل بيغستانتون قد بدؤوا ينسون حُسن ضيافتهم

ويسألُ أحدهم الآخر ماذا يمكن للمرء أنْ يتوقع حين لا يقوم لاست نفسه بالصيد، وينشرون تقارير متشائمة عن أنَّ أحد الحرّاس لاحظَ أنَّ لاست كان في الأسبوع الفائت يشتري شيئاً في وقتٍ متأخر من المساء.

وتحركوا من جديد، بعيداً عن هيتون. بدأ بن يشعر بمسؤوليته.

"أتعتقد أنَّ عليّ أنْ أعود بالسيد الصغير إلى المنزل، يا سيدي؟ "

" ماذا يقول السيد لاست؟ "

" قال إنه يستطيع أنْ يصل حتى المكمن. ولم يقُلْ أي واحد، ياسيدي "

" أخشى أنَّه يبدو أنَّ عليه أنْ يعود إلى المنزل "

" أوه، سيد منزيس! "

" نعم، هيا بنا، سيد جون. يكفي هذا اليوم "

" لكنني لم أكتفِ "

" إذا عدت في الوقت المناسب سيكون والدك راغباً أكثر في أنْ يدعك تخرج في يومٍ آخر "

" ولكن قد لا يكون هناك يومٌ آخر. قد ينتهي العالم. أرجوك، يا بن. أرجوك، سيد منزيس "

قال بن " من المؤسف أنهم لم يعثروا على شيء. لقد كان يصبو إلى هذا "

قال جوك " ومع ذلك، أعتقد أنَّ السيد لاست يرغب في أنْ يعود أدراجه "

وهكذا تمَّ تقرير مصير جون، واتجهت كلاب الصيد في اتجاه، وذهبَ هو وبن في اتجاهٍ آخر. كادت دموع جون تطفر حين وصلا إلى الطريق الرئيسية.

قال بن، يشجّعه " انظر، ها هي مس ريبون على صهوة ذلك الفرس الكميت. وكأنها هي أيضاً عائدة. ويبدو من منظرها أنها قد سقطت "

كانت قبعة مس ريبون وظهرها مغطيين بالوحل والطحلب. كانت قد مرَّتْ بعشرين دقيقة سيئة بعد اختفائها. قالت " سأعيده. لا أستطيع أنْ أفعل أي شيءٍ معه في هذا الصباح ". وأخذت تسير بتؤدة إلى جانبهما باتجاه القرية. فكَّرتُ أنَّ السيد لاست ربما يسمح لي أنْ أدخل منزله وأجري اتصالاً هاتفياً لأطلبَ سيارة أجرة "، ثم أضافتْ بولاء، " لا أفهم ما الذي ألمَّ به لقد خرج في يوم السبت. لم أره هكذا من قبل "

قال بن " إنه يريد أنْ يمتطيه رجل "

قالت مس ريبون، وقد قرصها هذا القول الطائش، " أوه، إنَّ حاله ليس أفضل مع سائس، وبابا لا يقترب منه. على الأقلّ... أعني... لا أعتقد أنَّ أحداً سيعامله بشكلٍ أفضل وهو في هذه الحالة "

في تلك الأثناء كان قد هدأ، وحافظَ على وقع خطوه مع الآخرين. وساروا جنباً إلى جنب، هي على الجانب ومهر جون بينها وبين بن.

ثم حدث ما يلي : وصلوا إلى منعطف على الطريق وإذا بهم وجهاً لوجه مع حافلة ريفية من طابق واحد تُغطي تلك الناحية. لم تكن مُسرعة، وعندما شاهد السائق الجياد أبطأ أكثر والتزم بجانب الطريق. وكانت قريبة السيد تندريل، التي نالها اليأس من التريُّض في ذلك اليوم، تبتعد مسافة قصيرة خلفهم على متن دراجتها النارية، هي أيضاً أبطأتْ، وعندما لاحظَتْ أنَّ حصان مس ريبون يمكن أنْ يُصبح صعب المراس، توقَّفتْ.

قال بن " دعيني أمرّ أولاً. وهو سيتبعني. لا تشدي بقسوة على لجامه واكتفي بالربت عليه "

فعلَتْ مس ريبون كما أمرها، وفي الواقع تصرَّف الجميع بكياسة تامة.

تقدموا بمحاذاة الحافلة. ولم يعجب هذا حصان مس ريبون، لكنه بدا أنه سيمر. وراح المسافرون يراقبون بسرور. وفي تلك اللحظة أطلقَت الدراجة النارية، المنطلقة بسرعة معتدلة، انفجاراً حاداً نحو الخلف داخل الأسطوانة.

تجمَّدَ حصان مس ريبون برهة من فرط الرعب، ثم، حين شعر بالتهديد الذي يكتنفه من الأمام والخلف، قام بما كان طبيعياً بالنسبة إليه ونفرَ بانحراف، واندفعَ بقوة ضارباً المهر المجاور له. دُفِعَ جون عن السرج وسقطَ على الطريق بينما استمرَّ فرس مس ريبون، متراجعاً ومُنزلقاً، في الابتعاد عن الحافلة.

صرخَ بن " الجِمِيه، يا مس. استخدمي سوطك "

" لقد سقط الصبي "

ضربته وللمَ الحصان نفسه وانطلقَ بقوة نحو القرية، ولكن قبل أنْ يفعل ضرب بعقبه جون وقذفه إلى الخندق، وهناك استقرَّ منطوياً على نفسه، لا يُحرِّك ساكناً.

واتَّفقَ الجميع على أنَّ ذلك ليس ذنب أحد.

* * *

مرَّت ما يُقارب الساعة قبل أنْ يصل النبأ إلى جوك والسيدة راتري حيث كانوا ينتظرون بجوار مكمنٍ فارغ آخر. توقَّفَ الكولونيل عن الصيد باقي النهار وأعاد كلاب الصيد إلى وِجارها. وسكتت الأصوات التي كانت قبل ذلك بخمس دقائق، تُعلنُ أنهم متأكدون من أنَّ لاست قد

أصد أوامره بإطلاق النار على كل ثعلب في المكان. ولاحقاً، بعد أنْ استحمّوا، استعاضوا عن ذلك بانتقاد والد مس ريبون، ولكن في تلك اللحظة كان الجميع مصدومين وصامتين. وأعار أحدهم سيارة لجوك والسيدة راتري لتوصلهم إلى المنزل، وسائساً ليؤمّن الأجراء.

وداخل السيارة المستعارة قال جوك " إنه أشدّ ما شهدت بثاً للرعب. ماذا سنقول لتوني؟ "

قالت السيدة راتري " أنا آخر مَن يُعتَمَد عليهم في مناسبةٍ كهذه "

مراً من أمام مسرح الحادثة، كان لا يزال هناك أناسٌ في المكان، يتحدثون.

كان هناك أناس موزَّعون في المكان، يتحدثون في قاعة المنزل. كان الطبيب يُزرِّرُ معطفه، ويوشك على الرحيل.

قال " لقد قُتِلَ على الفور. نال ضربة قاضية على الجمجمة. أمرٌ مُحزن جداً، كنتُ شديد الولع بالصبي. ومع ذلك، لا أحد يُلام "

كانت ناني هناك تبكي، وأيضاً السيد تندريل وقريبته، وساعد رجلٌ من الشرطة وبن ورجلان في إخراج الصبي، كانوا في قاعة الخدم.

قال بن " لم تكن غلطة الصبي "

قالوا " لم تكن غلطة أحد "

قال بن " لقد كان يومه الأسوأ، أيضاً، ابن الحرام المسكين "

" إذا كان لابد من وضع اللوم على أحد فإنَّ السيد غرانت-منزيس قد دفعه إلى الذهاب "

قالوا " لم تكن غلطة أحد "

* * *

كان توني وحده في غرفة المكتب. أول ما قاله، حين دخل عليه جوك، كان " يجب أنْ نُخبر بريندا "

" أتعلم أين تجدها ؟ "

" لعلها في تلك المدرسة... ولكن لا يمكن لنا أنْ نبلّغها عبر الهاتف... مهما يكن، لقد اتّصلَ أمبروز بها هناك وفي الشقة لكنه لم يجدها... فماذا سنفعل بحق السماء لنبلّغها ؟ "

صمت جوك. وقف أمام موقد النار ويداه في جيبيّ بنطاله القصير، وظهره لتوني. وسرعان ما قال توني " " ألم تكن قريباً من المكان؟ "

" كلا، كنا قد انتقلنا إلى مكمن آخر "

" كانت ابنة أخت السيد تندريل أول مَنْ أخبرني... ثم قابلناهم وهم آتون، وأخبرني بن بكل ما حدث... كان الأثر على الفتاة فظيعاً "

" مس ريبون؟ "

" نعم، لقد غادرتْ... وهي أيضاً سقطت سقوطاً مؤلماً، بعدها مباشرة. لقد انزلقَ حصانها في القرية... كانت في حالة رهيبة، المسكينة، بسبب هذا وما حدث... لجون. لم تعرف أنها آذته إلا بعد ذلك بوقت طويل... كانت في الصيدلية لتضع ضمادة على رأسها، حين أخبروها بالأمر. وانهارت، وكانت في حالة يُرثى لها. وأعدتُها بالسيارة... لم تكن غلطتها "

" كلا، لم تكن غلطة أحد. إنه قضاء وقدر "

قال توني " هذا صحيح، إنه قضاء وقدر... كيف سنبلّغ بريندا؟ "

" على أحدنا أنْ يصعد إلى أعلى "

" نعم... أعتقد أني سأبقى هنا. لا أعلم لماذا، ولكن ستكون هناك أمور أقوم بها. وليس من اللائق أنْ أطلب من أحد أنْ يقوم بها... "

قال جوك " أنا سأذهب "

" هناك أمور يجب العناية بها هناك... ويقول الطبيب إنه يجب أنْ يجرى تحقيق. إنه أمر روتيني، طبعاً، لكنَّ أثره سيكون مُريعاً على الفتاة ريبون. ستُضطر إلى تقديم شهادتها... لقد كانت في حالة فظيعة. آمل أنني عاملتها بلطف. لقد أحضروا جون تواً وكنتُ مُشوَّشاً. وبدت في حالة رهيبة. أعتقد أنَّ والدها يُعاملها بشكلٍ سيء... ليت بريندا كانت هنا. إنها بارعة جداً في التعامل مع الجميع. إنني مُشوَّش "

وقف الرجلان يرين عليهما الصمت. قال توني " أتستطيع حقاً أنْ تذهب إلى بريندا ؟ "

قال جوك " نعم، سأذهب "

وسرعان ما دخلتْ السيدة راتري. قالت " الكولونيل كان هنا، وتحدثتُ معه. أراد أنْ يقدم لك تعازيه "

" ألا يزال هنا ؟ "

" كلا، أخبرته أنكَّ ربما تفضِّل أن تنفرد بنفسك. لقد اعتقد أنكَ ستفرح عندما تسمع أنه قد أوقفَ رحلة الصيد "

" لطفٌ منه أنْ يأتي... هل كنتَ تقضي يوماً ممتعاً؟ "

" كلا "

" أنا آسف. لقد شاهدنا ثعلباً في غابة بروتون في الأسبوع الفائت. جون وأنا... جوك ذاهب إلى لندن ليُحضر بريندا "

" سأوصله بالحوامة. هكذا أسرع "

" نعم، سيصل هكذا أسرع "

" سأذهب الآن لأبدِّل ملابسي. لن أغيب أكثر من عشر دقائق "

قال جوك " أنا أيضاً سأبدِّل ملابسي "

حين أصبح وحده رنَّ توني الجرس. فأجابه خادم شاب، كان صغيراً جداً ولم يكن قد وصل هيتون من زمن بعيد.

" هلاَّ أبلغتَ السيد أمبروز أنَّ السيدة راتري سوف تغادر هذا اليوم. سوف تطير مع السيد غرانت-منزيس. وسيادتها قد تصل بالقطار هذا المساء "

" حاضر، يا سيدي "

" يُستحسن أنْ يتناولوا الغداء قبل أنْ يرحلوا. سوف أتناول الطعام معهم... وهلاَّ اتصلتَ هاتفياً بالكولونيل إنش وشكرته على مجيئه؟ قُل له إنني سأكاتبه، وبمنزل السيد ريبون لتسأل عن حالة مس ريبون؟ وبمقر القس لتسأل السيد تندريل إنْ كان في استطاعتي أنْ أقابله هذا المساء؟ ألم يصل إلى هنا بعد؟ "

" كلا، يا سيدي، لقد غادر قبل بضع دقائق "

" أبلغه بأني يجب أنْ أناقش الترتيبات معه "

" حاضر، سيدي "

كان السيد لاست يتعامل بواقعية مع كل شيء، هكذا علَّقَ الخادم لاحقاً.

كان الجو شديد السكون في غرفة المكتبة، ذلك أنَّ العمال الذين كانوا يعملون في الغرفة الصباحية قعدوا عن العمل في ذلك اليوم.

كانت السيدة راتري أول المستعدين.

" لقد بدؤوا للتو تناول طعام الغداء "

قالت " لن نتناول أي شيء. لقد نسيتَ أننا كنا ذاهبين لنصطاد " قال توني " الأفضل أنْ نتناول شيئاً "، ثم أضاف " إنَّ موقف جوك

مُحرج، لأنه مضطر أنْ يبلّغ بريندا. أتساءل كم سيستغرق منها الوصول إلى هنا "

كان في صوت توني شيء وهو يقول هذا دفعَ السيدة راتري إلى سؤاله، " ماذا ستفعل وأنتَ تنتظر؟ "

" لا أعلم. أعتقد أنه ستكون أمامي أمور أؤديها "

قالت السيدة راتري " أنظر هنا، يُستحسن أنْ يُسافر جوك بالسيارة. وأنا سأبقى هنا إلى أنْ تأتي الليدي بريندا "

" سيكون الوضع قاسياً عليك "

" كلا، سأبقى "

قال توني " أعتقد أنَّ سُخفاً مني، ولكن أتمنى منكِ أنْ... أعني، ألنْ يكون الموقف قاسياً عليك إنني في حال يُرثى لها. ومِن الصعب أن أصدّق حتى الآن أنَّ ما وقع قد وقع "

" لقد وقع حتماً "

جاء الخادم ليقول إنَّ السيد تندريل سوف يتصل بعد شرب الشاي في ذلك اليوم، وأنَّ مس ريبون قد أوتْ من فورها إلى السرير ونامت.

قال توني " سوف يُسافر السيد غرانت-منزيس بسيارته. قد يعود هذه الليلة. والسيدة راتري سوف تنتظر حتى وصول سيادتها "

" حاضر، يا سيدي. وأراد الكولونيل إنش أنْ يعرف إنْ كنتَ ترغب في أنْ يعزف نافخو الأبواق لحن " لقد ووريَ الثرى " في الجُنازة "

" قُلْ له إني سأكاتبه بهذا الشأن "، وبعد أنْ غادر الخادم الغرفة، قال توني " ما أشنعه من اقتراح "

" أوه، لا أدري. إنه توّاق لتقديم يد المساعدة "

" إنهم لا يحبونه كثيراً كقائد لرحلة الصيد "

غـادرَ جوك بعـد السـاعـة الثـانيـة والنصف مبـاشـرة. تـناول توني مع السيدة راتري القهوة في غرفة المكتب.

قـال توني " أخشى أنَّ هذا الوضع شـديد الصـعوبة. أصـلاً نحن نكاد لا يعرف أحدنا الآخر "

" لا داعي للتفكير في هذا "

" ولكن لا بد أنَّ الأمر صعب عليك "

" وأنت يجب أنْ تكفّ عن التفكير هكذا "

" سأحاول... السـخيف في الأمـر أنني لا أفكر فـيه، أنا فقط أقـول هذا... إنني لا أني أفكّر في أشياء أخرى طوال الوقت "

" أعلم. لستَ مضطراً إلى قول أي شيْ "

وفي الحال قـال توني " سيكون الأمـر أسوأ بالنسـبة إلى بريندا. في الواقع ليس لـهـا أحد غـيـر جون. أنا لديَّ هي، وأنا أحب المنزل... ولكن بالنسبة إلى بريندا كان جون يقع في المرتبة الأولى... وهذا طبيعي... ثم إنكِ تعلمين أنـها لم تـكن ترى جون كثيـراً في الفتـرة الأخيـرة. إنها تزور لندنَ كثيراً. وأخشى أنَّ هذا سيؤلمها "

" لا أحد يعلم ما الذي يؤلم الناس "

" ولكن، في الواقع، أنا أعرفُ بريندا حق المعرفة "

-٦-

كانـت نوافذ المكتبة مشرّعة وساعة الحائط تدقّ على رأس الساعة، عـاليـاً فـوق الرؤوس بين المتقـوّسات[١٤] والنهـائيـات[١٥]، سُمِعَتْ بجلاء في

١٤ - المتقوسة : حلية ناتئة تشبه ورقات نبات متقوّسة .

١٥ - النهائية : الجزء المُدبَّب من قمة برج أو سطح مُزخرف .

الغرفة التي يسودها الهدوء. مرَّ بعض الوقت وهما صامتان. جلسَتْ السيدة راتري وظهرها نحو توني، كانت قد نشرت أوراق أربع مجموعات من ورق اللعب لتلعب لعبة مُعقَّدة على طاولة لعب الورق، وجلسَ هو أمام موقد النار، على كرسي أخذه بعد تناول طعام الغداء.

قال " الساعة الرابعة فقط؟ "

" حسبتُ أنكَ نائم "

" كلا، فقط أفكِّر... سيكون جوك قد قطع أكثر من نصف الطريق الآن، وبلغ أيلسبيرغ أو ترينغ "

" إنها طريقة بطيئة في السفر "

" إنَّ الحادث وقع قبل أقلّ من أربع ساعات فقط... غريبٌ حين أفكِّر أننا لا نزال في اليوم نفسه، وأنه منذ خمس ساعات فقط كانوا جميعاً هنا يجتمعون ويتناولون الشراب ". وسادت فترة صمت لَمَّتْ خلالها السيدة راتري الأوراق وباشرت في نشرها من جديد. " سمعت بالأمر عند الساعة الثانية عشرة وثماني عشرة دقيقة. نظرت في ساعة يدي... كانت الساعة الواحدة قبل عشر دقائق حين جلبوا جون... فقط قبل أكثر من ثلاث ساعات بقليل... شيء يكاد لا يُصدَّق، أليس كذلك، كل شيء يُصبح مُختلفاً تماماً، فجأةً ودون مقدّمات؟ "

قالت السيدة راتري " دائماً يحدث الأمر دون مقدّمات "

" ستكون بريندا هنا في غضون ساعة... إذا عثر عليها جوك. وطبعاً من الممكن جداً أنْ تكون في الخارج. ولن يعرف أين يجدها، لأنه لا أحد غيرها في الشقة. إنها تُبقيها مُقفلة، خالية، عندما تخرج... وتغيب نصف النهار. أنا أعرف هذا لأنني أحياناً أتصل بها هاتفياً ولا

أحصل على جواب. وقد لا يجدها قبل مرور ساعات... وقد يمر وقت يساوي الوقت الذي مضى على وقوع الحادث. والمجموع سيبلغ ثماني ساعات. ومن المُحتَمَل كثيراً ألاّ تعود قبل الساعة الثامنة... فكّري في هذا، كل ذلك الوقت ما بين الآن ولحظة وقوع الحادث قد مرّ، وبريندا لم تسمع بالأمر. لا يكاد يُصدَّق، أليس كذلك؟ ثم عليها أنْ تصل إلى هنا. هناك قطار يغادر عند الساعة التاسعة ونيّف. ويمكنها أنْ تلحق به. أتساءل إنْ كان ينبغي عليَّ أنْ أذهب أنا أيضاً... لم أرُد أنْ أترك جون "

(جلست السيدة راتري منتبهة للعبتها، تُحرِّك مجموعة صغيرة من الأوراق ببراعة إلى الخلف والأمام حول الطاولة كمكّوك عبر النول، وتحت أصابعها تحولت الفوضى إلى نظام، وأسَّست سلسلة متتابعة وأسبقيّة، وأضحت الرموز أمامها متناغمة، مترابطة)

"... طبعاً يمكن أنْ تكون في المنزل حين يصل. في تلك الحالة يمكنها أنْ تلحق بقطار المساء التي تعوَّدت دائماً أنْ تستقلّه، حين كانت تذهب إلى لندن لقضاء يوم، قبل أنْ تحصل على شقّة... إنني أحاول أنْ أنظر إلى الأمر من كافة جوانبه، كما سيحدث، جوك يأتي ويُفاجئها برؤيته، ومن ثم ينقل الخبر إليها... الأمر صعب على جوك... قد تعرف بحلول الساعة الخامسة والنصف أو قبل ذلك بقليل "

قالت السيدة راتري " من المؤسف أنك لا تلعب هذه اللعبة "

" بصورةٍ ما سأكون أسعد حالاً حين تعرف بالأمر... يبدو كل شيء خطأً كما هو في الوقت الحاضر، وأنا أحتفظ به كسرٍ لا تعلم بريندا عنه أي شيء... لستُ متأكداً كيف ترتّب يومها. أعتقد أنَّ آخر محاضرة لها تنتهي عند الساعة الخامسة... وأتساءل إنْ كانت تتوجه إلى المنزل أولاً

لتبدِّل ملابسها إذا رغبت في الخروج لتشرب الشاي أو كوكتيل. إنها لا تستطيع أنْ تجلس في الشقة طويلاً، إنها صغيرة جداً "

أخذتْ السيدة راتري تتأمل في منظومة أوراق اللعب ومن ثم جرّتهم نحوها على شكل كومة، كيفما اتفق مرة أخرى ودون معنى، وكانت قد اقتربت من إيجاد حل في ذلك الوقت، لولا ستة ديناري في غير محلّها، وبقعة صغيرة مُكتظة بشكلٍ عنيد في إحدى الزوايا، حيث لا مجال للتحرُك. قالت " إنها لعبة تُحطِّم القلب "

دقّتْ الساعة من جديد.

" ألم يمر إلا ربع ساعة؟... في الواقع، لو كنتُ وحدي لفقدتُ عقلي. لطفٌ منكِ أنْ تمكثي معي "

" هل تلعب البيزيك؟ "

" أخشى أنْ لا "

" أو البيكيت؟ "

" كلا. لم تسنح لي الفرصة أبداً لتعلُّم أيٍ من ألعاب الورق إلا عضّة الحيوان "

" خسارة "

" هناك مارجوري وعدد من الأشخاص يجب أنْ أبرق إليهم، لكني أفضّل أنْ أنتظر إلى أنْ أتأكّد من أنَّ جوك قد قابل بريندا. لنفرض أنها كانت مع مارجوري عندما تصلها البرقية "

" يجب أنْ تحاول وتكفَّ عن التفكير في الأشياء. هل تُحسِنُ قذف الكرابس؟ "

" كلا "

" إنه سهل، سأريك. نستخدم نرد لعبة الطاولة "

" أنا على ما يُرام، حقاً. سوف ينال مني الضجر سريعاً "

" تأخذ النرد وتجلس هنا عند الطاولة. ما زال أمامنا ست ساعات لنبدّدها "

بيَّنَتْ له كيف يرميها. قال " رأيتهم يلعبونها في السينما - حمّالو الحافلات وسائقو سيارات الأجرة "

" طبعاً شاهدتهم، إنها سهلة... ها أنتَ قد فزت، أخذت كل شيء "

قال توني فوراً " أنا فقط فكَّرتُ في شيءٍ آخر "

" ألا تُريح نفسك أبداً من التفكير؟ "

" لنفرض أنَّ صحف المساء عرفت بالأمر. وربما رأتْ بريندا الخبر معلَّقاً، أو فقط التقطت إحدى الصُحف عَرَضاً ورأته... ربما مع صورة "

" نعم، لقد خطر لي هذا الآن، عندما كنتَ تتكلَّم عن إرسال برقية "

" ولكن هذا مُحتَمَل، أليس كذلك؟ إنهم يعرفون كل شيء بسرعة كبيرة. فماذا يسعنا أنْ نفعل؟ "

" ليس في وسعنا أنْ نفعل أي شيء. علينا فقط أنْ ننتظر... هيا، ارمِ "

" لم أعد أريد أنْ ألعب. أنا قلِق "

" أعلم أنكَ قلِق. لا داعي لأنْ تخبرني... لا يمكن أنْ تتوقف عن اللعب في الوقت الذي بدأ الحظ يجري باتجاهك؟ "

" أنا آسف... لن يُفيد "

أخذ يمشي في أرجاء الغرفة، أولاً إلى النافذة، ثم انتقلَ إلى موقد النار. وبدأ يملأ غليونه. " على الأقلّ نستطيع أنْ نعرف إنْ كانت صحف

المساء قد حصلتْ على الخبر. نستطيع أنْ نتصل هاتفياً بالنادي ونسأل مُستخدم القاعة "

" إنَّ هذا لن يمنع زوجتك من قراءته. ليس أمامنا إلا أنْ ننتظر. ما هي اللعبة التي قلت إنكَ تعرفها؟ الشيء الحيواني؟ "

" العضّ "

" سأشتريها "

" إنها مجرد لعبة للأطفال. واشتراك اثنين فيها أمر سخيف "

" أرني "

" حسنٌ، يختار كلٌ منا حيواناً "

" حسن، أنا كلب وأنتَ دجاجة. وماذا بعد؟ "

شرح لها توني.

قالت السيدة راتري " أنا أقول إنها إحدى الألعاب التي عليك أنْ تشعر أنكَ جيد فيها في أول الأمر، قبل أنْ تستمتع بها. لكنني سأجرّب في كل الأحوال "

أخذ كل منهما مجموعة من أوراق اللعب وبدأا اللعب. وسرعان ما ظهرت ورقتان من فئة الثماني. قالت السيدة راتري " باو-واو "، وهي تلملم الأوراق.

ثم زوج آخر، وقالت السيدة راتري " باو-واو. أنتَ تعلم أنكَ لا تلعب بحماس "

قال توني " أوه، كووب-كووب-كووب "

وعاد فوراً وقال " كووب-كووب-كووب "

قالت السيدة راتري " لا تكن أبله، هذه ليست زوجاً... "

حين دخل ألبرت ليرفع الستائر كانا لا يزالان يلعبان. لم يكن توني يملك أكثر من ورقتين كان يقلبهما بانتظام، واضطرّت السيدة راتري إلى تجزيء أوراقها، لأنها كانت أكثر من قدرتها على حملها.. وكفّا عن اللعب عندما لاحظا أنَّ ألبرت موجود في الغرفة.

قال توني، بعد أنْ خرج، " ماذا سيظن ذلك الرجل؟ "

(نقلَ ألبرت قائلاً " إنه جالس هناك يُقوِّق كالدجاجة، والصغير جثة هامدة في الطابق العلوي ")

" يُستحسن أنْ نتوقف "

" لم تكن لعبة جيدة جداً. والمضحك أنكَ لا تعرف غيرها "

جمعتْ الأوراق وبدأت ترتبها في نسقها المعتاد. جلبَ أمبروز وألبرت الشاي. نظر توني في ساعة يده " إنها الخامسة. والآن بعد إغلاق المصاريع لن نسمع النواقيس. لابد أنَّ جوك قد وصل الآن إلى لندن "

قالت السيدة راتري " لديَّ رغبة في شرب الويسكي "

* * *

لم يعثر جوك على شقة بريندا. كانت موجودة في منزل كبير، بلا ملامح، ككل المنازل في المنطقة. وأبدت السيدة بيفر استهجانها للمساحة المهدورة بمطلع الدرَج، والقاعة الخالية، المرصوفة. لم يكن هناك خادم، وكانت امرأة تأتي في صباح ثلاثة أيام في الأسبوع مع دلو وممسحة. وهناك لوحة مخطوط عليها أسماء النزلاء بيَّنت لجوك أنَّ بريندا موجودة في الداخل. لكنه لم يثق في تلك المعلومة، لإدراكه أنَّ بريندا ليست من النوع الذي يتذكَّر، أثناء دخولها وخروجها، تبديل لوحة

التسجيل. وجدَ باب شقَّتها في الطابق الثاني. وبعد مطلع الدَرَج الأول تغيَّر الدَرَج من الرخام إلى سجادة باهتة اللون كانت موجودة هناك قبل أنْ تتولى السيدة بيفر أمر إعادة البناء. ضغط جوك على زر الجرس وسمعه يرنّ مباشرةً على الجانب الداخلي من الباب. لم يأتِ أحد ليفتحه. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بخمس دقائق، ولم يكن جوك يتوقَّع أنْ يجد بريندا في المنزل. كان قد قرَّر وهو في الشارع أنه بعد أنَّ يُجرِّب الشقة، سوف يقصد ناديه ويتصل هاتفياً بعدد من أصدقاء بريندا الذين ربما يعرفون مكان تواجدها. ورنَّ الجرس من جديد، بدافع العادة، وانتظر قليلاً، ثم استدار ليرحل. ولكن في تلك اللحظة فُتِحَ الباب المجاور لباب شقة بريندا وأطلَّتْ عليه منه امرأةٌ سمراء قاتمة ترتدي ثوباً قرمزي اللون، وتضع قرطاً كبيراً جداً بتخريمٍ شرقي، مُرصَّعٍ بسُررٍ من حجرٍ مُعتم، لا قيمة له.

" هل تبحث عن الليدي بريندا لاست؟ "

" نعم، أهي صديقة لكِ؟ "

قالت الأميرة عبد الأكبر " أوه، وأي صديقة "

" إذن لعلَّ في استطاعتكِ أن تدلينا على مكان تواجدها ؟ "

" أعتقد أنَّ من المُحتَمل أَنْ تكون عند الليدي كوكبيرس. أنا نفسي ذاهبة إلى هناك. هل أوصل إليها أي رسالة؟ "

" الأفضل أنْ أذهب وأقابلها "

" حسن، انتظر خمس دقائق وسأرافقك. تعال إلى الداخل "

كانت غرفة الأميرة الوحيدة مفروشة بشكلٍ مُشوَّش وبإهمالٍ شرقي للخصائص الصحيحة للأشياء، سيوف خليقة بأنْ تزيِّن الأردية الفخمة لـ

caid مغربي مُعلَّقة من مشجب الصورة، وحصائر للصلاة ممدودة على الديوان، وسجادة على الأرض صُنِعَتْ في بُخارى لتغطي الجدار، بينما تدلَّى فوق طاولة الزينة شال صُنِعَ في يوكوهاما لكي يُباع لهواة السَفَر، وطاولة ثُمانية الشكل من بورسعيد عليها تمثال لبوذا التيبتي من حجر الصابون، وستة تماثيل من العاج من بومباي صُفَّتْ على طول أعلى المِشعاع. وكانت ثقافات أخرى، أيضاً، مُمثَّلة بمجموعة من قنانٍ من زجاج اللاليك المُزخرَف وعلب البودرة، وصنم بدائي يشبه قضيب الذكر من السنيغال، وطاس هولندي من النحاس، وسلة مهملات للورق مصنوعة من صفائح نحاسية باهتة نُحِتت بالحفر المائي، ودمية سوداء قبيحة ذات شعر كثيف منتصب قُدِّمتْ لها في حفل عشاء أُقيمَ في فندقٍ على شاطئ البحر، ومجموعة من الصور الفوتوغرافية المؤطَّرة للأميرة، ومشهد لحديقة رُكِّبَ ببراعة من قِطع ملونة من الخشب، وجهاز راديو من خشب الزان المُدخَّن، بالأسلوب التيودوري. وجودها في غرفة شديدة الصِغر كان له أثر مُدمِّر. جلستْ الأميرة على طاولة الزينة . وجلس جوك خلفها على الديوان.

" ما اسمكَ؟ " سألته مباشرة . فأخبرها. " أوه نعم، لقد سمعتهم يأتون على ذِكرك. لقد كنتُ في هيتون في نهاية الأسبوع قبل السابق... يا له من مكان عتيق وطريف "

" يُستحسَن أنْ أخبركِ. لقد وقع حادث رهيب هناك في صباح هذا اليوم "

دارت جيني عبد الأكبر حول نفسها على كرسي الجلد الخالي من الظهر، واتَّسعَتْ عيناها من الرعب، وضغطَتْ يدها على قلبها.

همسَتْ " أسرِع، أخبرني. لا أقوى على التحمُّل. أهو موت؟
أومأ جوك برأسه إيجاباً. " ولدهم الصغير... رفسه حصان "
" جيمي الصغير "
" جون "
" جون... مات. يا للفظاعة "
" لم تكن غلطة أحد "

قالت جيني " أوه نعم، بل كانت كذلك. كانت غلطتي. ما كان ينبغي أنْ أذهب إلى هناك... هناك لعنة تخيِّمُ فوقي. حيثما أذهب لا أجلب إلا الحزن... ليتني كنتُ أنا الميتة... لن أستطيع أنْ أواجههم بعد اليوم. أشعر كأني قاتلة... لقد انطفأتْ تلك الحياة الصغيرة الشجاعة "

" في رأيي، في الواقع، لو كنتُ مكانك لما اتخذت هذا المسار في التفكير "

قالت جيني عبد الأكبر " إنها ليست المرة الأولى التي يحدث فيها هذا... بل دائماً، وفي كل مكان، إنني مُستهدفة... دون ندم. أوه، يا إلهي، ما الذي ارتكبته حتى أستحق هذا العقاب؟ "

نهضَتْ لتغادره، لم يكن هناك من مكانٍ آخر تلجأ إليه غير غرفة الحمّام. قال جوك، من خلال الباب، " حسن، يجب أنْ أذهب الآن إلى منزل بولي لأقابل بريندا "

" انتظر دقيقة، أنا قادمة أيضاً ". كانت قد أشرقَتْ قليلاً حين ظهرت. سألته "هل لديك سيارة هنا، أم أطلب سيارة أجرة عبر الهاتف؟"

* * *

بعد تناول الشاي اتصل السيد تندريل. قابله توني في غرفة مكتبه

وغاب مدة نصف ساعة. وعندما عاد اتجه نحو الصينية، التي تُرِكَتْ، بتوجيه من السيدة راتري، في المكتبة ، وصبَّ لنفسه كأساً من الويسكي وجِعة الزنجبيل. كانت السيدة راتري قد استأنفت لعبها بالورق. سألته، دون أنْ ترفع بصرها ، " أكان حِواراً سيئاً؟ "

" كان فظيعاً! " وشرب الويسكي على عَجَل وصبَّ المزيد.

" هل لك أنْ تُحضِّر لي كأساً؟ "

قال توني " أردتُ فقط أنْ أقابله بشأن الترتيبات. فحاول أنْ يُواسيني. كان موقفاً مؤلماً جداً... فقبل كل شيء إنَّ آخر ما يرغب المرء في الحديث عنه في وقتٍ كهذا هو الدَين "

قالت السيدة راتري " البعض يحب ذلك "

باشر توني بالقول " طبعاً "، وبعد فترة صمت أضاف، " لماذا لم تنجبي أطفالاً - "

قالت السيدة راتري " لدي صبيّان "

" أحقاً؟ أنا آسف. لم أكن أعلم... إنَّ كلاً منا لا يعرف عن الآخر إلا القليل. كم أنا وقِح "

" لا بأس. إنَّ الناس يُفاجؤون. أنا لا أراهما غالباً. إنهما في مدرسةٍ في مكانٍ ما. أخذتهما إلى السينما في الصيف الفائت. إنهما يكبران. أعتقد أنَّ أحدهما سيصبحُ وسيماً. مثل والده "

قال توني " إنها السادسة وربع. سيكون الآن قد أخبرها "

* * *

كان في منزل ليدي كوكسبيرس جمعٌ صغير، فيرونيكا وديزي وسيبيل، وسوكي دو فوكالد-إستره ازي، وأربع أو خمس نساء أُخريات.

كنَّ هناك لاستشارة عرّافة اسمها السيدة نورثكوت. وكانت السيدة بيفر قد اكتشفتها، ومقابل كل خمسة جنيهات تكسبها من تقديمها كانت السيدة بيفر تنال جنيهين واثني عشر شلناً وست بنسات. كانت تتنبّأ بالحظ بأسلوب جديد، بقراءة أسفل القدَم. انتظرنَ أدوارهن بصبر. "منذ متى وهي مع ديزي؟ "

قالت بولي " إنها تبذل جهداً شاملاً، وهذا شيء يُبهِج "

وسرعان ما ظهرت ديزي. سألنها " كيف وجدتِها ؟ "

قالت " ينبغي ألاّ أفشي الأمر وإلا أفسدتُ كلَ شيء "

كنَّ يوزّعن أوراق اللعب من أجل الأسبقية. وجاء دور بريندا. فولجت الباب المجاور للسيدة نورثكوت، التي كانت جالسة على كرسي بغير ظهر بجوار أريكة. كانت امرأة زريّة الملابس، في منتصف العمر، مع لكنة خفيفة ولطيفة. جلستْ بريندا وخلعَت حذاءها وجوربها. وضعَت السيدة نورثكت القَدَم على رُكبتها وأخذت تُحدِّقُ إليها بجديّة صارمة، ثم رفعَتها وراحت تتقصّى الأخاديد الصغيرة في أسفل القدم مُستعينة برأس علبة قلم رصاص فضيّة. لوَتْ بريندا أصابع قدمها بترَف ثم استقرَّت وأصغَتْ.

خلف الباب المجاور قلنَ " أين السيد بيفر اليوم؟ "

" إنه يطير فوق فرنسا مع أمه لمشاهدة بعض ورق الجدران الجديد. كانت قلقة طوال النهار لاعتقادها أنه أصيبُ بحادث "

" الأَمر كله مؤثِّر، أليس كذلك؟ على الرغم من أني من ناحيتي لا أشاركه وِجهة نظره... "

قالت السيدة نورثكوت "ينبغي ألا تقومي بأي عمل في أيام الخميس"

" لا شيء؟ "

" لا شيء هامّ. أنتِ عقلانيّة، واسعة الخيال، ومتعاطفة، تنقادين وراء الآخرين بسهولة، مندفعة، مُحِبّة. وأنتِ ذوّاقة للفن ولا تستخدمين قُدُراتك استخداماً كاملاً "

" أليس هناك أي شيء عن الحب؟ "

" سآتي على ذِكر الحب. كل هذه الخطوط الممتدة من الإصبع الكبير وحتى مشط القدم تمثّل العشّاق "

" نعم، قولي المزيد عن هذا... "

أُعلِنَ عن وصول الأميرة عبد الأكبر. قالت " أين بريندا؟ فكَّرت أنها قد تكون هنا "

" السيدة نورثكوت تتنبّأ لها الآن "

" إنَّ جوك منزيس يريد أنْ يراها. إنه في الطابق السفلي "

" عزيزي جوك... لِمَ لم تُحضريه معك بحق الله؟ "

" كلا، إنه بخصوص أمر غاية في الأهمية. يجب أنْ يقابل بريندا وحدها "

" يا إلهي، شيء غامض. حسن، لقد اقترب وقت خروجها الآن. لا نستطيع أن نزعجهما. سوف تغضب السيدة نورثكوت "

نقلتْ جيني إليهنّ الخبر.

على الجانب الآخر من الباب، كانت ساق بريندا قد بدأتْ تشعر بشيءٍ من البرودة. كانت السيدة نورثكوت تقول " هناك أربعة رجال يتحكَّمون في مصيرك، واحد وفيّ ورقيق لكنه لم يبُحْ بعد بحبه، وواحد انفعاليّ ومُهيمن، وأنتِ لا تخافينه "

قالت بريندا " يا إلهي، هذا مثير جداً. ومَن هم؟ "

" واحدٌ يجب أنْ تتفاديه، لأنه لا يبشّرك بأي خير، قويّ القلب وطمّاع "

" أراهن على أنه السيد بيفر، بورك "

في الطابق السفلي كان جوك ينتظر في الغرفة الأمامية الصغيرة حيث يجتمع ضيوف بولي في المعتاد قبل تناول طعام الغداء. كانت الساعة السادسة وخمس دقائق.

سرعان ما عادت بريندا ترتدي جوربها، وتنتعل حذاءها وانضمّت إلى السيدات. وأعلنَتْ "شيء ممتع جداً. عجباً، كم يبدو منظركن غريباً"

" إنَّ جوك غرانت-منزيس يُريد أنْ يراك في الطابق السفلي "

" جوك؟ أمر غاية في الغرابة. ليس الأمر خطيراً، أليس كذلك؟ "

" يُستحسن أنْ تذهبي وتقابليه "

فجأة تولّى الخوف بريندا بسبب الجو الغريب الذي يُخيِّم على الغرفة والتعبير غير المألوف على وجوه صديقاتها. هرعت تهبط إلى الطابق السفلي إلى الغرفة التي ينتظر فيها جوك.

" ما الأمر، جوك؟ أخبرني بسرعة، أنا خائفة. لا شيء خطير، أليس كذلك؟ "

" أخشى أنه كذلك. لقد وقع حادث غاية في الخطورة "

" جون؟ "

" نعم "

" مات؟ "

هزَّ رأسه إيجاباً.

جلست على كرسي الإمبراطورية الصغير القاسي المُستند إلى الحائط، لا تحرّك ساكناً ويداها متشابكتان في حجرها، كطفلة صغيرة مؤدبة دخلتْ غرفة مملوءة بأناس بالغين. قالت " أخبرني بما حدث. لِمَ كنتَ أول مَنْ عرف؟ "

" لقد كنتُ في هيتون منذ نهاية الأسبوع "

" هيتون؟ "

" ألا تذكرين؟ كان جون ذاهباً إلى الصيد في هذا اليوم "

عبستْ، غير مستوعبة في الحال ما كان يقول. " جون... جون أندرو... أنا... أوه، شكراً لله... " ثم انفجرت بالبكاء.

بكت بعجز، وهي تلتفت حولها من مجلسها على الكرسي وتضغط جبينها على ظهره المذهّب.

في الطابق العلوي أمسكت السيدة نورثكوت سوكي فوكولد-إسترهازي من قدمها وكانت تقول " هناك أربعة رجال يتحكّمون في مصيرك. واحد وفيّ ورقيق لكنه لم يبُح بعد بحبه... "

-٧-

رنَّ جرس الهاتف كاسراً الصمت المُخيِّم على هيتون بجوار غرفة مُدبرة المنزل وحُوِّلتْ المكالمة إلى المكتبة. أجاب توني.

" جوك يتكلَّم. لقد أخبرتُ بريندا تواً. إنها قادمة في قطار الساعة الحادية عشرة.

" أهي مضطربة كثيراً؟ "

" نعم، طبعاً "

" وأين هي الآن؟ "

" إنها معي. إنني أتكلّم من منزل بولي "

" هل لي أنْ أكلّمها ؟ "

" الأفضل ألاّ تفعل "

" حسن... سوف أنتظرها عند محطة القطار. هل أنتَ قادم أيضاً؟"

" كلا "

" حسن، لقد كنتَ رائعاً. لا أدري ماذا كنتُ سأفعل من دونك ومن دون السيدة راتري "

" أوه، لا بأس. سوف أواكب بريندا حتى تسافر "

كانت قد كفّتْ عن البكاء وجلست جاثمة على الكرسي. لم ترفع بصرها أثناء تكلُّم جوك بالهاتف. ثم قالت " نعم، سوف أسافر على متن ذلك القطار "

" يجب أنْ ننطلق. أعتقد أنكِ يجب أنْ تُحضري بعض الأشياء من الشقة "

" حقيبتي... في الطابق العلوي. أحضرها أنت. لا أستطيع أنْ أصعد إلى فوق من جديد "

لم تتكلم وهي في الطريق إلى شقّتها. كانت جالسة إلى جوار جوك وهو يقود السيارة، تنظر أمامها مباشرةً. وعندما وصلا فتحت الباب بالمفتاح ودعته إلى الداخل. كانت الغرفة خالية إلى أقصى درجة من قطع الأثاث. وجلست على الكرسي الوحيد. " لا يزال هناك متسعٌ من الوقت في الواقع. أخبرني بالضبط بما حدث "

أخبرها جوك.

قالت " يا للصغير المسكين، يا للصغير المسكين "

ثم فتحت خزانتها وبدأتْ تضع بعض الأغراض في حقيبة سفر، ودخلت وخرجت من غرفة الحمّام مرةً أو مرّتين. قالت " هذا كل شيء. لا يزال هناك الكثير من الوقت "

" هل تودّين أنْ تأكلي شيئاً؟ "

" أوه كلا، لا أريد أنْ آكل شيئاً ". لم تحاول أنْ تفعل أيَّ شيء لوجهها. قالت " حين أخبرتني في المرة الأولى لم أفهم. لم أدرِ ما كنتُ أقول "

" أعلم "

" أنا لم أقُل شيئاً، أليس كذلك؟ "

" أنتِ تعلمين ماذا قلت "

"نعم، أعلم... لم أقصد... لا أعتقد أنَّ من المفيد أنْ أحاول الشرح"

قال جوك " هل أنتِ متأكدة من أنَّ لديك كل شيء؟ "

" نعم، هذا كل شيء " وأومأت برأسها باتجاه الحقيبة الصغيرة على السرير. بدت عاجزة تماماً.

" حسن، يُستحسن أنْ نذهب إلى المحطة "

" حسن. الوقت مُبكِّر. ولكن لا يهمّ "

رافقها حتى القطار. ولما كان ذلك يوم أربعاء كانت العربات مملوءة بالنساء العائدات من تبضُّع يومهنّ.

" لِمَ لا تسافرين بالدرجة الأولى؟ "

" كلا، كلا. أنا دائماً أستقل الدرجة الثالثة "

جلستْ وسط أحد الصفوف. كانت النسوة على كلا الجانبين ينظرنَ إليها بفضول، متسائلات إنْ كانت مريضة.

" ألا تريدين شيئاً تقرئينه؟ "

" لا أريد أنْ أقرأ شيئاً "

" أو تأكلينه؟ "

" أو آكله "

" إذن سأقول وداعاً "

" وداعاً "

اندفعتْ امرأةٌ أخرى من أمام جوك لتلج العربة، مُحمّلة بلفائف خفيفة.

* * *

حين شاع الخبر، قالت مارجوري لألان، " حسن، على أي حال، هذا يعني نهاية علاقتها بالسيد بيفر "

لكنَّ بولي كوكبيرس قالت لفيرونيكا " هذه نهاية توني حتى الآن بالنسبة إلى بريندا "

ذُهِلَ آل لاست المعدمون بالبرقية. واستمروا في الإقامة في مزرعة الدجاج الشاسعة وغير المُربِحة بالقرب من برينسس ريسبورو. ولم يدخل في خَلَد أيٍ منهم أنهم الآن، إذا ما حدث شيء، أصبحوا ورثة هيتون. وإذا ما تمَّ ذلك، فلن يُقلِّل ذلك من حزنهم ذرة واحدة.

قاد جوك سيارته من محطة بادنغتون إلى نادي برات. قال أحد الجالسين على البار، " حدث أمر رهيب لابن توني بلاست "

" نعم، كنتُ هناك "

" كلا، أحقاً؟ يا له من شيء رهيب "

لاحقاً وصلته رسالة عبر الهاتف : " الأميرة عبد الأكبر ترغب في معرفة ما إذا كنتَ في النادي "

قال جوك " لا، لا، قُلْ لها إني غير موجود "

-٨-

كان الاستجواب سيجري في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وانتهى سريعاً. أدلى الطبيب، وسائق الحافلة، وبن ومس ريبون بشهاداتهم. وسُمِحَ لها بالبقاء جالسة. كانت شديدة شحوب الوجه وتكلّمت بصوتٍ مرتعش، وكان والدها يحملقُ فيها من مقعدٍ قريب، وتحت قبعتها كانت هناك بقعة صغيرة جرداء، فقد حلقوا لها شعرها لينظّفوا جرحها. وفي مُلخّصه كتبَ المُحقق في أسباب الوفاة يقول إنه لا يمكن وضع اللوم على أحد فيما يخص الحادث المؤسف، ولم يبقَ أمام المحكمة إلا أنْ تعبِّر للسيد لاست والليدي بريندا عن عمق تعاطفها لخسارتهما الكبيرة. وتراجع الناس إلى الخلف ليفسحوا المجال لتوني وبريندا بمغادرة الغرفة. وكان الكولونيل إنش وسكرتير رحلة الصيد حاضرين معاً. وتمَّ كل شيء بكياسة وتعبير عن الاحترام لحزنهما.

قالت بريندا " انتظر لحظة. يجب أنْ أتحدث إلى الفتاة المسكينة ريبون "

فعلتْ ذلك بشكلٍ فاتن. وبعد أنْ رحل الجميع، قال توني "تمنيتُ لو أنكِ موجودة بالأمس. كان هناك الكثير من الناس ولم أدرِ ماذا أقول لهم"

" ماذا فعلتَ طوال النهار؟ "

" كانت هناك الشقراء الوقحة... لعبنا لعبة عضة الحيوان قليلاً "

" عضة الحيوان؟ على أي حال هل أفادك ذلك؟ "

" ليس كثيراً... غريبٌ حين أفكّر في أنه بالأمس القريب وفي مثل هذا الوقت لم يكن قد حدث شيء "

قالت بريندا " يا للصغير المسكين "

بالكاد خاطب أحدهما الآخر منذ وصول بريندا. وكان توني قد ذهب بالسيارة إلى المحطة لاستقبالها، ومع وصولهما إلى المنزل كانت السيدة راتري قد أوت إلى السرير، وفي صباح ذلك اليوم غادرتْ بطائرتها دون أنْ تقابل أياً منهما. وسمعا الآلة تمرُّ من فوق المنزل، كانت بريندا في حمّامها، وكان توني في غرفة مكتبه في الطابق السفلي يستعرض المراسلات التي أصبحت ضرورية.

كان يوماً من فترات من أشعة الشمس والريح العاصفة، والغيوم البيضاء والرمادية تكاد لا تتحرك، عالية في كبد السماء، لكنَّ الأشجار الجرداء المُحيطة بالمنزل تمايلتْ واهتزّتْ وحدثت دوّامات سريعة من التبن في فناء الإسطبل. وبدَّلَ بن بذلة يوم الأحد التي كان يرتديها أثناء الاستجواب وذهب ليقوم بواجباته. ثندركلاب أيضاً كان قد تلقّى رفسة بالأمس وأصبح يعرج قليلاً.

خلعَتْ بريندا قبعتها ووضعتها على الكرسي في الصالة. " لم يعُد هناك ما يُقال، أليس كذلك؟ "

" لا حاجة إلى الكلام "

" كلا. أعتقد أنه يجب أنْ تُقام جنازة "

" في الواقع، حتماً "

" نعم : غداً؟ "

نظرت إلى داخل الغرفة الصباحية. " لقد أنجزوا الكثير، أليس كذلك؟ "

كانت حركات بريندا كلها أبطأ من المعتاد وكان صوتها خالياً من

النبرة الخاصة والمشاعر. غاصت في إحدى الأرائك وسط الصالون، الذي لم يستخدمه أحد قط. جلستْ لا تفعل أي شيء. وضعَ توني يده على كتفها لكنها قالت " لا تفعل "، ليس بتبرُّم أو بعصبية بل دون أي انفعال. قال توني " سأذهب وأنهي تلك الرسائل "

" نعم "

" أراكِ على مائدة الغداء "

" نعم "

نهضَتْ، وتلفَّتت حولها بفتور بحثاً عن قبعتها، فوجدتها وأخذتْ ترتقي الدَرَج ببطءٍ شديد، وأشعة الشمس تتسرب متوهجة من النوافذ ذات الزجاج الملوَّن وتتلألأ في كل مكانٍ حولها.

في غرفتها جلستْ على عتبة النافذة، تطلُ عبر المروج والأرض المحروثة القاتمة، والأشجار العارية تهتز، وأبراج الكنيسة، وعواصف من الغبار وأوراق الشجر تدوِّم حول أسفل المصطبة، كانت لا تزال تمسك بقبعتها وتعبث بتململُ بأصابعها بالدبوس المُثبَّت على جانبها.

قرعت ناني الباب ودخلَتْ، محمرة العينين. "بعد إذنك، يا سيدتي، كنتُ أفتش في أغراض جون. وجدتُ هذا المنديل الذي لا يخصّه "

العطر الثقيل الرائحة والحروف الرمزية التي تتوج زاويته أعلنت عن مصدره.

" أنا أعرف مَنْ يخصّ. سأعيده إليها "

قالت ناَني " لا أعرف كيف وصلَ إلى هناك "

قالت بريندا لنفسها، بعد أنْ غادرتها ناني، " يا للصغير المسكين. يا للصغير المسكين "، وحدَّقت عبر المشهد العام المضطرب.

* * *

" أنا أفكِّر في المُهر، يا سيدي "

" أوه، نعم، بن؟ "

" هل تريد أنْ تحتفظ به الآن؟ "

" لم أفكِّر في... كلا، لا أعتقد ذلك "

" إنَّ السيد ويستماكوك في ريستال كان يسأل عنه. لقد رأى أنه يُلائم ابنته الصغيرة "

" نعم "

" كم نطلب؟ "

" أوه، لا أدري... حسب ما ترى "

" إنه مهر صغير جيد ودائماً يتلقّى معاملة جيدة. ولا أعتقد أنه يجب أنْ يُباع بأقلّ من خمسة وعشرين جنيهاً، يا سيدي "

" حسن، يا بن، نفِّذ هذا الأمر "

" سوف أطلب ثلاثين، هل أفعل، يا سيدي، ثم أتنازل قليلاً؟ "

" فقط افعل ما تراه الأفضل "

" حاضر، يا سيدي "

على مائدة الغداء قال توني " اتصلَ جوك. أراد أنْ يعرف إنْ كان في وسعه أنْ يقدم أي مساعدة "

" هذا لطفٌ منه. لِمَ لا تدْعُهُ ليقضي نهاية الأسبوع؟ "

" أهذا ما ترغبين فيه؟ "

" لن أكون هنا. أنا ذاهبة إلى منزل فيرونيكا "

" أذاهبة إلى منزل فيرونيكا؟ "

" نعم، ألا تذكُر؟ "

كان في الغرفة بعض الخدَم فلم يُضيفا المزيد إلا لاحقاً، حين انفردا بنفسيهما في المكتبة. حينئذٍ أضاف " أحقاً أنت ذاهبة؟ "

" نعم. لا أستطيع أنْ أبقى هنا. أنتَ تتفهَّم هذا، أليس كذلك؟ "

" نعم، طبعاً. أفكِّر في أنْ نرحل معاً، إلى مكان ما خارج البلاد "

لم تُجبه بريندا لكنها تابعت على نفس النمط. " لا أقوى على البقاء هنا. لقد انتهى كل شيء، ألا تفهم، حياتنا هنا "

" حبيبتي، ماذا تعنين؟ "

" لا تطلب مني أنْ أشرح... ليس الآن "

" ولكن، بريندا، حبيبتي، أنا لا أفهم. نحن الاثنان شابان. طبعاً لا يمكننا أنْ ننسى جون. سوف يبقى دائماً ابننا البِكر، ولكن... "

" لا تُكمِل، يا توني، أرجوك، لا تُكمل "

فسكت توني وبعد قليل قال، " إذن فَأنتِ ذاهبة إلى منزل فيرونيكا غداً؟ "

" ممم "

" أعتقد أني سأستضيف جوك "

" نعم، يجب أنْ أفعل "

" ونستطيع أنْ نفكِّر في وضع خُطط لاحقاً حين نتعوَّد أكثر على الأوضاع "

" نعم، لاحقاً "

وفي صباح اليوم التالي.

قالت بريندا، " وصلتني رسالة لطيفة من أمي "، وسلّمته إياها. كانت الليدي سينت كلود قد كتبت تقول :

"... لن آتي إلى هيتون لأحضر الجنازة، ولكن سأفكّر فيكما أنتما الاثنين وفي حفيدي العزيز. سأفكر فيكم أنتم الثلاثة، معاً، في عيد الميلاد. أولادي الأعزاء، في وقتٍ كهذا ليس لكم إلا أنفسكم لتطلبوا العون كلٌ من الآخر. الحب هو الشيء الوحيد الأقوى من الحزن... "

قال توني " وصلتني برقية من جوك. يقول إنه يستطيع أنْ يأتي "

قالت فيرونيكا " إنَّ مجيء بريندا مُحرجٌ لنا جميعاً. لا أعتقد أنها طُرِدتْ. لا أعرف أبداً ماذا أقول لها "

* * *

قال توني لجوك، وهما وحدهما بعد أنْ تناولا طعام العشاء، " كنتُ أحاولُ أنْ أفهم، وأعتقد أني فهمتُ الآن. إنَّ الأمر لا صِلة له بما أشعر أنا، ولكننا بريندا وأنا مختلفان من أوجهٍ كثيرة. ولأنهم كانوا غرباء ولا يعرفون جون، ولم يكنْ مرةً جزءاً من حياتنا هنا، تريد هي أنْ تكون معهم. هذا هو تفسير الأمر، ما رأيك؟ إنها تريد أنْ تكون وحدها تماماً وبعيدة عن كل ما يُذكِّرها بما حدث... ومع ذلك كله أشعر بالذنب لأني تركتها ترحل. لا أستطيع أنْ أشرح لك كيف كانت وهي هنا... كالآلة. إنَّ وطأة الأمر عليها أثقل بكثير منه عليَّ، أنا أفهم هذا. شيءٌ رهيب جداً أنْ أكون عاجزاً عن تقديم أي عون "

لم يُجِب جوك.

* * *

كان بيفر يُقيم عند فيرونيكا. قالت له بريندا، " حتى يوم الأربعاء، حين ظننتُ أنَّ أمراً قد وقع لك، لم أكن أعلم أني أحببتُك "

" لقد كرَّرتِ هذا القول مراراً "

قالت بريندا " سأجعلك تفهم، أيها الغبي "

* * *

في صباح يوم الاثنين عشر توني على هذه الرسالة على صينية فطوره :

" عزيزي توني،

لن أعودَ إلى هيتون. يمكن لغريمشو أنْ تحزم كل شيء وتُحضره إلى الشقة. وبعد ذلك لا أريدها أبداً.

لابد أنكَ أدركتَ منذ بعض الوقت أنَّ الأمور لا تسير على ما يُرام.

إنني أحب جون بيفر وأريد أنْ أحصل على الطلاق وأتزوج منه. ولو لم يمت جون أندرو لَما اتّخذت الأمور هذا المنحى. لا أدري. واقع الأمر أني ببساطة لا أقوى على البدء من جديد. أرجوك لا تُطيل التفكير. أعتقد أنه لن يُسمح لنا بالتقابُل ما دامت القضية مفتوحة ولكن آمل في أنْ نصبح في المستقبل صديقين حميمين. على أي حال، سوف أبقى دائماً أقوم بزيارتك مهما كان رأيك فيَّ "

أفضل تمنيات

بريندا

عندما قرأ توني هذا أول ما تبادر إلى ذهنه هو أنَّ بريندا قد فقدتْ عقلها، قال " إنها لم ترَ بيفر أكثر من مرتين حسب علِمي "

ولكن لاحقاً عرضَ الرسالة على جوك، الذي قال " أنا آسف لأنَّ الأمر أخذ هذا المنحى "

" ولكن هذا غير صحيح، أليس كذلك؟ "

" نعم، أخشى أن يكون صحيحاً. إنَّ الجميع يعرفون هذا منذ بعض الوقت"

لكنَّ توني لم يستوعب الأمر بصورة كاملة إلا بعد ذلك بعدَّة أيام. لقد كان متعوّداً على حب بريندا والثِقة فيها.

الفصل الرابع

قوطي إنكليزي ٢

١

" كيف تقبَّلَ العجوز الأمر؟ "

قالت بريندا " ليس بشكلٍ جيد. إنني أشعر بأني حيوان. أخشى أنه تأثَّر كثيراً "

قالت بولي لتواسيها " ولن ترتاحي أنتِ إذا لم يتقبَّل هو الأمر "

" كلا، أعتقد أني لن أفعل "

قالت جيني عبد الأكبر " سوف أبقى إلى جانبك مهما حدث "

قالت بريندا " أوه، كل شيء يسير على أحسن ما يُرام الآن. كان هناك بعض الحَرَج مع الأقارب "

* * *

عاش توني آخر ثلاثة أسابيع مع جوك. وكانت السيدة راتري قد انتقلَتْ إلى كاليفورنيا وشعر بالامتنان لوجود صاحب. كانا يتناولان العشاء في أغلب الأمسيات. وكفّا عن التردُّد على نادي برات، وكذا بيفر، كانا يخشيان أنْ يتقابلا. وبدل ذلك، أخذ توني وجوك يترددان على نادي براون، حيث بيفر ليس عضواً. كان بيفر في تلك الأيام يلازم بريندا باستمرار، في أحد المنازل العديدة.

لم يُعجب السيدة بيفر المسار الذي اتخذته الأمور، واسترجعت العمال من هيتون قبل أنْ ينتهي العمل.

* * *

خلال الأسبوع الأول أجرى توني عدة مقابلات صحفية بغيضة. وحاول ألان أنْ يتصرَّف كوسيط سلام.

قال " انتظِرْ فقط بضعة أسابيع وسوف تعود بريندا. سوف تملّ بيفر سريعاً "

" لكني لا أريدها أنْ تعود "

" أنا أعرف تماماً كيف تشعر، ولكن لا يجوز أنْ تتصرف على طريقة القرون الوسيطة. وإذا لم تضطرب بريندا لموت جون لا ينبغي أنْ يؤدي ذلك إلى نشوء أزمة. في الواقع، في العام الفائت كانت مارجوري تظهر في كل مكان مع ذلك الجحش المدعو روبن بيزلي. كانت مجنونة به في ذلك الوقت، لكنني تظاهرتُ بأني لا ألاحظ وانتهى كل شيء. ولو كنتُ مكانك لرفضتُ أنْ ألاحظ أنَّ أي شيء قد حدث "

وكانت مارجوري قد قالت له " طبعاً بريندا لا تحب بيفر. كيف يمكنها أنْ تفعل؟... وإذا اعتقدتْ أنها كذلك في الوقت الحاضر، فمن واجبكَ أنْ تمنعها من أنْ تجعل من نفسها حمقاء. يجب أنْ ترفض تطليقها - على أي حال، إلى أنْ تجد شخصاً آخر أكثر عقلانيّة "

وكانت ليدي سينت كلود قد قالت " لقد تصرَّفت بريندا بحماقة شديدة جداً، جداً. لطالما كانت فتاةً سريعة الانفعال، لكنني واثقة من أنه لم يكن هناك أي خطأ، كل الثِقة. وهذا ليس من شيَم بريندا على الإطلاق. أنا لم أقابل السيد بيفر ولا أرغبُ في ذلك. ما أعرفه هو أنه

غـيـر مناسب من النواحي كلها. وبريندا لا يمكن أنْ ترغب في الزواج من شخصٍ على شاكلته. سوف أخبرك بالضبط كيف حدث الأمر، يا توني. لابد أنَّ بريندا قد شعرَتْ بأنها مُهمَلة قليلاً - هذا ما يحدث للناس غالباً في مثل هذه المرحلة من الزواج. لقد عرفتُ حالات مماثلة لا حصر لها - وطبعاً المرأة تشعر بالتباهي عندما تقابل شاباً يتودَّدُ إليها ويتقرَّب منها. هذا كل ما في الأمر، ولا شيء خطأ. ومن ثم جاءت صدمة حادثة جون الصغير الرهيبة لتشيع فيها الاضطراب ولم تعد تعرف ماذا تقول أو تكتب. وسوف تضحكان أنتما الاثنان على هذا الشجار الصغير في السنوات القادمة.

لم تقع عينا توني على بريندا منذ بعد ظهيرة يوم الجنازة. تكلَّمَ معها مرة عبر الهاتف.

وبدءاً بالأسبوع الثاني أخذ يشعر بوحدةٍ شديدة الوطأة وحيَّرته استشارات عديدة. كان ألان معه يحثّه على المصالحة. قال له " كنتُ أتحدث مع بريندا. لقد ملَّت بيفر منذ الآن. إنَّ الشيء الوحيد الذي تريده هو أنْ تعود إلى هيتون وتستقر معك من جديد "

أثناء وجود ألان هناك، رفضَ توني بإصرار الإصغاء إليه، ولكن لاحقاً أصبحت الكلمات، والصورة التي تُثيرها في خياله، لا تُفارق ذاكرته. لذا اتصلَ بها هاتفياً فأجابته بهدوء ورصانة.

" بريندا، أنا توني "

" مرحبا، توني، ما الأمر؟ "

" كنتُ أتحدثُ مع ألان. لقد أخبرني عن نيّتك في تبديل رأيك "

" لستُ متأكدة من أني أفهم ما تعني "

" عن أنكِ تريدين ترك بيفر والعودة إلى هيتون "

" أهذا ما قاله ألان؟ "

" نعم، أليس صحيحاً؟ "

" أخشى أنه ليس كذلك. إنَّ ألان جحش يتدخَّل فيما لا يعنيه. كان عندي بعد ظهيرة هذا اليوم. وقال لي إنكَ لا ترغب في الطلاق بل تريد أنْ تُبقيني وحدي في لندن لأفعلَ ما يحلو لي شريطة ألا أتسبَّب في فضيحة علنية. لقد بدت لي فكرة جيدة وكنتُ أنوي أنْ أتصل بك لنتحدث حولها. ولكن أعتقد أيضاً أنَّ هذه هي دبلوماسيته. على أي حال، أخشى أن لا أمل في عودتي إلى هيتون في الوقت الحاضر "

" أوه، فهمت. أنا نفسي استبعدتُ ذلك... لقد اتصلتُ فقط لأسأل عنك "

" لا بأس. كيف حالك، توني؟ "

" لا بأس، شكراً "

" عظيم، وأنا أيضاً. الوداع "

هذا كل ما سمعه منها. وكانا يتفاديان الأماكن التي يُحتَمَل أنْ يلتقيا فيها.

* * *

بدا أنَّ من الملائم أنْ تظهر بريندا بوصفها صاحبة الدعوة. ولم يلجأ توني إلى محاميَّ العائلة في القضية بل إلى شركة شهرتها أقلّ شيوعاً متخصِّصة في الطلاق. وتسلَّح بالعزيمة ليتوقَّع قدراً من الحيوية الحِرَفيّة، بل الطيش، لكنه وجدهم ميالين إلى الكآبة والريبة.

" أعتقد أنَّ الليدي بريندا أبعد ما تكون عن الكتمان. ومن المُحتَمَل

أنْ يتدخَّل مكتب " كينغز بركتور "... زيادة على ذلك، هناك مسألة المال. هل تعلم أنه وفق الترتيبات الحالية وبما أنها الطَرَف البريء والجريح فهي مؤهّلة للمطالبة بنفقة ضخمة من المحاكم؟ "

قال توني " أوه، لا بأس بهذا. لقد سبق أنْ خضتُ في هذا مع صهرها وقرَّرتُ أنْ أقدم مبلغ تسوية مقداره خمسمئة جنيه في العام. هي تأخذ أربعمئة وأعتقد أنَّ السيد بيفر سينال جزءاً منه "

قال المحامي " من المؤسف أننا لا نستطيع أنْ نثبِّتَ هذا كتابةً، ولكن ذلك قد يُعتَبَر مؤامرة "

قال توني " إنَّ كلمة الليدي بريندا تكفي تماماً بالنسبة إليّ "

قال المحامي بنبرة رثاء، لأنه لم تُتح له الفُرَص التي أُتيحتْ لتوني ليُصاب بعادة حب بريندا والوثوق بها، " نحن نريد أنْ نحمي عملاءنا ضد حتى أبعد الاحتمالات "

* * *

في نهاية الأسبوع الرابع لرحيل بريندا عن هيتون أُعِدَّ مشهد خيانة توني. تضمَّنَ الأمر جناحاً في فندق على شاطئ البحر (" نحن دائماً نُرسلُ عملاءنا إلى هناك. والخَدَم متعوّدون جيداً على إعطاء الإفادة ") وتبليغ المفتشين الخاصين. قال المحامي " يبقى فقط انتقاء شريك "، دون أن تُضيء كآبته أقل شقاوة. " أحياناً كنا ذوي فائدة في تزويد عملائنا بالخدمات ولكن هناك باستمرار شكاوى، لذا وجدنا أنَّ من الأفضل أنْ نترك الاختيار لهم. ومؤخراً كانت لدينا قضية تتصف بدقّة خاصة حول رجل ينطوي على أخلاقيات شديدة التزمُّت وقدرٍ من الحياء. وفي النهاية وافقتْ زوجته على الذهاب معه والإدلاء باعترافها. ووضعَتْ شَعراً مُستعاراً أحمر اللون. ونجح الأمر كل النجاح "

" لا أعتقد أنْ الأمر سينجح في هذه القضية "

" كلا، بالضبط. لقد أوردتُ هذا المِثال فقط من باب الاهتمام "

قال توني " أعتقد أنه سأتمكن من العثور على شخص ما "

قال المحامي، وهو ينحني تأدُّباً، " ليس لديّ أدنى شك في ذلك "

ولكن لاحقاً حين بدأ بمناقشته المسألة مع جوك، لم يبدُ الأمر سهلاً. قال " إنه ليس شيئاً من النوع الذي يطلب المرء من أي فتاة أنْ تقوم به، كيفما صغته. فإذا قلتَ إنه مجرد شكل قانوني كان ذلك مُهيناً، وإذا اقترحت القيام بالأمر كله فإنَّ هذه وقاحة - أعني، فجأةً، إذا لم تكن قد أوليتها أي اهتمام خاص من قبل ولا تعتزم أنْ تواصله بعد ذلك... طبعاً هناك دائماً صاحبتنا القديمة سيبيل "

لكنَّ سيبيل رفضَتْ. قالت " لو جئتني في أي وقت آخر لفعلته بأسرع من البرق، أما في الوقت الحاضر فهذا لا يُلائم حساباتي. هناك شخص بعينه يمكن أنْ يسمع عن هذا ويُخطئ في فهمه... هناك فتاة غاية في الجمال اسمها جيني عبد الأكبر. لا أدري إنْ كنتَ قد قابلتها "

" نعم، قابلتُها "

" حسن، ألا تصلح؟ "

" كلا "

" أوه يا إلهي، لا أعرف مَنْ اقترح عليك "

قال جوك " الأفضل أنْ نذهب وندرس السوق في أولد هندريدز "

تناولا العشاء في منزل جوك. ولاحقاً وجدا أنَّ الجو في نادي براون كئيب قليلاً، لأنَّ الناس يتجنّبون كل مَنْ يعرفون أنه تعيس. وعلى الرغم من أنهما شربا كمية كبيرة من الشمبانيا لم يتمكنا من أسر المزاج المرح

الذي كانا عليه حين قاما بزيارة شارع سينك آخر مرة. ثم قال توني " هل من المفيد الذهاب إلى هناك الآن؟ "

" يمكننا أنْ نجرِّب. فقبل كل شيء، نحن ذاهبان إلى هناك بغرض المتعة "

" كلا، حقاً "

فُتِحَ الباب في شارع هندريد سينك وكانت الفرقة الموسيقية تعزف في صالة الرقص الخاوية. وكان النُدُل يتناولون الطعام على طاولة صغيرة في الركن. وتجمَّعت فتاتان أو ثلاث حول آلة اليانصيب، وكنَّ يخسرن الشلنات بكثرة ويتذمَّرن من البرد. طلبا زجاجة من ماركة شركة مونتغمري للخمور وجلسا وانتظرا.

سأل جوك " هل تصلح أيٌ من تلك؟ "

" إنني لا أهتم بهنّ كثيراً "

" من الأفضل أنْ تحصل على واحدة تعجبك. إذ عليك أنْ تقضي معها الكثير من الوقت "

وسرعان ما هبطت ميلي وبابس من الطابق العلوي.

قالت ميلي " كيف حال قبعات ساعي البريد؟ "

لم يفهما التلميح.

" ألستما الشابين اللذين كانا هنا في الشهر الفائت؟ "

" نعم، أخشى أننا كنا ثملين "

" أحقاً؟ ". كان من النادر أنْ تقابل ميلي وبابس أي شخص غير ثمل أثناء ساعات العمل.

" حسن، تعالا واجلسا. كيف حالكما أنتما الاثنتان؟ "

قالت بابس " أعتقد أنني مُصابة ببوادر برد. ينتنابني شعور مزعج. لِمَ لا يزوّدون المربَع بالتدفئة، أولئك الكلاب الخسيسة؟ "

كانت ميلي أكثر مرحاً وتتمايل وهي على الكرسي على وقع الموسيقى. قالت، " أتحب أنْ ترقص؟ "، وراحت هي وتوني يتهاديان عبر أرض الحلبة الخالية.

قال جوك " إنّ صديقي يفتّش عن سيدة لكي يُرافقها إلى شاطئ البحر "

" ماذا، في مثل هذا الطقس؟ سيكون هذا سلوكاً لطيفاً بالنسبة إلى فتاة وحيدة ". تنشّقت بابس داخل منديل مُكوَّر على شكل كرة.

" إنه من أجل إتمام الطلاق "

" أوه، فهمت. حسن، لِمَ لا يأخذ ميلي؟ إنها لا تُصاب بالبرد بسهولة. ثم إنها تعرف كيف تُحسِن السلوك في الفندق. هناك كثير من الفتيات الجيدات ويصلحن للصحبة المرحة في المدينة، أما إذا أردتَ أنْ تحصل على طلاق فيلزمكَ سيدة مُحترمة "

" هل يُطلَب منكِ غالباً أنْ تفعلي مثل هذا؟ "

" بين حينٍ وآخر. إنها بمثابة فترة استراحة - لكنها تعني الكثير من الكلام، والرجال دائماً لا يكفّون عن الحديث عن زوجاتهم "

بينما هما يرقصان دخل توني فوراً في الموضوع. سألها " ما رأيكِ أنْ تبتعدي عن هذا المكان مدة أسبوعين؟ "

قالت ميلي " لا مانع لديّ. إلى أين؟ "

" أفكّر في برايتن "

" أوه... أهو من أجل إتمام الطلاق؟ "

" نعم "
"هل تمانع في أنْ أُحضِر ابنتي الصغيرة معنا ؟ لن تسبب أي متاعب"
" نعم "
" تعني أنكَ لا تمانع؟ "
" بل أعني أني أمانع "
" أوه... لم يخطر في بالك أنَّ لديّ فتاة صغيرة في الثامنة؟ "
" كلا "
" اسمهاويني. كنتُ فقط في السادسة عشرة عندما حملتُ بها. كنتُ أصغر أفراد عائلتي ولم يكن زوج أمي يدع أياً منا نحن الفتيات وشأننا. ولهذا كان لابد لي أنْ أعمل. إنها تعيش مع سيدة في فينشلي. تُكلّفني ثمانية وعشرين جنيهاً في الأسبوع، خِلاف تكلفة ملابسها. وهي تحب شاطئ البحر "
قال توني " أنا آسف لكنَّ هذا مستحيل. سوف نعطيكِ هدية جميلة تقدّمينها لها "
" حسن... أحد السادة أعطاها دراجة جميلة في عيد الميلاد. فوقعَتْ عنها وجرحت رُكبتها... متى نبدأ ؟ "
" هل تودّين الانتقال بالقطار أم بالسيارة؟ "
" أوه، بالقطار. ويني تُصاب بالدوار إذا ركبت السيارة "
" ويني لن تأتي معنا "
" كلا، على كل حال سوف نذهب بالقطار "
وتقرَّر أنَّ يتقابلا في محطة فيكتوريا بعد ظهيرة يوم السبت.
أعطى جوك بابس عشرة شلنات وعاد هو وتوني إلى المنزل، فلم

يكن توني ينام جيداً مؤخراً. ولم يكن يستطيع أنْ يمنع نفسه من أنْ يستعرض في ذهنه مراراً وتكراراً كل ما جرى منذ زيارة بيفر لهيتون، يبحث عن مفاتيح للغز الذي أفلت منه في حينه، متسائلاً عن شيءٍ قاله أو فعله وغيَّرَ مجرى الأحداث، عائداً إلى الوراء حتى فترة تعرّفه الأولى على بريندا بحثاً عن مؤشرات جعلته أكثر استعداداً لفهم التغيُّر الذي طرأ عليها، مُعايشاً المشاهد واحداً بعد آخر على مدى السنوات الثماني الأخيرة من حياته. كل هذا كان يُبقيه يقظاً.

٢

كان هناك ملتقى عام في مكتب حجز المقاعد للدرجة الأولى. كان أفراد البوليس السري قد حضروا باكراً، قبل الوقت المُحدد لهم بعشر دقائق. وقد تمّ تمييزهم بعلامة في مكتب المحامي لكي لا يُخطئهم توني. كانوا ثلة من الرجال المرحين في منتصف العمر يعتمرون قبعات رقيقة ويرتدون معاطف ثقيلة. كانوا يصبون إلى عطلة نهاية الأسبوع، ذلك أنَّ معظم عملهم اليومي كان يتألّف من الوقوف على زوايا الشارع ومراقبة الأبواب الأمامية، وعمل من هذا النوع كان يتم التنافس عليه في المكتب. وفي حالات الطلاق المتواضعة كان المحامون يكتفون بالاعتماد على شهادة خدم الفندق. وكان أفراد البوليس السري مُترفين ويميلون إلى معاملة أحدهم الآخر على هذا الأساس.

كان يُخيِّم على لندن ضباب خفيف في ذلك اليوم. وأضيئت مصابيح المحطة قبل الأوان.

وصل توني بعد ذلك، ومعه جوك، يُرافقه بإخلاص إلى أنْ ينطلق.

ابتاعا البطاقات وانتظرا. وقام رجال البوليس السري، المتمسكون بشدّة بشكليات المهنة، بمحاولة للبقاء بعيداً عن الأضواء، بالتدقيق بالمُلصقات على الجدران والتحديق من خلف الأعمدة.

قال توني " سيكون الأمر جحيماً "

لم تصل ميلي إلا بعد عشر دقائق. برزت من قلب الكآبة مع حمّال يتقدَّمها حاملاً حقيبة سفر وتجرُّ خلفها طفلة صغيرة. كانت ملابس ميلي في مُعظمها من فساتين للسهرة، ذلك أنها خلال النهار تقضي عادةً وقتها جالسة أمام موقد غاز مرتدية مبذلها. وكان مظهرها تافهاً وعلى قدرٍ من الاحترام. قالت " آسفة إنْ كنتُ تأخرت، ويني هنا لم تعثر على حذائها. لقد أحضرتها معي. عرفتُ أنكَ لن تمانع حقاً. إنها تسافر بنصف سعر بطاقة "

كانت ويني طفلة بسيطة تضعُ نظارة كبيرة بإطار ذهبي. وعندما تكلَّمت كشفَتْ عن أنَّ اثنين من أسنانها الأمامية مفقودان.

" آمل ألاّ تتخيَّلي أنها ستأتي معنا "

قالت ميلي " نعم، هذه هي الفكرة. لن تسبب أي مشاكل - لقد أحضرت معها أحجيتها "

انحنى توني ليتحدث إلى الطفلة. قال " اسمعي، لن يُعجبكِ أنْ ترافقينا إلى فندق كبير وقذر. اذهبي أنتِ مع هذا الرجل اللطيف هنا. سيأخذكِ إلى محل ويدعكِ تنتقين أكبر دمية تجدينها ومن ثم يعيدكِ بسيارته إلى منزلك. سوف تحبين ذلك، أليس كذلك؟ "

قالت ويني " كلا، أريد أنْ أذهب إلى شاطئ البحر. لا أريد أنْ أذهب مع ذلك الرجل. لا أريد دمية. أريد أنْ أذهب إلى شاطئ البحر مع الماما "

كان أناسٌ كثيرون بالإضافة إلى رجال البوليس السري قد بدؤوا يُلاحظون تلك المجموعة المتجانسة بشكلٍ غريب.

قال توني " أوه يا إلهي! أعتقد أنه يجب أنْ ترافقنا "

تبعهم رجال البوليس السري عن بُعد على طول الرصيف. وضع توني مُرافقتيه في سيارة البولمن. قالت ميلي " انظر، نحن مُسافرون في الدرجة الأولى. أليس هذا ممتعاً؟ نستطيع أنْ نتناول الشاي "

" هل أستطيع أنْ أطلب مثلجات؟ "

" لا أعتقد أنَّ لديهم مثلجات. ولكن يمكنكِ أنْ تحصلي على شاي لذيذ "

" ولكني أريدُ مثلجات "

" سوف تحصلين على مثلجات حين تصلين إلى برايتن. والآن كوني فتاة عاقلة والعبي بأحجيتك وإلا لن تأخذك الماما إلى شاطئ البحر بعد الآن "

قال جوك وهو يُغادر توني " إنها الطفلة المُتعبة التي تظهر في الأدب الرائج "

أدتْ ويني دورها ببراعة طوال فترة الرحلة إلى برايتن. لم تكن مُبتكرة لكنها كانت تعرف الروتين التقليدي بصورة كاملة، حتى بأمورٍ تافهة لكنها مُخيفة كالتنفُّس بصعوبة، والنخر والشكوى من الشعور بالغثيان.

* * *

كانت الغرف قد حُجِزَتْ لأجل توني على يد المحامين. لذا فوجئ موظف الاستقبال حين وصلت ويني. قال " لقد حجزنا باسمك غرفتين

متصلتين واحدة مُزودوجة وأخرى منفردة، مع حمّام وغرفة جلوس. لم نفهم أنكَ ستجلب معك ابنتك. هل ستحجز غرفة إضافية؟ "

قالت ميلي " أوه، يمكن لويني أنْ تنزل معي "

رجلا البوليس السري اللذان كانا واقفَين بالقرب عند النضد تبادلا نظرات الاستهجان.

كتب توني في سجل الزوار " السيد والسيدة لاست ".

قال الموظف وهو يضع إصبعه على مكان التوقيع " والإبنة "

تردَّد توني. قال " إنها ابنة أختي "، وخطَّ اسمها على سطرٍ منفصل، ولقَّبها الآنسة سميث.

قال رجل المباحث، الموقِّع في الأسفل، مُعلّقاً لزميله، " لقد أحسن الإفلات من هذه الورطة. غاية في الذكاء. ولكن لا يعجبني شكل هذه القضية. مُشوَّشة جداً. أُضيفَ إليها مسحة محترمة، بغيضة بإضافة طفلة إليها. يجب أنْ نضع الشركة في حسابنا. لن يكون في صالحهم أنْ يتورطوا مع مكتب " كينغز بروكتور "

قال زميله بلا مبالاة " ما رأيك بواحد على السريع؟ "

في الطابق العلوي، سألتْ ويني " أين البحر؟ "

" هناك عبر الشارع "

" أريد أنْ أذهب وأراه "

" لكنَّ الظلام حلّ الآن، يا عزيزتي. سترينه غداً "

" أريد أنْ أراه هذه الليلة "

قال توني " خُذيها لتراه الآن "

" أمتأكد من أنكَ لن تشعر بالوحدة؟ "

" كل التأكُّد "

" لن نغيب طويلاً "

" لا بأس. دعيها تراه وتشبع منه "

هبطَ توني إلى البار حيث سرَّه أنْ يجد اثنين من رجال المباحث. شعر بحاجة إلى صحبة أحد الذكور. قال " مساء الخير "

نظرا إليه شذراً. لقد بدا أنَّ كل ما يجري في تلك القضية كأنما وفق خطّة مُبيَّتة تهدفُ إلى صعق مشاعرهما المِهنية. قال المفتش الأكبر سناً "مساء الخير. أمسية فظة، بغيضة "

" اشربا "

بما أنَّ توني كان يدفع نفقاتهما في كل الأحوال، بدا أنه لا داعي لهذا العَرض، لكنَّ المفتش الأصغر سناً أشرقَ غريزياً وقال "لا مانع لديّ"

" تعال واجلس. أشعر بالوحدة "

حملوا المشروبات إلى الطاولة بعيداً عن مسمع عامل البار. قال المفتش الأكبر سناً " سيد لاست، سيدي، إنَّ هذا كله خطأ. ينبغي ألا تتعرَّف علينا أبداً. لا أدري ماذا سيقولون في المكتب "

قال المفتش الأصغر سناً " أخلص الاحترام "

قال المفتش الأكبر سناً " هذا السيد جيمس، زميلي. اسمي بلينْكنسوب. جيمس جديد على مثل هذا النوع من العمل "

قال توني " وأنا كذلك "

قال بلينكنسوب " من المؤسف أنْ تقضي عطلة نهاية أسبوع بغيضة في العمل، رطوبة ورياح عاصفة. تُحرِّك آلام مفاصلي "

قال توني " قُلْ لي، هل من المعتاد جلب الأطفال إلى مثل هذا النوع من الرحلات؟ "

" أبداً "

" هذا ما حسبته "

" بما أنكَ سألتني، سيد لاست. أنا أعتبر أنه عمل في منتهى الغرابة والطيش. يبدو خطأ، وقضايا من هذا النوع ترتكز إلى حدٍ بعيد على إعطاء الانطباع الأمثل. وطبعاً بالنسبة إلى جيمس وإليّ المسألة تسير بشكلٍ حسن. لن تخرج كلمة واحدة من جانبنا. ولكن لا يمكن الوثوق من الخدم. قد يحدث أنْ تصادف أحدهم جديداً على المهنة، ويُفشي الأمر، وعندئذٍ ماذا سيحلّ بنا. لا يعجبني هذا، يا سيد لاست، وهذه هي الحقيقة "

" لا يمكنكَ أنْ تشعر أكثر مني بهذا "

قال جيمس، الجديد على هذا النوع من العمل، " من ناحيتي أنا مولع بالأطفال. فكيف إذا كان واحداً منا ؟ "

قال توني، حين كانوا جالسين حول طاولتهم قبل قليل، " أخبرني، لابد أنك لاحظتَ عدداً كبيراً من الأزواج في حياتك، مؤهّلين للطلاق، أخبرني، كيف كانوا يعيشون أيامهم؟ "

قال بلينكنسوب " الأمر أسهل في الصيف. الصبايا عادةً يسبحن والرجال يقرؤون الصحف أثناء التمشي، بعضهم يذهبون ليقودوا السيارات والبعض الآخر يتسكعون حول البار. كانوا في الغالب يسعدون لقدوم يوم الإثنين "

كانت ميلي وطفلتها في غرفة الجلوس حين دخل توني.

قالت ميلي " لقد طلبتُ مثلجات "

" لا بأس في هذا "

" أريد عشاءً متأخراً. أريد عشاءً متأخراً "

" كلا، يا عزيزي، لا عشاء متأخراً. لقد أحضرنا مثلجات إلى هنا "

عاد توني إلى البار. قال " سيد جيمس، هل فهمتُ من كلامك أنكَ مولع بالأطفال "

" نعم، في مكانهم المناسب "

" هل أفترض أنك لا تمانع في تناول طعام العشاء هذه الليلة مع الفتاة الصغيرة التي جاءت معي؟ سوف أعتبر ذلك معروفاً كبيراً "

" أوه، كلا، يا سيدي، إلا هذا "

" سوف تجدني ممتناً "

" حسن، يا سيدي، لا أريد أنْ أبدو غير ملتزم، لكنَّ هذا ليس جزءاً من واجباتي "

بدا متذبذباً لكنَّ بلينكنسوب تدخَّلَ. " هذا مستحيل، يا سيدي "

بعد أنْ غادرهما توني تكلَّمَ بلينكنسوب من عمق تجربته، لقد كان ذلك أول عمل يشترك فيه مع جيمس، وشعر أنه مُلتزم بتثقيف زميله الأصغر سناً. " إنَّ مشكلتنا هي دائماً نفسها - أنْ نجعل عملاءنا يُدركون أنَّ الطلاق مسألة خطيرة "

أخيراً قُطِعَتْ وعود متهورة من أجل الغد، مع طلبين أو ثلاثة من المثلجات، والإحساس القليل بالانقباض الذي أحدثاه أقنعَويني بالإيواء إلى السرير.

سألتْ ميلي " كيف سننام؟ "

" أوه، كما تريدين "

" بل كما تريد أنتَ "

" حسن، لعلّ ويني ستكون أسعد حالاً وهي معك... سوف تضطر إلى الانتقال إلى الغرفة الأخرى في صباح اليوم التالي حين يجلبون طعام الفطور، طبعاً "

وهكذا أودعَت زاوية من السرير المزدوَج وكم دُهِشَ توني حين استغرقَتْ في النوم حتى قبل أنْ يهبطا لتناول وجبة العشاء.

مع تغيير ملابسهما حصل لتوني وميلي تغيير في المزاج. هي، بأفضل مبذل لديها، بلا ظهر وقرمزي، ووجهها مُتبرِّج حديثاً وعقصات شعرها المُبيَّضة والمُمشَّطة، وقدماها تنتعلان حذاءً أحمر عالي الرقبة، وتضع بعض الأساور في رسغها، ولمسة من عطر خلف لؤلؤتين كبيرتين زائفتين في أذنيها، نفضَتْ عنها هموم الحياة العائلية وعادت من جديد متناسقة، ومستعدة لأداء الواجب، عضوة في فيلق تلقَّتْ أمراً بأداء خدمة بعد وهن لقضاء شتاء في ثكنة، وتوني، يملأ غليونه أمام المرآة، ويدسّه في جيب سترة العشاء، وذكَّر نفسه أنَّه مهما بدا له الوضع مشحوناً بالأوهام، وحتى شنيعاً، فإنه مع ذلك مُضيف، فقرع الباب المشترك وولج بأسلوبٍ هادئ غرفة ضيفته، إنه منذ شهر وهو يعيش في عالمٍ خلا فجأة من النظام، وكأنَّ كامل بُنية الأشياء المعقولة واللائقة، وكل ما خبِرَه وتعلَّمَ أنْ يتوقَّعه، كان شيئاً غير واضح، ولا أهمية له وُضِعَ خطأً على طاولة الزينة، لم يكن لأي ظرفٍ شائن يجد نفسه فيه، ولا لأي شيء جديد، وجنوني، أنْ يُضيفَ مقدار ذرة إلى كل العماء الشامل الذي كان يصرخُ في أذنيه. ابتسمَ لميلي من ممر الباب. قال " فاتنة، فاتنة تماماً. هلاّ نزلنا لنتناول طعام العشاء؟ "

كانت غرفتاهما تقعان في الطابق الأول. هبطا، خطوة خطوة، ويدها على ذراعه، الدَرَج إلى الصالة المُشرقة في الأسفل.

قالت ميلي " ابتهج، تناول شطيرة لسان وستجعلك تتكلّم "

" آسف، هل أنا مُضجِر؟ "

" أنا لم أكن أمزح. أنت إنسان جادّ، أليس كذلك؟ "

على الرغم من الطقس الهائج بدا الفندق مملوءاً بزوار نهاية الأسبوع. وكان المزيد يتوافدون من خلال الأبواب الدوارة، بعيونٍ رطبة ووجنات متيبّسة بأثر الطقس المُثلج في الخارج.

شرحتْ ميلي بلا مُبررٍ " إنهم يهود. ومع ذلك، جميل أنَّ تغيرٍ جو النادي مرةً كلَّ حين "

أحد الوافدين الجُدُد كان صديقاً لميلي. كان يُراقبُ مجموعة أمتعته. ولو أنه كان في أي مكان آخر لاعتُبِرَ شخصية يُشار إليها بالبنان، لأنه يرتدي معطفَ فرو كبيراً ويعتمر بيريه، ومن تحت المِعطف ظهر جورب من الصوف وحذاء أسود وأبيض. قال " خذهم إلى فوق وافتحهم وأسرع في ذلك ". كان شاباً ضخماً وقصير القامة. وكانت رفيقته، المُتلفّعة أيضاً بالفرو، تُحدِّقُ باحتقار إلى خزانات العَرض التي ترصِّعُ الصالة.

قالت " أوه، يا إلهي "

تبادلتْ ميلي والشاب التحيات. قالت " هذا دان "

قال دان " يا سلام، يا سلام، يا سلام. وماذا بعد؟ "

قالت فتاة دان " هل لي بمشروب؟ "

" طبعاً، بيبي، حتى وإنْ اضطررتُ إلى إحضاره بنفسي. ألا ترغبان أنتما الاثنان في الانضمام إلينا، أم أننا de trop (زائدان عن الحاجة)؟ "

انتقلا معاً إلى غرفة الجلوس المتلألئة. قالت الحبيبة " أنا أشعر بالبرد كالجحيم "

كان دان قد خلعَ معطفه الضخم وكشفَ عن بذلة مؤلفة من بنطلون رياضي قصير واسع ومزموم تحت الركبة ناعم ويميل لونه إلى القرمزي، وقميص من الحرير كان جديراً بتوني أنْ ينتقيه ليستخدمه كبيجاما. قال " سنُدفئك حالاً "

قالت بيبي " هذا المكان يفوح قذارة من اليهود "

قال توني "لطالما رأيتُ أنَّ هذا دلالة على رقيّ الفندق، ألا توافقين؟"

قالت بيبي " كالجحيم "

شرحَ دان " لا عليكِ يا بيبي، إنها بردانة "

" ومَنْ لا يشعر بالبرد، وهو يركب سيارتك الخردة؟ "

شربا عدداً من كؤوس الكوكتيل. ثم ذهب ودان وبيبي إلى غرفتهما، يجب أنْ يتأنّقا، كما شرحا، لأنهما كانا ذاهبين إلى حفل يُقيمه صديق لدان، في منزله القريب. وولج توني وميلي ليتناولا طعام العشاء. قالت " إنه فتى ظريف جداً، ويتردَّد على النادي كثيراً. يأتينا إلى هناك أناس من كل الأصناف، لكنَّ دان من أشدّهم كياسة. كدتُ أسافر معه إلى الخارج ذات مرة ولكن في النهاية لم يتمكن من الفرار "

" يبدو أننا لا نُعجِب فتاته كثيراً "

" أوه، إنها فقط تشعر بالبرد "

لم يكن من السهل على توني أنْ يفتحَ حديثاً على مائدة العشاء. في أول الأمر علّقَ على جيرانهما كما كان يمكن أنْ يفعل لو أنه يتناول العشاء مع بريندا في مطعم إسبينوزا. " الفتاة التي في الركن جميلة "

قالت ميلي بنَزَق " أتساءلُ لماذا لا تذهب وتنضمَّ إليها، يا عزيزي "
" انظري إلى جواهر تلك المرأة. أتعتقدين أنها أصلية؟ "
" لِمَ لا تسألها، إذا كنتَ مهتماً إلى هذه الدرجة؟ "
" هذا نمط مُثير للاهتمام - المرأة السمراء التي ترقص "
" أنا متأكدة من أنه يُسعدها أنْ تسمع هذا "

سرعان ما أدرك توني أنه ليس من آداب السلوك في عالم ميلي إظهار الاهتمام بالنساء، غير المرأة التي ترافقك.

شربا شمبانيا. والمفتشان فعلا ذلك أيضاً، كما لاحظَ توني بانزعاج. سوف يحاسبهما على ذلك حين يُقدمان فاتورتهما المُكلفة. وهذا لا يعني أنهما كانا كما لو أنهما يتكيَّفان مع مسألة ويني. كان طوال الوقت، في خلفية عقله، قلقاً بشأن مشكلة ما يمكن أنْ يفعلاه بعد العشاء، لكنَّه وجد الحل، وهو يُشعل سيجاره، لدى ظهور دان من الجانب الآخر من غرفة الطعام. قال " اسمع، إذا لم يكن لديكما أنتما الاثنان شيئاً خاصاً تفعلانه، انضمّا إلينا وتعالا إلى الحفلة المُقامة في منزل صديقي. سوف تعجبكما كثيراً. إنه دائماً يُقيمُ حفلاً من أفضلها في كل شيء "

قالت ميلي " أوه، دعنا نذهب "

كانت ملابس سهرة دان مصنوعة من القماش الأزرق الذي من المفترض أنْ يبدو أسود تحت الإضاءة الاصطناعية، ولكن، لسببٍ ما، بقيَ لونها أزرق جداً.

وهكذا ذهب توني وميلي إلى حفلة صديق دان وحصلا على الأفضل في كل شيء. كانت هناك مجموعة من عشرين أو ثلاثين شخصاً، وكلهم

يشبهون دان بصورةٍ أو بأخرى. وكان صديق دان مِضيافاً إلى أقصى حد. وحين كان لا يعبث بجهاز الراديو، الذي سبَّبَ مشاكل طوال فترة السهرة، كان يحوم متنقّلاً بين ضيوفه ويُعيد ملء كؤوسهم. قال، مُظهِراً الماركة، "هذا النوع جيد، ولن يؤذيكم. إنه من النوع الجيد "

وشربوا الكثير من النوع الجيد.

غالباً ما كان صديق دان يلاحظ أنَّ توني يبدو نائياً عن جو الحفلة، فيتقدَّم منه ويضع يده على كتف توني، ويقول " أنا سعيد جداً لأنَّ دان أحضرك معه. أتمنى أنكَ تحصل على كل ما تريد. أنا مبتهج لرؤيتك. تعالَ من جديد حين لا يكون هناك زحام وجل في المكان. هل أنتَ مهتم بالورود ؟ "

" نعم، أنا أحبها كثيراً "

" تعال عندما تتفتح الورود. ستحبها إذا كنتَ مُهتماً بالورود. اللعنة على الراديو، أصابه خلل من جديد "

تساءلَ توني إنْ كان هو ظريفاً هكذا عندما كان يحضر أناسٌ لا يعرفهم إلى هيتون دون سابق إنذار.

في إحدى مراحل السهرة وجد نفسه جالساً على الصوفا مع دان، الذي قال له " بنت ظريفة، ميلي "

" نعم "

" مَنْ يُصدِّق أنَّ لديها ابنة في الثامنة، أتصدق؟ "

" كلا، إنه شيء مُدهش حقاً "

" بقيتُ زمناً طويلاً لاأعلمُ بأمرها، إلى أنْ نويتُ أنْ أصطحبها إلى دييب لقضاء نهاية الأسبوع فأرادتْ أنْ تأخذ معها ابنتها أيضاً. وطبعاً

فشل المشروع، ولكنني مع ذلك بقيتُ أحبُ ميلي. يمكنكَ أنْ تضع ثقتها فيما يخص السلوك في أي مكان ". قال هذا وهو يرمي بيبي بنظرة متجهمة، التي كان جلياً أنها قد ثملت من شرب النوع الجيد حتى الامتلاء.

لم ينفرط عقد المحتفلين إلا بعد الساعة الثالثة. وكرَّر صديق دان دعوته للمجيء من جديد عندما تتفتح الورود. قال " أشكُ في أنكَ ستجد عرضاً أفضل في أي مكان من جنوب إنكلترا "

أوصلهم دان بسيارته في طريق العودة إلى الفندق. جلست بيبي بجواره في المقعد الأمامي، وهي مستعدة للشجار. وراحت تسأله باستمرار " أين كنت؟ لم أركَ طوال السهرة. إلى أين ذهبت؟ أين كنتَ مُختبئاً؟ أنا أسمي هذا أسلوباً وضيعاً في الخروج مع فتاة "

جلس توني وميلي في المقعد الخلفي. وتبعاً للعادة ومن الإرهاق وضعَتْ رأسها على كتفه ويدها في يده. ولكن عندما وصلا إلى غرفتيهما، قالت " اذهب بهدوء. لا نريد أنْ نوقظ ويني "

بقيَ توني مدة ساعة أو نحوها مستلقياً في غرفة النوم الصغيرة، يُراجع مرة بعد مرة أحداث الأشهر الثلاثة الأخيرة، ثم استغرقَ هو أيضاً في النوم.

* * *

أيقظته ويني. قالت " أمي لا تزال نائمة "

نظر توني في ساعة يده. قال " هذا ما أعتقده ". كانت الساعة السابعة وربعاً. " عودي إلى النوم "

" كلا، لقد ارتديتُ ملابسي. هيا بنا نخرج "

ذهبتْ إلى النافذة وأزاحت الستائر، وملأتْ الغرفة بنور الصباح، الفاتر. قالت " ليس هناك أي مطر "

" ماذا تريدين أنْ تفعلي؟ "

" أريد أنْ أذهب إلى رصيف القوارب "

" لم يفتح بعد "

" حسن، أريد أنْ أنزل إلى شاطئ البحر. هيا بنا "

عرِفَ توني أنه لن يتمكن من العودة إلى النوم في ذلك الصباح.

"حسن. اذهبي وانتظري قليلاً ريثما أرتدي ملابسي "

" سأنتظر هنا. أمي تشخر كثيراً "

بعد ذلك بعشرين دقيقة هبطا إلى الصالون حيث كان نُدُل ذوو مآزر يُكوِّمون قِطع الأثاث ويكنسون السجاد. وحالما برزا من الباب الدوّار قابلتهما ريح قارسة. وكان المُتنزَّه المُسفلت رطباً برذاذ المطر. وكانت امرأتان أو ثلاث نساء يعدون على الطريق، وقد انحنينَ في وجه الريح، وهن يقبضنَ على كتب صلوات بأيديهن المكسوة بالقفازات. وكان أربعة أو خمسة من الرجال العجائز الرثين يعرجون نحو البحر ليسبحوا، ويصدرون هسيساً كساسة الخيل. قالت ويني " أوه، هيا "

نزلا إلى الشاطئ وأخذا يتعثّران في مشيهما بشكلٍ مؤلم عبر اللسان الخشبي إلى حافة البحر. رمت ويني بعض الحجارة. كان السابحون عندئذٍ قد أصبحوا في الماء، بعضهم كان معه كلاب، سبحوا وهم يشخرون بجوارهم.

سألتْ ويني " لِمَ لا تسبح؟ "

" إنَّ الجو شديد البرودة "

" لكنَّ هؤلاء يسبحون. أنا أريد أنْ أسبح "

" يجب أنْ تطلبي الإذنَ من أمك "

" أعتقد أنكَ خائف. هل تُحسن السباحة؟ "

" نعم "

" حسنٌ، لِمَ لا تفعل؟ أراهن على أنكَ لا تعرف "

" حسن. لا أعرف "

" إذن، لِمَ قلتَ إنكَ تعرف؟ كاذب "

سارا على طول اللسان الخشبي. وكانتويني تنزلق كالأفعى في المكان وتتجاوز المياه المكبوحة منفرجة الساقين. قالت " ها قد ابتل سروالي الداخلي "

" الأفضل أنْ نعود وتغيّري ملابسك "

" أنا منزعجة جداً. فلنعد ونتناول طعام الفطور "

في المعتاد، لا يقدِّم الفندق الطعام للضيوف الذين يتناولون الفطور في الطابق السفلي في الساعة الثامنة في صباح يوم الأحد. كان إعداد أي شيء يستغرقُ وقتاً طويلاً. ولم تكن المثلجات متوافرة، مما سبَّب انزعاج ويني الشديد. أكلتْ الفريز وسمك السلمون والبيض المخفوق مع خبز مُحمَّص، وهي تتذمَّر بشكلٍ متقطِّع بشأن ملابسها المُبلَّلة. وبعد الإفطار أرسلها توني إلى الطابق العِلوي لتبدِّل ملابسها ولكي يُدخِّن هو الغليون في غرفة الاستراحة ويستعرض عناوين صُحف يوم الأحد. وعند الساعة التاسعة قاطعه وصول بلينكنسوب. قال " لقد افتقدناك ليلة أمس "

" لقد ذهبنا إلى إحدى الحفلات "

" ما كان ينبغي أنْ تذهب إليها - ليس الأمر صارماً، ولكنني أعتقد أنه لن تكون نتيجتها سيئة. هل تناولتَ طعام فطورك؟ "

" نعم، في غرفة الطعام، مع ويني "

" ولكن، يا سيد لاست، ما الذي يدور في ذهنك؟ يجب أنْ تحصل على شهادة من خدم الفندق "

" في الواقع، لم أرغب في إيقاظ ميلي "

" وهي تتلقى أجراً على هذا، أليس كذلك؟ لا، لا، يا سيد لاست، هذا لن يُجدي أبداً. لن تحصل أبداً على الطلاق الذي تريد إذا لم تركِّز على الأمر "

قال توني " حسن، سوف أتناول طعام الفطور مرة أخرى "

" في السرير، لا تنسَ "

" في السرير "، وانطلقَ يرتقي الدَرَج بضجر إلى الطابق العلوي إلى غرفته.

كانت ويني قد أزاحت الستائر لكنَّ أمها بقيَتْ نائمة. " استيقَظَتْ مرة واحدة ومن ثم تقلَّبَتْ. اجعلها تستيقظ. أريد أنْ أذهب إلى المرسى "

قال توني بحزم " ميلي، ميلي "

قالت " أوه، كم الساعة؟ "

" يجب أنْ نتناول طعام الفطور "

" لا أريد أي فطور. أعتقد أني سأنام قليلاً "

قالت ويني " لقد تناولنا الفطور "

قال توني " هيا، سيتوفر لديك الكثير من الوقت لتنامي لاحقاً. هذا ما أتينا إلى هنا من أجله "

استقامت ميلي في جلستها على السرير. قالت " حسن. ويني، حبيبتي، إعطِ الماما سترتها عن الكرسي ". كانت فتاةً مجتهدة، تؤدي عملها على أكمل وجه، مهما بدا بغيضاً. " لكنَّ الوقت مُبكِّر "

لجأ توني إلى غرفته ونزع حذاءه، وياقته وربطة عنقه، ومعطفه وصدريته، وارتدى مبذلاً.

قالت ويني " أنت جشعِ، تأكل الفطور مرَّتين "

" حين تكبرين أكثر قليلاً سوف تفهمين هذه الأشياء. إنه القانون. والآن أريد منكِ أنْ تمكثي في غرفة الجلوس مدة ربع ساعة وتلزمي الهدوء. أتعدينني؟ وبعد ذلك يمكنكِ أنْ تفعلي ما تشائين "

" هل أستطيع أنْ أسبح "

" نعم، طبعاً، إذا لزمتِ الهدوء الآن "

ولجَ توني السرير إلى جانب ميلي وشدَّ عليه مبذله حول نحره. هل يبدو هذا جيداً؟ "

قالت ميلي " كحلم الحب الغضّ "

" حسن، إذن. سأدقّ الجرس "

عندما جُلِبَتْ الصينية، خرج توني من السرير ووضع عليه ملابسه. قال " يكفيني خيانة. غريب التفكير في أنَّ هذا سيردُ وصفٌ له في الصحف على أنه " علاقة حميمة " "

" هل أستطيع أنْ أسبح الآن؟ "

" طبعاً "

استدارت ميلي لتعاود النوم. رافقَ توني ميني إلى الشاطئ. كانت الريح قد اشتدَّت وارتفع البحر حتى المرسى.

قال توني " هذه الفتاة الصغيرة تودّ أنْ تسبح "

قال حارس الشاطئ " ممنوعة سباحة الأطفال هذا اليوم "

قال عدد من الحاضرين " إنَّ الفكرة بحد ذاتها غير واردة. أيريد أنْ يُغرِق الطفلة؟ "، " ينبغي ألا يكون موضع ثقة فيما يخص الأطفال "، "وحش شاذ "

قالتويني " ولكن أريد أنْ أسبح. أنتَ قُلتَ إنني أستطيع أنْ أسبح إذا تناولت وجبتيّ فطور "

الأشخاص الذين تجمهروا ليشهدوا على ارتباك توني، تبادلوا النظرات الشذراء. " وجبتا فطور؟ أيريد للطفلة أنْ تسبح؟ إنَّ هذا الرجل مخبول "

قال توني " لا عليك، سنذهب إلى المرسى "

تبعهما عدد من الجمهور حول الآلات الشقّية، يغلبهم الفضول لمعرفة نوع العمل الشائن الجديد الذي قد يُحاول هذا الوالد المجنون أنْ يمارسه. "هذا رجل تناول وجبتيّ فطور ويُحاول أنْ يُغرِقَ ابنته الصغيرة "، هذا ما أخبروا به مُشاهدين آخرين، وهم يُتابعون بريبة محاولاته لتسلية ميني بلعبة سكي-بول. وقد أكَّدَ تصرُّف توني وِجهة النظر الإنسانية المُستمدَّة من الصحف الأسبوعية التي كانوا جميعاً يقرؤونها في صباح ذلك اليوم.

* * *

قال محامي بريندا " حسن، أصبح بين أيدينا قضية الآن، وكل شيء مُنتظم ومكتمل. ولا أعتقد أنه سيُنظر في الدعوى حتى الدورة التالية - هناك زحمة خانقة في الوقت الحاضر، ولكن لا ضير إذا حصلتِ على شاهدك منذ الآن. لقد كتبت كل شيء من أجلك. ويُستحسَن أنْ تحتفظي به وتفهميه فهماً جيداً "

"... لقد كان زواجي من الناحية التقليدية سعيداً "، كانت تقرأ، "ولكن قُبيل حلول عيد الميلاد من العام الفائت بدأتُ أشكُّ في أنَّ سلوك زوجي معي قد تغيَّر. كان يمكث دائماً في الريف عندما تتطلب دراستي مني الانتقال إلى لندن. وأدركتُ أنه لم يعُد يهتمُ بي كما كان في السابق. وبدأ يُسرِف في شرب الخمر وفي إحدى المناسبات سبب إزعاجاً في شقَّتنا في لندن، وذلك برن الجرس باستمرار وهو سكران وإرسال أصدقاء سكارى له ليقرعوا الباب. هل هذا ضروري؟ "

" ليس كثيراً، ولكن أنصحكِ بوضعه. إنَّ الاعتماد الأكبر هو على الانطباع النفسي. إنَّ القُضاة في أفضل لحظات صفاء تفكيرهم يتساءلون أحياناً ما الذي يدعو رجالاً محترمين بكل معنى الكلمة وسعداء في حياتهم الزوجية إلى الرحيل وقضاء عطلة نهاية الأسبوع على شاطئ البحر مع نساء لا يعرفونهن. ومن المفيد دائماً تقديم شهادة عن وجود انحلال خلقي عام "

قالت بريندا " فهمت، ومنذ ذلك الحين فصاعداً أرسلتُ تحريين خاصّين لمراقبته وعلى أساس النتيجة التي أبلغوني بها غادرتُ منزل زوجي في الخامس من شهر نيسان. نعم، يبدو هذا كله واضحاً تماماً "

٣

كانت الليدي سينت كلود تضمر إيماناً رجعياً بالسلطات وبالحكم السديد الخارق لرب العائلة، وعلى هذا الأساس، أول ما فعلته، لدى سماعها من مارجوري عن سلوك بريندا المتمرِّد، هو أنها أرسلت برقية تطلب فيها من ريجي أنْ يعود من تونس حيث كان منشغلاً في تدنيس

بعض القبور. ومغادرته، ككل تحركاته، تمت بتمهُّل. لم يصعد متن أول سفينة متوفرة أو الثانية، لكنه في نهاية المطاف وصل إلى لندن في يوم الإثنين بعد زيارة توني لبرايتن. وعقد اجتماعاً عائلياً سرّياً في مكتبته، وتألّفَ من أمه، وبريندا، ومارجوري، وألان والمحامي، ولاحقاً ناقشَ المسألة بشكلٍ كامل مع كلٍ منهم على حدة، فتناول طعام الغداء مع بيفر، وتناول العشاء مع جوك، بل إنه عرَّجَ على عمّة توني فرانسيس. وأخيراً، وفي أمسية يوم الخميس أعدَّ لقاءً مع توني لتناول وجبة عشاء في نادي براون.

كان يكبر بريندا بثماني سنوات، وفي أحيان قليلة كان يُلاحَظ وجود شبه مُبهم، عابر بينه وبين مارجوري، ولكن من ناحية الشخصية والمظهر كان اختلافه عن بريندا أقصى ما يمكن تصوُّره. فقد كان ممتلئ الجسم قبل الأوان، وبشكلٍ غير طبيعي، وكان يحمل ثقله من اللحم وكأنه لم يتعوَّد على ذلك بعد، وكأنما أُلصِقَ به للمرة الأولى في صباح ذلك اليوم ولا يزال يختبر أفضل طريقة لضبطه. كان هناك تقلقلٌ في مشيته وفي عينيه نظرة مختلسة وكأنه مُعرَّض في أي لحظة لكمين وأدركَ أنه معوق ظُلماً لكي لا يستطيع الطيران. لكنَّ هذا الانطباع ناشئ فقط عن مظهره الجسدي، والتجويف العميق من الدهن الذي تستقر فيها عيناه أضفى عليهما نظرة الريبة تلك، والحذر الذي تتسم به حركاته نتجَ عن جهده المبذول ليحافظ على توازنه وليس عن أي إحساسٍ بالحرج من كونه أخرق، ذلك أنه لم يكن يخطر له أبداً أنَّ مظهره غير عادي.

كان أكثر من نصف وقت ريجي سينت كلود ودخله يُنفَقان في الخارج في رحلات استكشاف أثرية متواضعة. ومنزله الذي في لندن كان

مملوءاً بثمراتها - شظايا من أوانٍ إغريقية، ورؤوس فؤوس برونزية، وكِسرات صغيرة من العِظام وعصا متفحّمة، ورأس إغريقي-روماني من الرخام، قَسَماته مطموسة وشُحِذَت حتى أضحت ملساء بمرور الزمن. وكان قد كتبَ دراستين قصيرتين عن عمله، طُبِعتا طبعة خاصة وأُهديتا إلى أعضاء الأسرة المالكة. وحين قدِمَ إلى لندن كان يحضر بانتظام اجتماعات مجلس اللوردات، وأصدقاؤه كلهم كانوا يتجاوزن الأربعين من العمر وقد ترسَّخَ الآن ومنذ بضع سنوات كعضوٍ في جيلهم، ولاتزال بعض الأمهات يعتبرنه صهراً مُحتَمَلاً.

* * *

قال ريجي سينت كلود " إنَّ قضية بريندا برمَّتها قضية مؤسفة جداً"

وافقَ توني.

" إنَّ أمي منزعجة إلى أقصى حد بشأنها، طبعاً. وأنا نفسي منزعج. ولا أمانع في الاعتراف، وبصراحة تامة، بأني أعتقد أنها تصرَّفت بحماقة شديدة، تصرّفاً أحمق وخطأ. إنني أتفهَّم تماماً انزعاجك أيضاً حول الأمر "

قال توني " نعم "

" ولكن مع ذلك، لا أعتقد أنَّ التماس العذر لمشاعرك يعني أنَّ سلوكك انتقامي في القضية "

" إنني أُنفِّذ ما أرادته بريندا بالضبط "

" يا صاحبي، إنها لا تعرف ماذا تريد. لقد قابلت ذلك الشاب بيفر بالأمس. لم أحبّه على الإطلاق. هل يعجبك؟ "

" أكاد لا أعرفه "

" حسن، أستطيع أنْ أؤكّد لكَ أنني لم أحبه. إنك الآن فقط ترمي بريندا بين ذراعيه. إلى هنا وصل الأمر، كما أرى، وأنا أسمّيه انتقامياً. طبعاً، في هذه اللحظة تعتقد بريندا أنها تحبّه. لكنّ ذلك لن يدوم. لا يمكن أنْ يحدث مع شاب مثل بيفر. سوف ترغب في العودة في غضون عام، سوف ترى. وهذا أيضاً ما يقوله ألان "

" لقد أخبرتُ ألان. أنا لا أريد عودتها "

" حسن، هذا موقفٌ انتقاميّ "

" كلا، كل ما في الأمر أنني لم أعُدْ أستطيع أنْ أشعر حيالها كما كنتُ في السابق "

" حسن، ولِمَ تشعر كالسابق؟ على المرء أنْ يتغيَّر مع تقدُّمه في السن. في الواقع، قبل عشر سنوات لم أكنْ أهتم بأي شيء يقع ما بعد العصر السومري وأؤكّد لك أنني الآن أجد حتى الحقبة المسيحية مُترعة بالمغزى "

تكلّم لبعض الوقت عن tabulae exsecrationum (الألواح الملعونة) التي اكتشفها مؤخراً. قال " كانت موجودة في كل قبر تقريباً، وتُشير في الغالب إلى جماعات السيرك، وخُطَّتْ على الرصاص. كانت في المعتاد تُسقَطْ من خلال قمع. ولقد عثرنا على ثلاثة وأربعين منها حتى الآن، قبل أنْ يقع هذا الحادث التعس، واضطررتُ إلى العودة. طبعاً أنا منزعج "

جلس قليلاً، يأكلُ بصمت. هذه الملاحظة الأخيرة أعادت المحادثة إلى نقطة بدايتها. كان جلياً أنَّ لديه المزيد ليقوله حول الموضوع وكانَ يفكِّر في أفضل مدخل إليه. كان يأكل بلا رحمة، ويمضغ طعامه بقوة

(تلك كانت في الغالب عادته، دون وعي منه، في هضم أشياء يتركها الآخرون عادةً على صحونهم، رؤوس وأذيال السمك، ولُقَم كبيرة من عِظام الدجاج، وبذور الخوخ ولب التفاح، وطبقة الجبن الخارجية والأجزاء القاسية من ثمرة الأرضي شوكي). قال " ثم، في الواقع، إنَّ اللوم لا يقع كله على بريندا "

" أنا لم أكن أفكِّر بالضبط في مَنْ عليه اللوم "

" حسن، هذا كلامٌ حسن، لكنكَ تأخذ منحى الزوج الجريح - وتقول إنكَ لم تعد تشعر كما في السابق، وما شابه. إنَّ ما أعنيه هو أنَّ الشجار يتطلَّب شخصين وأعتقد أنَّ الأمور كانت تسوء منذ بعض الوقت. فمثلاً، أنتَ كنتَ تفرط في شرب الخمر - بالمناسبة تناول المزيد من البرغندي "

" هل هذا ما قالته بريندا ؟ "

" نعم. وأنكَ تعبث مع فتيات أخريات. وكانت هناك امرأة تحمل اسماً مراكشياً كنتَ تمكث في هيتون من أجلها أثناء غياب بريندا. في الواقع، هذا كلام لا يُحتَمَل. إنني أدعم بلا تحفُّظ الذين يسلكون مسارهم الخاص، ولكن إذا فعلوا لا يحق لهم أنْ يضعوا اللوم على الآخرين، إذا فهمت ما أعني "

" أهذا ما قالته بريندا ؟ "

" نعم. لا تظن أنني أحاول أنْ ألقي عليك محاضرة أو ما شابه، ولكن كل ما أشعر به هو أنه لا يحقُّ لك أنْ تكون انتقامياً تجاه بريندا، وفق الأوضاع الحالية "

" أقالتْ إني أسكر وأُقيمَ علاقة مع المرأة ذات الاسم المراكشي؟ "

" في الواقع، لا أعلم إنْ كانت قد قالت هذا فعلاً، لكنها قالتْ إنكَ أصبحتَ تسكر في الفترة الأخيرة وأنك في الحقيقة كنتَ تُبدي اهتماماً بتلك الفتاة "

طلبَ الشاب البدين الجالس قِبالة توني خوخاً مُجففاً وكريما. وقال توني إنه انتهى من تناول عشائه.

وكان قد تخيَّلَ خلال نهاية الأسبوع السابق أن لا شيء قادر على إثارة دهشته الآن.

تابع ريجي يقول برقّة " إذن فهذا يُفسّر ما أريد أنْ أقوله. إنَّها مسألة مال. وقد فهمتُ أنه حين كانت بريندا في حالة هياج شديد بعد وفاة ابنها، وافقَتْ على بعض الإجراءات الشفوية معك حول التسويات "

" نعم، سأمنحها خمسمئة في العام "

" حسن، أعلمُ هذا، ولا أعتقد أنَّ لك أي حق في استغلال كرمها بهذا الشكل. وكانت شديدة الطيش إذ أخذت عرضك بعين الاعتبار – إنها تعترفُ الآن بأنها لم تكن في حالة طبيعية حين فعلَتْ ذلك "

" وماذا تقترحُ عوضاً عن ذلك؟ "

" دعنا نخرج ونشرب القهوة "

حين استقرا أمام نار الموقد في غرفة التدخين الخالية، أجاب "حسن، لقد ناقشتُ الأمر مع المحامين ومع العائلة وقد قرّرنا أنَّه يجب زيادة المبلغ ليصل إلى ألفين "

" هذا غير وارد في المُطلَق. ليس في مقدرتي أنْ أدفعه "

" حسن، في الواقع، أنا مضطر إلى أخذ مصالح بريندا بعين الاعتبار. إنها لا تملك إلا القليل وسينقطع موردها. إنَّ دخل أمي يأتي

من المُخصَّص الذي أدفعه لها حسب وصية والدي. ولن أستطيع أنْ أعطيها أي شيء. إنني أحاول أنْ أجمع كل ما في استطاعتي من مال للقيام برحلة استكشاف إلى إحدى الواحات في الصحراء الليبية. وذلك الشاب بيفر لا يملك أي شيء ولا يبدو أنه يكسب أي شيء. فكما ترى-"

" ولكن، يا عزيزي ريجي، أنتَ تعلم مثلي تماماً أنَّ هذا غير وارد "

" إنه أقلّ من ثلث دخلك "

" نعم، ولكن كل بنس يعود مباشرة إلى الضيعة. أتعلم أنَّ بريندا وأنا معاً لم ننفقِ نصف هذا المبلغ ِفي العام على نفقاتنا الشخصية؟ إنَّ هذا كل ما أستطيع أنْ أفعله لأحافظ على سير الأمور كما هو عليه الآن"

" لم أتوقَّع منك أنْ تتخذ هذا المنحى، يا توني. أعتقد أنَّ هذا تصرف أبعد ما يكون عن العقلانية. فقبل كل شيء، من السُخف الادّعاء في هذه الأيام أنَّ رجلاً يعيشُ وحده لا يستطيع أنْ يحيا حياة مُريحة بأربعة آلاف في العام. إنه مبلغ يُعادل ما كسبته في حياتي حتى الآن "

" إنَّ ذلك سيعني أنْ أتخلّى عن هيتون "

" حسن، أنا تخلّيتُ عن بريكيلاي، وأؤكّدُ لك، يا عزيزي، أنني لم أندم على ذلك قطُّ. لقد كانت ضيعة هزيلة في ذلك الوقت، ولكن أستطيع أنْ أقول لك ما يلي، إنه بعد أنْ تمَّ البيع في نهاية الأمر شعرتُ بأني رجل مختلف، حرٌ في أنْ أذهب إلى أي مكانٍ أشاء... "

" ولكني لا أريد أنْ أذهب إلى أي مكان ما عدا هيتون "

" هناك الكثير من المغزى فيما يقوله أولئك الكادحون، في الواقع. إنَّ المنازل الكبيرة أصبحتْ شيئاً من الماضي في إنكلترا "

" قُلْ لي، هل كانت بريندا تُدرك حين وافقت على هذا العرض أنه يعني مغادرتي هيتون؟ "

" نعم، أعتقد أنه جاء ذِكرُ هذا. وأستطيع أنْ أقول إنكَ ستجد من السهل أنْ تبيعها لمدرسة أو ما شابه ذلك. أذكُرُ أنَّ الوكيل قال عندما كنتُ أحاول التخلُّص من بريكيلاي أنه من المؤسف أنها لم تكن مبنية على الطِراز الغوطي، لأنَّ المدارس والأديرة تسعى دائماً وراء ما هو غوطي الطِراز. وأعتقد أنكَ ستحصل على سعر جيد جداً وسوف ترى نفسك أفضل حالاً مما أنت عليه الآن "

قال توني " كلا. مستحيل "

قال ريجي " إنكَ تجعل الأمور صعبة على الجميع. أنا لا أفهم لماذا تتّخذ هذا الموقف "

" زيادة على ذلك، أنا لا أصدِّق أنَّ بريندا توقَّعت مني أو أرادتني أنْ أوافق "

" أوه نعم، بل فعلتْ، يا صديقي العزيز. أؤكِّدُ لك "

" هذا لا يُصدَّق "

قال ريجي، وهو ينفخ دخان سيجاره، " حسن، إنَّ الأمر يتجاوز المسألة المالية. وربما من الأفضل أنْ أخبرك كل شيء. لم أكن أنوي أنْ أفعل. الحقيقة هي أنَّ بيفر يستشيط غضباً. ويقول إنه لا يمكن أنْ يتزوج بريندا إلا إذا أعالته بشكلٍ جيد. ويقول، إنَّ هذا ليس عدلاً لها. وأنا أتفهَّم إلى حدٍ ما وجهة نظره "

قال توني " نعم، وأنا أتفهَّم وجهة نظره. إذن ما يصل إليه عرضك هو أنَّ عليَّ أنْ أتخلّى عن هيتون لكي أشتري بيفر لبريندا "

قال ريجي " ليس مهمّاً كيف كان يجب أصوغ العَرض "

" حسن، لن أفعلْ وهذا آخر الكلام. إذا كان هذا كل ما تريد أنْ تقوله، ويمكنني أيضاً أنْ أغادرك "

" كلا، ليس هذا بالضبط ما أريد أنْ أقوله. في الواقع أعتقد أني صغت الأمور بشكلٍ سيء. إنَّ ذلك نتيجة محاولة المُغالاة في احترام مشاعر الناس. في الواقع، لم أكن أطلب منكَ أنْ توافق على أي شيء بقدر ما كنتُ أشرح ما يقترح طرفنا فعله. لقد حاولت أنْ أجعل كل شيء يتم على أساسٍ وديّ ولكني أرى أنَّ هذا مستحيل. سوف تطلب بريندا نفقةً مقدارها ألفا جنيه في العام من المحكمة وسوف نحصل عليها بالاعتماد على شاهدنا. أنا آسف لأنكَ اضطررتني إلى إبلاغك هذا بفظاظة شديدة "

" أنا لم أفكّر في ذلك "

" كلا، ولا نحن، بصراحة تامة. لقد كانت فكرة بيفر "

" يبدو أنكَ وضعتني في موقف لا خلاص منه أبداً "

" ما كان ينبغي أنْ أصوغه بهذا الشكل "

" أود أنْ أتأكَّد بصورة مُطلقة من أنَّ لبريندا يداً في هذا. هل تمانع في أنْ أتصل بها هاتفياً؟ "

" أبداً، يا صديقي العزيز. ويتصادفُ أني أعلم أنها في منزل مارجوري هذه الليلة "

* * *

" بريندا، أنا توني... كنتُ أتناول طعام العشاء مع ريجي "

" نعم، لقد ذكرَ شيئاً كهذا "

" إنه يُخبرني أنكِ ستقاضينني من أجل الحصول على نفقة. أصحيحٌ هذا؟ "

" توني، لا تتنمَّر. إنَّ المحامين يتكفّلون بكل شيء. لا فائدة من اللجوء إليّ "

" ولكن هل تعلمين أنهم عزموا على طلب ألفيّ جنيه؟ "

" نعم. هذا ما قالوه فعلاً. أعلمُ أنَّ المبلغ يبدو كبيراً ولكن... "

" وأنتِ تعرفين بالضبط كيف هو وضعي المالي، ألا تعرفين؟ تعرفين أنه يعني بيعَ هيتون، أليس كذلك؟... ألو، هل تسمعين؟ "

" نعم، أسمع "

" تعرفين أنه يعني هذا؟ "

" توني، لا تجعلني أشعر كأني وحش. إنَّ كل شيء كان شديد الصعوبة "

" أتعرفين ما الذي تطلبينه؟ "

" نعم... أعتقد ذلك "

" حسن، هذا كل ما أردتُ معرفته "

" توني، يبدو صوتك غريباً... لا تنهِ المحادثة "

وضع السمّاعة وعادَ إلى غرفة التدخين. وفجأة انجلى ذهنه وصفا بشأن نقاط عديدة كانت تُحيّره. انهارَ عالمٌ غوطيٌّ بأكمله.. لم يعُد هناك أي دروع تلمع في فجوات الغابة المُضيئة، ولا أقدام مُزركشة على المرج الأخضر، وهربت أُحادية القرن بلونها الشاحب والمُنقَّطة...

جلس ريجي متمدداً على الكرسي. " ماذا؟ "

" اتصلتُ بها. كنتَ على حق. أنا آسف لأنني لم أصدّقكَ. لقد بدا الأمر بعيد الاحتمال في أول الأمر "

" لا بأس، يا صديقي العزيز "

" لقد قرَّرتُ بالضبط ما الذي سيحدث "

" عظيم "

" لن تحصل بريندا على طلاقها. الشاهد الذي حصلتُ عليه في برايتن لا يساوي أي شيء. لقد كانت هناك طفلة طوال الوقت. ونامت في الليلتين في الغرفة التي كان من المفترض أنْ أشغلها. وإذا أردتَ إثارة القضية سوف أفنّدها وأكسبها، ولكن أعتقد أنكَ بعد أنْ ترى شاهدي سوف تتخلى عنها. إنني مُسافر مدة ستة أشهر أو نحوها. وعندما أرجع سأطلّق بريندا، إذا رغبت في ذلك، من دون تسويات من أي نوع. أهذا واضح؟ "

" ولكن اسمع، يا صديقي العزيز "

"أسعدتَ مساءً. شكراً على العشاء. أتمنى لك التوفيق في حفرياتك"

في طريقه إلى النادي لاحظَ أنَّ جون بيفر المنتسب إلى نادي برات مُرشَّح للانتخابات.

* * *

سألتْ بولي كوكبيرس " مَنْ كان يظن أنَّ الرجل العجوز سينقلب إلى هذا الحال؟ "

قالت فيرونيكا " الآن فهمت لماذا لا يكفّون في الصُحف عن الحديث عن إصلاح قانون الطلاق. إنَّ تركه يفلت بفعلته أمر فظيع "

قالت سوكي " إنَّ الخطأ الذي ارتكبوه يكمن في إخباره أولاً "

قالت جيني عبد الأكبر "إنَّ من شيَم بريندا أنْ تثِق في كل شخص"

* * *

قالت مارجوري " أعتقد أنَّ توني خرج من هذا بصورةٍ ذريّة "

قال ألان " أوه، لا أدري، أعتقد أنَّ أخاكِ الجحش عرضَ الأمر بشكلٍ خاطئ "

الفصل الخامس

بحثاً عن مدينة

١

" ألديك فكرة كم دورة حول ظهر المركب تُعادل ميلاً؟ "

قال توني " أخشى أنه لا فكرة لدي. ولكني أعتقد أنَّكَ ستكون قد مشيتَ مسافة طويلة "

" اثنتان وعشرون دورة. في البحر يشعر المرء بالاضطراب إذا كان متعوِّداً على الحياة الحيوية. وهذه السفينة ليست جيدة جداً. هل تسافر على هذا الخط غالباً؟ "

" لم أفعل قبل الآن "

" أه. حسبتُ أنكَ ربما كنتَ في رحلة عمل إلى الجُزُر. ليس كثير من السياح يخرجون في مثل هذا الوقت من العام. بل على العكس. كلهم يعودون إلى الوطن، إذا فهمتَ قصدي. أذاهب إلى مكانٍ بعيد؟ "

" إلى ديميرارا "

" أه. بحثاً عن المعادن ربما؟ "

" كلا، في الحقيقة أنا أبحث عن مدينة "

دُهِشَ المسافر اللطيف ومن ثم ضحك. " حسِبتُ أني سمعتكَ تقول إنكَ تبحث عن مدينة "

" نعم "

" أقلتَ هذا فعلاً؟ "

" نعم "

" هذا ما حسبتُ أني سمعت... حسن، إلى اللقاء. يجب أنْ أقوم ببضع دورات قبل موعد العشاء "

انطلقَ يعدو على ظهر السفينة بخُطى مُفرشخة قليلاً، لكي يُحافظ على توازنه ويمدّ يداً أحياناً نحو السياج طلباً للدعم.

كان هذا الرجل يمرُّ به مرةً كل ثلاث دقائق على مدى الساعة الأخيرة. في أول الأمر كان توني يرفع بصره لدى ظهوره ومن ثم يُبعد نظره ثانية، نحو البحر. وكان الرجل يومئ برأسه، ويقول " مرحبا " أو " أصبحتُ مترهلاً قليلاً " أو " ها أنا ذا من جديد "، وأخيراً توقَّفَ وفتحَ حديثاً.

انتقلَ توني إلى مؤخر السفينة لكي يكسر ذلك السياق المتسلسل المُحرِج. هبط الدَرَج المؤدي إلى أسفل ظهر السفينة. هنا، في أقفاص دُفِعَتْ جانباً، كانت تشكيلة من المواشي - بعض ثيران الاستيلاد، وحصان سباق دُثِّرَ ببطانيات ثقيلة، وزوج من كلاب الصيد القصيرة القوائم، لتُصدَّر إلى جُزُر مختلفة في الهند الغربية. شقَّ توني طريقه الضيِّق بينها وخلال الفتحات المؤدية إلى مؤخر السفينة، وهناك جلسَ وظهره مُستند إلى رافعة يُراقب الأفق يرتفع فوق المداخن، ومن ثم يهبط إلى أنْ تقف سوداء في وجه السماء التي تزداد قتامة. كانت درجة الميل هنا معقولة أكثر منها في وسط السفينة، والحيوانات تنجرف باضطراب داخل حظائرها المكتظّة، والكلاب تئن على فترات متقطّعة. أنزل أحد البحّارة عن أحد الحبال غسيلاً كان يُرفرفُ هناك طوال النهار.

كان غسيل السفينة يضيعُ بسرعة وسط الأمواج العاتية. كانوا يُبحرون جهة الغرب في القناة. ومع تقدُّم الليل، ظهرت المنارات تومضُ من الشاطئ الفرنسي. وفي الحال راح أحد الخدم يجول في أرجاء سطح السفينة العلوي البرّاق وهو يقرع جرساً ذا حواف من النحاس، والمسافر اللطيف هبط إلى أسفل ليستعد لوجبة العشاء بمياه البحر الحارة التي كانت تتلاطم من طرفٍ إلى طرف من الحمّام وأذابت الصابون في مياه قذرة رقيقة ولزجة. وكان هو الرجل الوحيد الذي تأنَّقَ في ملبسه في تلك الليلة : جلسَ توني في الظلام الحالك حتى قرع الجرس الثاني. ثم ترك معطفه الضخم في المقصورة وهبط ليتناول طعام العشاء.

كانت تلك الليلة الأولى على متن السفينة.

جلسَ على مائدة القبطان، لكنَّ القبطان نفسه كان واقفاً على الجسر. كانت هناك كراسٍ شاغرة على كِلا جانبيه. لم يكن البحر هائجاً إلى درجة انزياح واقيات الصحون من السقوط عن مكانها، لكنَّ الخدم كانوا قد أزالوا أواني الزهور وبلَّلوا المفرش لجعله يلتصق. وجلس قبالته رئيس شمامسة ملوَّن. أكل بتهذيب جمّ لكنَّ ظاهر يديه بدتا ضخمتين على المفرش الرطب المائل إلى البياض. قال " أخشى أنَّ طاولتنا ليست متألقة هذه الليلة. أرى أنكَ لا تعاني. زوجتي في المقصورة. وهي تعاني"

قال لتوني إنه عائد من مؤتمر عام.

في أعلى الدَرَج كانت هناك ردهة اسمها الموسيقى وحجرة للكتابة. كانت الإضاءة هناك دائماً خافتة، نهاراً بسبب الزجاج الملوَّن للنوافذ، وليلاً بسبب مظلات الحرير الوردية اللون التي تُخفي الشموع الكهربائية. هنا اجتمعَ المسافرون ليتناولوا قهوتهم، وهم جالسون على أرائك طويلة

ضخمة مكسوةٌ بالقماش أو على كراسٍ دوّارة لا يمكن نقلها مُثبّتة أمام طاولات كتابة. هنا أيضاً كان الخادم يُشرف لمدة ساعة في كل نهار على خزانة الكتب التي تؤلّف مكتبة السفينة.

قال المسافر اللطيف، الجالس إلى جوار توني، " إنها ليست سفينة جيدة. ولكن أتوقّع أنْ تصبح الأشياء أكثر إشراقاً عندما نصل إلى مكانٍ تسطع فيه الشمس "

أشعلَ توني سيجاراً وأخبره أحد الخدم أنّه ينبغي ألاّ يُدخَّن في هذه الغرفة. قال المسافر اللطيف " لا بأس، سننزل تواً إلى البار "، ثم قال بعد قليل، " في الواقع، أنا أشعر أنني أدين لك باعتذار. لقد اعتقدتُ أنكَ مُترفّع قبل العشاء بقليل. صدقاً هذا ما اعتقدته، حين قلتَ إنكَ ذاهب إلى ديميرارا بحثاً عن مدينة. حسن، هذا الكلام بدا مترفّعاً جداً. ثم ضابط المُحاسبة - أنا أجلس على طاولته. دائماً تجتمع ثلة مرحة على طاولة ضابط المُحاسبة وأفضل مُعاملة - لقد أخبرني ضابط المُحاسبة عنك. أنتَ المُكتشِف، أليس كذلك؟ "

قال توني " نعم، عند التفكير في الأمر، أعتقد أني كذلك "

لم يكن من السهل عليه أنْ يُدرك أنه مُكتشف. فقبل أسبوعين فقط أصبحَ كذلك. وحتى بوجود قفَصين كبيرين، يحملان رقعتين تقولان غير مرغوب فيه في الرحلة - واحد يحتوي ممتلكات غريبة وجديدة كصندوق من الأدوية، ومسدس آلي، ومُعدّات تخييم، وسروج تحميل، وآلة تصوير سينمائي، ومتفجرات، ومبيدات حشرية، وزورق خفيف قابل للطي، ومرشحات، وزبد مُعلّب، وأغربها على الإطلاق، تشكيلة مما يُسمّيه الدكتور ماسنجر " بضائع للتجارة " - لم يقتنع تماماً بالطبيعة

الجادّة لرحلته الاستكشافية. كان الدكتور ماسنجر قد رتَّبَ كل شيء. فهو الذي انتقى الصناديق الموسيقية والجرذان الآلية، والمرايا، والأمشاط، والعطور، وأقراص الدواء، وصنانير الصيد، ورؤوس الفؤوس، والصواريخ الملوَّنة ولفائف قماش الحرير الصناعي، مضبوبة داخل صندوق " بضائع التجارة ". والدكتور ماسنجر نفسه كان أحد معارفه الجُدُد الذي بدا في ذلك اليوم، وكان عندئذٍ متمدداً على سريره المُبيَّت وهو في حالةٍ وصَفَها رجل الدين الأسود بـ " معاناة "، بدا في ذلك اليوم، وللمرة الأولى منذ أنْ قابله توني، إنساناً بكل معنى الكلمة.

لم يكن توني قد سافر إلى الخارج إلا نادراً. ففي سن الثامنة عشرة، وقبل التحاقه بالجامعة، أقامَ خلال فصل صيف مع رجلٍ عجوز بالقرب من تور، في نيّةِ أنْ يتعلَّم اللغة. (... في منزلٍ من الحجر الرمادي مُحاط بالكرمة. كان هناك كلب سبانييل مُحنَّط في الحمّام، أطلقَ عليه العجوز اسم " Stop " لأنه كان من باب الأناقة في ذلك الوقت إطلاق أسماء إنكليزية على الكلاب. وكان توني قد قطعَ دروباً بيضاء مستقيمة ليقوم بزيارة القصر، وحمل معه شطائر الخبز ولحم العجل البارد مربوطة إلى خلفيّة الدراجة، فتسلَّل الغبار إليها من خلال الورقة وشعر بحبيباته تحت أسنانه. وكان هناك صبيّان إنكليزيان آخران، وهكذا تعلَّم القليل من الفرنسية. كان أحدهما عاشقاً والآخر ثملَ للمرة الأولى بشرب الفوفراي البراقّة في احتفالٍ أُقيمَ في المدينة. في مساء ذلك اليوم ربحَ توني حمامة حيّة في سحب يانصيب التومبولا، فأطلقَ سراحها ولاحقاً شاهدها وهي تؤسَر على يد صاحب كشك بشبكة اصطياد الفراشات...) ولاحقاً أيضاً ذهبَ إلى وسط أوروبا لقضاء بضعة أسابيع مع صديقٍ من

باليول. (وفجأةً وجدا نفسيهما وقد أصبحا ثريين وعاشا حياة فخمة لم يعتادا عليها في أضخم جناح في فندق. وكان توني قد اشترى فرواً مقابل بضعة شلنات وأعطاه لفتاة في ميونيخ لم تكن تعرف أي كلمة إنكليزية) ولاحقاً أيضاً أمضى شهر العسل مع بريندا في دارةٍ، استأجراها، على شاطئ الريفييرا الإيطالي. (... فيها أشجار سرو وزيتون، وكنيسة ذات قُبّة تقع في منتصف الطريق أسفل التل، وبين الدارة والمرفأ، هناك مقهى جلسا فيه في المساء، يُراقبان قوارب الصيد والأضواء المعكسة على صفحة المياه الساكنة، في انتظار صدور صوتٍ قوي مُفاجئ مع وصول الزورق البخاري السريع. كان يملكه موظف رسمي شاب مندفع، أسماه " فتاة الجاز ". وبدا أنَّه يقضي عشرين ساعة في اليوم مندفعاً من وإلى المرفأ الصغير...). وذات مرة ذهب هو وبريندا إلى لو توكيه مع فريق نادي برات للغولف . وهذا كل شيء. وبعد وفاة والده لم يُغادر إنكلترا. لم يكن في مقدورهما تحمُّل نفقات ذلك بسهولة، كان ذلك أحد الأشياء التي أرجأا القيام بها بعد تسديد تكاليف الوفاة، زيادة على ذلك، لم يكن يحب مغادرة هيتون، وبريندا لم تكن تريد أنْ تترك جون أندرو.

وهكذا لم يكن توني يحمل الكثير من الأفكار الطموحة فيما يخص السفر، وحين قرَّر أنْ يسافر إلى الخارج كان أول ما فعله أنّه اتّصلَ بوكالة للسياحة وانطلقَ مُحمّلاً بحزمة من النشرات التمهيدية ذات الألوان البرّاقة، تُعلِنُ عن رحلات بحرية مُريحة بين أشجار النخيل، والفتيات الزنجيات وأطلال الأقواس. كان راحلاً لأنَّ ذلك بدا التصرُّف المتوقَّع من زوجٍ في مثل ظروفه، ولأنَّ تداعيات هيتون كانت تسمِّم

عقله، ولأنه أراد أنْ يعيش بضعة أشهر بعيداً عن الأشخاص الذين يعرفونه أو يعرفون بريندا، ويرتاد أماكن ليس من المتوقع أنْ يُقابلها فيها أو بيفر أو ريجي سينت كلود في كل ركنٍ يرتاده، ومع هذا الشعور بالتملُّص المُهيمن على تفكيره، تناول النشرات ليقرأها في نادي غريفل. كان قد انتسب إليه منذ بضع سنوات، لكنه نادراً ما استَغل عضويته فيه، وقد أُرجئت استقالته فقط بإسقاطه المتكرر لإلغاء الحوالة المصرفية من أجل اكتتابه. والآن وقد أصبح يبغض نادي برات ونادي براون شعر بالامتنان لأنه بقيَ عضواً في نادي غريفل. كان من النوادي المُفضّلة لدى المثقَّفين، يضمُّ عمداء جامعات، وحفنة من الكتّاب وموظفين رسميين في متاحف وفي جمعيات ثقافية، يتميَّز بتراثٍ من الثرثرة، لذلك لم يُدهَش حين خاطبه عضو لا يعرفه، وهو جالس على أريكة تُحيط به ملفّاته المُصوَّرة، وسأله إنْ كان يُفكِّر في الرحيل. ودُهِشَ أكثر حين رفعَ بصره وتفحَّصَ السائل.

على الرغم من صِغَر سن الدكتور ماسنجر إلا أنه كان يُنمّي لحية، وكان أيضاً ضئيل الحجم جداً، وملفوحاً بأشعة الشمس وأصلع قبل الأوان، وسرعان ما تلاشت السُمرة المتوردة لوجهه على طول خط جبينه، المقوَّس على شكل قُبّة ورديّة شاحبة، كان يضعُ نظارات ذات حافة من الفولاذ وكان هناك شيء في بذلته الجوخ الزرقاء أوحى بأنَّ لابسها يجدها غير مُريحة.

اعترفَ توني بأنه يفكِّرُ في الذهاب في رحلة بحرية.

قال الدكتور ماسنجر " قريباً سأرحل إلى البرازيل. على الأقلّ قد تكون البرازيل أو غينيا الهولندية. لا يمكن لأحد أنْ يعرف. فالحدود لم

تُرسَم أبداً. كـان يجب أنْ أنطلق في الأسبـوع الفـائت، لكنَّ خططي تعثَّرتْ. هل يتصـادف أنكَ تعرف شخصاً من نيكاراغوا يُسمّي نفسه بالتناوب بونسونبي وفيتزكلارينس؟ "

" كلا، لا أعتقد أني أعرفه "

" أنت محظوظ. ذلك الرجل سرق مني مئتي جنيه وبعض المسدسات الرشاشة "

" مسدسات رشاشة؟ "

" نعم، إنني أسافر مع واحد أو اثنين، من أجل التباهي في الغالب، كما تعلم، أو للمتاجرة، وليس من السهل شراؤها في هذه الأيام. هل حاولتَ أنْ تفعل يوماً؟ "

" كلا "

" حسن، صدِّقني إنَّ ذلك ليس أمراً سهلاً. لا يمكنك أنْ تدخل محلاً تجارياً هكذا ببساطة وتطلب مسدسات رشاشة "

" كلا، لا أعتقد ذلك "

" ومع هذا، عند الضرورة أستطيع الاستغناء عنها. لكنني لا أستطيع أنْ أستغني عن مئتي جنيه "

كان توني يضع على ركبتيه صورة فوتوغرافية لمرفأ في أغادير. نظر الدكتور ماسنجر إليها عبر كتفيه. قال " أه نعم، مكان صغير مُثير للاهتمام. أعتقد أنكَ تعرف زينغرمون هناك؟ "

" كلا، أنا لم أذهب إلى هناك بعد "

" سوف تحبه - رجل شديد الاستقامة. كان يقوم بأعمال كثيرة، يبيع ذخائر لزعماء منطقة جبال الأطلس قبل معاهدة الصلح. طبعاً كان

مالاً سهلاً مع وجود الامتيازات الأجنبية، لكنه أنجزَ ذلك أفضل من غالبيتهم. أعتقد أنه يُديرُ مطعماً الآن في موغادور "، ثم تابع يقول بصوتٍ حالم، " الأمر المؤسف هو أنني لا أستطيع أنْ أُشرِك الجمعية الجغرافية الملكية في هذه الرحلة الاستكشافية. يجب أنْ أجد المال وحدي"

كانت الساعة قد بلغت الواحدة وبدأتْ الغرفة تمتلئ، كان أحد علماء المصريات يعرض ملء منديلٍ من الخنافس السوداء أمام مُحرر لصحيفةٍ كنسيّة أسبوعية.

قال الدكتور ماسنجر " يُستحسن أنْ نذهب ونتناول طعام الغداء "

لم يكن في نيّة توني أنْ يتناول طعام الغداء في نادي غرينفل لكنَّ كان هناك شيء في الدعوة أجبره على قبولها، وزيادة على ذلك، لم تكن لديه ارتباطات أخرى.

تناول الدكتور ماسنجر كعكة التفاج والأرز. (" قال " يجب أنْ أكون حريصاً بشأن أكلي "). وأكل توني شريحة باردة من لحم البقر وفطيرة الكبد. جلسا عند نافذة في غرفة الطعام في الطابق العلوي. وسرعان ما امتلأت الأماكن الشاغرة من حولهما بأعضاءٍ تمادوا فأوصلوا تراث المحادثة العامة إلى درجة الاسترخاء على كراسيهم وتجاذب أطراف الحديث من فوق أكتافهم من طاولة إلى طاولة - وهو نشاط أعاقَ إلى حدٍ بعيد أداء الخدمة غير المثالية. لكنَّ توني بقيَ غائباً عن كل ما كان يُقال، واستغرقَ فيما كان يُخبره به الدكتور ماسنجر.

"... في الواقع، كان هناك تقليد مستمر حول المدينة منذ أيام المستكشفين الأوائل في القرن السادس عشر. وقد حُدِّدَ موقعها في أماكن مختلفة، فتارة في ماتو غروسّو، وطوراً في أعالي نهر أورينوكو

فيما أصبح يُعرَف الآن بفنزويلا. أنا نفسي كنتُ أعتقد أنها تقعُ في مكان ما من اليوراريكويرا. وقد ذهبتُ إلى هناك في العام الفائت وهناك أقمتُ اتّصالاً مع هنود البي-وي، ولم يكن أي رجلٍ أبيض قد قام قبل ذلك بزيارتهم وعاد حياً. ومن قبائل البي-وي تعلّمتُ أين أبحث. لم يكن أيٌ منهم قد زار المدينة قبل ذلك، طبعاً، لكنهم كانوا يعلمون بوجودها. كل الهنود ما بين سيوداد بوليفار وبارا يعلمون بأمرها. لكنهم لم يتكلموا. قوم غريبو الأطوار. لكني أصبحتُ أخاً في الدم مع أحد أفراد البي-وي - ولهم مراسم غريبة. فقد دفنوني حتى العنق في الطين وأخذت نساء القبيلة كلّهن يبصقنَ على رأسي. ثم أكلنا شرغفاً وحيّة وخنفساء وبعد ذلك أصبحت أخاً له في الدم - في الواقع، لقد أخبرني بأنّ المدينة تقعُ بين الروافد العليا لنهري الكورنتاين وتاكوتو. هناك درب شاسع لبلد لم يُكتَشَف. وأنا دائماً أفكّرُ في زيارتها.

" أنا أيضاً كنتُ أبحث في الناحية التاريخية، وأعلمُ بصورةٍ أو بأخرى كيف أُقيمَتْ المدينة هناك. كان ذلك نتيجة هجرة انطلقَتْ من البيرو في بداية القرن الخامس عشر، عندما كان شعب الإنكا في ذروة قوته. وقد وردَ ذكرها في كل الوثائق الإسبانية المُبكِّرة بوصفها أسطورة شعبية. فقد تمرَّد أحد الأمراء الشبان وقاد شعبه إلى عمق الغابة. وكان لدى مُعظم القبائل تراث متوارث بصيغةٍ أو بأخرى عن سلالة غريبة مرَّتْ من منطقتهم "

" ولكن ماذا تعتقد سيكون شكل تلك المدينة؟ "

" لا يمكن التكهُّن. إنَّ كل قبيلة لها كلمتها في ذلك. فالبي-وي ينعتونها بالـ " المشرقة " أو " المتلألئة "، والأريكونا يسمّونها " الغزيرة

المياه "، والباتاغونيون يصفونها بالـ " ذات الريش البرّاق "، والواراو، وهم الأغرب، يستخدمون في وصفها الكلمة نفسها التي يستخدمونها لاسم مربّى عطِرة الرائحة يصنعونها. طبعاً، لا يمكن معرفة كيف تطوَّرت الحضارة أو انحطَّتْ خلال خمسمئة عام من العزلة... "

قبل أنْ يُغادر نادي غرينفل في ذلك اليوم، مزَّقَ حزمة المنشورات التمهيدية عن الرحلة البحرية، لأنه كان قد أعدَّ العُدّة للانضمام إلى الدكتور ماسنجر في رحلته الاستكشافية.

* * *

" أقُمتَ بهذا النوع من الأشياء كثيراً؟ "

" كلا، أقول لك الحق هذه هي المرة الأولى "

" آه، حسن، يمكنني القول إنها أشدّ إثارة للاهتمام مما تبدو "، هكذا سلَّمَ المسافر اللطيف، " وإلا لما كَرَّرَ الناس القيام بها "

كانت السفينة، بقدر ما ساهم اعتبارُ الراحةِ في تصميمها، قد بُنيَتْ من أجل المناطق الاستوائية. كان الجو في غرفة التَدخين أكثر برودة بقليل مما هو عليه على ظهر السفينة. توجه توني إلى مقصورته واسترجعَ قلنسوته ومعطفه الضخم، ومن ثم رجعَ إلى مؤخر السفينة من جديد، إلى المكان الذي كان يجلس فيه قبل العشاء. كان الليل خالياً من النجوم ولا شيء يرى بعد المنطقة الصغيرة المُضاءة حول السفينة، ما خلا منارة وحيدة تومضُ ومضات قصيرة–طويلة، قصيرة–طويلة، بعيداً على قوس الميناء. استقبلَت طبقات الأمواج الانعكاسَ المنبعثَ من سطح النزهة[16] وشعَّ برهة قبل أنْ يغوص متلاشياً داخل الأعماق القاتمة خلفها. كانت الكلاب قد استيقظت، وهي تئن.

---

١٦ – سطح النزهة : هو الجزء من سطح السفينة الذي يتنزّه عليه المسافرون . – المترجم

مرَّت بضعة أيام كان عقل توني خالياً خلالها من التفكير في أحداث الماضي القريب. كان ذهنه مشغولاً بالمدينة، المُشعّة، الغزيرة المياه، ذات الريش البرّاق، كمذاق المربّى العطِرة. كان يحملُ صورةً لها في ذاكرته. كانت غوطيّة الطابع، فيها الكثير من دوّارات الريح والأبراج المُستدقّة، ورؤوس الغرغويل، وفتحات إطلاق النار، والأقواس المتداخلة والزخرفة التشجيرية، والسرادقات والمصطبات، هيتون مُجسَّدة، وأعلامٌ ورايات ترفرفُ في وجه النسيم العليل، وكل شيء يشعُ بالضياء وشفّاف، وثمة قلعةٌ مرجانيّة اللون تتوِّجُ أعلى تلٍ أخضر مزروع بأزهار الربيع، بين الكروم والجداول، ومشهد عام كقطعة قماشٍ مطرَّزة بالحيوانات الرائعة والفخمة، والبراعم المتناغمة، والمتنافرة.

تقاذفت الأمواج السفينة وهي تشق طريقها في المياه المظلمة نحو هذا الملاذ المُشعِ.

" أتساءلُ إنْ كان هناك مَنْ يفعل أي شيء من أجل تلك الكلاب "، هذا ما قاله المسافر اللطيف، الذي وصل إلى جواره. " سوف أسأل ضابط المحاسبة غداً. يجب أنْ نأخذها في نزهة قليلاً. إنَّ الطريقة التي تُعامَلُ بها تدعو إلى الأسى "

* * *

في اليوم التالي أصبحوا في عرض المحيط الأطلسي. أمواجٌ ثقيلة ترتفع فوق أعماقٍ عويصة، مُظلمة. مُرقّشة بالزَبَد على سطح الأمواج، كأرضٍ منخفضة، في حين صمدت الثلوج في وجه الذوبان في الأماكن العالية، المكشوفة. رمادية بلون الرصاص والأردواز تحت أشعة الشمس، ولون الزيتون، وزُرقة الحقل وكاكي كالزي الرسمي في ساحة المعركة،

السماء فوق الرؤوس بلا لون وأشبه بالفولاذ، وغيومٍ منتفخة تعدو عبرها، مانحةً فترات نادرة من أنصاف الساعة من أشعة الشمس. تمايلتْ السواري ببطءٍ في وجه السماء وجاشت المنحنيات وتخبَّطَتْ تحت خط الأفق. والرجل الذي صادقَ توني خرج يتمشّى على سطح السفينة مع كلبين. كانت تشدّ نهاية السلاسل، وتشمُّ بالوعات السفينة، وكان الرجل يترنَّحُ خلفها بغير توازن. كان يستخدمُ نظارة سباق ليُلقي من خلالها أحياناً نظرة شاملة على البحار، وكان يُعطيها لتوني كلما تقابلا.

قال " كنتُ أتحدثُ مع عامل المذياع. سوف نقترب كثيراً من قلعة يلارماوث عند حوالي الساعة الحادية عشرة "

كان عدد من المسافرين يتمشّون. والذين صعدوا إلى سطح السفينة تمدَّدوا على كراسٍ طويلة على الجانب الظليل، يتأملون، وهم متدثرون بدِثار من الصوف المُقلَّم. لزم الدكتور ماسنجر مقصورته. وذهب توني ليقابله فوجده خدِراً، لأنه كان يتناول جرعات من المنوِّم. ونحو المساء نشطَتْ الرياح وبحلول موعد العشاء كانت قد أضحت عاتية، كانت كوى السفينة مُغلقة بإحكام ووضعَتْ كل الأغراض القابلة للكسر على أرض المقصورات، وتسبَّب التمايُل بكسرِ عددٍ من فناجين القهوة في غرفة الموسيقى والقراءة. وفي تلك الليلة لم يغفل جفن أحد على متن السفينة، وصرَّتْ الصفائح، وقُذِفَ بالأمتعة من جدارٍ إلى جدار. ثبَّتَ توني نفسه بسريره بحزام نجاة وأخذ يفكِّر في المدينة.

... سجادة وظِلة سرير، قماش مُزخرف ومخمل، شعرية تحصين وجزء ناتئ من حصن، طائر الماء على الخندق وعشب الحوذان على طول حافته، وطواويس تُجرجرُ ريشها المُبهرَج عبر المروج، وعالياً فوق الرؤوس

في سماءٍ بلون زُرقة الياقوت أجراسٌ فضية بلون ريش التمّ تقرعُ في بُريجٍ من المرمر.

أيامٌ من الظل والإرهاق، الرياح المالحة والضباب، نفير الضباب والأنين المتواصل وصرير المعدن المشدود. ثم زال هذا كلّه، بعد جزر الآزور. أزيلت المظلات ونقل المسافرون كراسيهم لتواجه الريح. منتصف الظهيرة وناقلة فحم مُسطّحة، والمياه الزرقاء ترتطم بجوانب السفينة، وتتماوج مبتعدة خلفها نحو الأفق، أجهزة غرامافون ولعب كرة مضرب على السطح، وحقول براقة من الأسماك الطائرة (" انظر، يا إرني، تعال بسرعة، هناك سمكة قرش "، " هذا ليس قرشاً، إنه دلفين "، " السيد برينك قال إنه خنزير البحر "، " ها هو يظهر من جديد. أوه، ليت كان معي آلة التصوير ")، مياه صافية، ساكنة، والدوران والخطو المنتظمان، كانت هناك أيدٍ كثيرة تُداعب الكلاب التي أخذت تتقافز في المكان. واقترحَ السيد بلينك وسط الضحك أنه سيتدرب على حصان السباق، أو بمزيد من الأفكار المُبدعة، الثور. جلسَ السيد برينك على مائدة ضابط المُحاسبة مع الجمع المرح.

تركَ الدكتور ماسنجر مقصورته وظهر على ظهر السفينة وفي قاعة الطعام. وكذا فعلتْ زوجة الأرشيدوق، كانت أنصع بياضاً بكثير من زوجها. وعلى جانب توني الآخر على المائدة جلستْ فتاة اسمها تيريز دو فيتريه. وكان قد لاحظَ وجودها مرةً أو مرتين خلال الأيام المكفهرّة، قامة بائسة تكاد تضيع بين معاطف الفرو والوسائد والبطاطين، وجه صغير شاحب اللون ذو عينين سوداوين واسعتين. قالت " الأيام الأخيرة كانت رهيبة. شاهدتك تمشي في المكان. كم حسدتكَ "

" ينبـغي أنْ أحـافظ على هدوئي طوال الطريق الآن "، ثم أضـاف كنتيجة حتمية، " هل أنتِ ذاهبة بعيداً؟ "

" إلى ترينيداد. إنها وطني... حاولتُ أنْ أقرِّر مَنْ تكون من لائحة المسافرين "

" وهل عرفتِ مَنْ أكون؟ "

" حسن... شخصاً اسمه الكولونيل سترابر "

" أأبدو عجوزاً إلى هذا الحد؟ "

" وهل الكولونيلات عجائز؟ لم أكنْ أعلم. ليس لدينا منهم الكثير في ترينيداد. الآن بتُّ أعرفُ مَنْ أنت لأنني سألتُ رئيس الخدم. أخبرني عن رحلتك الاستكشافية "

" يُستحسن أنْ تسألي دكتور ماسنجر. إنه يعرف عنها أكثر مني "

" كلا، أخبرني أنت "

كانت في الثامنة عشرة، ضئيلة الحجم وسمراء غامقة، بوجهٍ اختفى داخل ذقنٍ مُدببة ناعمة بحيث أنْ الانتباه ينجذب إلى العينين الجادّتين والجبين العالي، ولم يكن جسمها قد تجاوز امتلاءَ أيامِ المدرسةِ وكانت تتنقَّل بهيئة جذلة، وكأنها قد أزاحتْ عن كاهلها مؤخّراً ثقلاً ولم ترزح بعدُ تحت أثقالٍ أخرى ستخلِفها. وكانت قد أمضَتْ عامين في مدرسة في باريس.

"... بعضنا كنّ يحتفظنَ بأحمر شِفاه سراً في غرف النوم ويُجرّبنه ليلاً. وإحدى الفتيات اسمها أنطوانيت جاءت إلى قدّاس يوم الأحد وهي تضعه. ونشبَ شجارٌ رهيب مع القائمين على مدرسة مدام دو سوبليس وغادرت المدرسة بعد انتهاء ذلك الفصل الدراسي. لقد كان ذلك تصرفاً

غاية في الشجاعة منها. وكلنا حسدناها... لكنها كانت فتاة قبيحة، ولا تكفّ عن أكل الشوكولاة... "

"... والآن أنا عائدة إلى الوطن لأتزوج... كلا، لم أُخطَب بعد، ولكن في الحقيقة لم يتقدَّم إلي الكثير من الشبان لأتزوج من أحدهم. إذ ينبغي أنْ يكونوا من الكاثوليك ومن عائلة تُقيم في جزيرة. ولا يُسمح لي بالزواج من موظف رسمي ومن ثم العودة لأعيش في إنكلترا. ولكن سيكون الأمر سهلاً لأنّه ليس لدي أخوة أو أخوات ووالدي بنى أحد أفضل بيوته في ترينيداد. يجب أنْ تأتي وتشاهده. إنه مبنيٌ من الحجارة، ويقعُ خارج المدينة. وعائلتي قدِمَتْ إلى ترينيداد أثناء الثورة الفرنسية. وهناك عائلتان أو ثلاث عائلات أخرى من الأغنياء وسوف أتزوج من أحدها. وسوف يحصل ابننا على المنزل. سيكون الأمر سهلاً... "

كانت ترتدي معطفاً صغيراً، من النوع الذي كان سائداً في ذلك الوقت، وليس عليها من الحلي إلا عقد من اللؤلؤ. "... وكانت هناك فتاة أميركية في مدرسة مدام دو سوليس قد خُطِبَتْ. كان معها خاتم ذو حجرٍ كبير ولكنّها لم تستطع أنْ تلبسه إلا في السرير. وذات يوم وصلتها رسالة من خطيبها الشاب يقول لها فيها إنه سيتزوج من فتاةٍ أخرى. وكم بكتْ. كلنا قرأنا الرسالة ومعظمنا بكى أيضاً... ولكن في ترينيداد سيكون الأمر سهل جداً "

أخبرها توني عن الرحلة الاستكشافية، عن المهاجرين البيروفيين في العصور الوسطى وقافلتهم الطويلة التي شقَّت طريقها خلال الجبال والغابات، وحيوانات اللاما مُحمّلة بأعمال تتميَّز بحرفيّة غنية، وعن

إشاعات متواصلة ترشح إلى الشاطئ وتُغري مغامرين للتغلغل في الغابات، وعن الدرب الذي قد يسلكونه إلى أعالي النهر، ثم يخترقون الغاب مقتفين آثار الهنود ويقطعون بلداً لم تطأه قدم، وعن الجدول الذي قد يرتقون أعلاه وكيف، كما قال الدكتور ماسنجر، يصنعون قوارب خفيفة من لحاء الخشب وينزلون إلى الماء من جديد، وكيف أخيراً يصلون إلى أسفل أسوار المدينة كالفايكنغ في بيزنطة. ثم أضاف " ولكن طبعاً قد لا يوجد داخلها أي شيء. ويجب أنْ تكون رحلة مُثيرة للاهتمام في كل الأحوال "

قالت تيريز دو فيتريه " كم أتمنى لو أني رجل "

بعد العشاء رقصا على الموسيقى الصادرة عن الغرامافون ذات الصوت المُضخَّم وشربت الفتاة عصير الليمون على المقعد الطويل خارج بار سطح السفينة، شَرَقَته من خلال قشّتين.

* * *

أسبوع من المياه الزرقاء التي تزدادُ صفاءً وسكوناً يوماً بعد يوم، ومن الشمس التي تزدادُ حرارة، وتنشرُ أشعتها على السفينة وعلى مسافريها، وتملؤهم بالحبور والاسترخاء، مياه زرقاء استقبلت الشمس بألف رأسٍ مُدبَّب متلألئ، مُبهِرةً العيون وهي تفتش عن خنازير البحر والأسماك الطائرة، مياه زرقاء صافية في الأعماق الضحلة كاشفةً عن قعرها من الرمال الفضيّة والحصى الملساء، على عمق قامات، وظل دافئ رخيّ على سطح سفينة تحت المظلات، تقدَّمت السفينة وسط آفاق ممتدة دون انقطاع على قرصٍ أزرق شاسع، يتلألأ بأشعة الشمس.

لعب توني مع مس دو فيتريه لعبة قذف حلقات الرمي أو دفع

الأقراص الخشبية، ورميا بحلقات حبل إلى داخل دلو من مسافة قصيرة. (وكان الدكتور ماسنجر قد قال " سوف نسافر على متن سفينة صغيرة لكي نتفادى كل ألعاب السطح الشنيعة التافهة ") وربح توني مرتين على التوالي اليانصيب على مضمار السفينة، وكان مبلغ الجائزة ثمانية عشر شلناً. وابتاع لمس دو فيتريه أرنباً من الصوف من محل الحلاّق.

لم يكن توني متعوّداً على استخدام لقب " مس " في حديثه مع أحد. وفيما عدا مس تندريل، لم يتذكّر أنه خاطب أحداً بهذا اللقب. لكنَّ تيريز كانت أول مَنْ خاطبه باسمه " توني "، بعد أنْ رأته مخطوطاً بخط يد بريندا على علبة سجائره. قالت " هذا غريب، إنه اسم الرجل الذي رفضَ أنْ يتزوج من الفتاة الأميركية في مدرسة مدام دو سوبليس، وبعد ذلك أصبحا يستخدمان كلٌ اسم الآخر الأول، مما أرضى باقي المسافرين كثيراً، الذين لم يكن هناك ما يُثير اهتمامهم على سطح السفينة غير إرواء علاقة الحب تلك.

قالت تيريز " لا أصدقِ أنَّ هذه هي السفينة نفسها التي كانت في الأيام العاصفة، الباردة "

وصلوا إلى أولى الجُزُر، وكانت حزاماً أخضر من أشجار النخيل وتلالاً خضراء ترتفعُ خلفها وبلدة صغيرة تتراكمُ على طول شواطئ المرفأ. هبطت تيريز وتوني إلى الشاطئ وسبحا. كانت سباحة تيريز رديئة، تُبرِزُ رأسها بشكل مُثير للسخرية خارج سطح الماء. وقد قالت إنه لا توجد سباحة في ترينيداد. واستلقيا بعض الوقت على الشاطئ الفضيّ، الصلب، ثم عادا إلى البلدة على متن عربة متهالكة، يجرها حصانان، مارّين بمقاصير متهدمة خرج منها صِبية سود صِغار راكضين ليستجدوا

أو ليتعلّقوا بمحور الدولاب، وسط الغبار الأبيض. لم يكن هناك في البلدة مكان يمكن تناول الطعام فيه، لذلك عادا إلى السفينة عند الغروب. استلقت هي على مسافة منه، ولكن من مكانٍ وقوفهما بعد العشاء، متكئَين على الدرابزين، استطاعا أنْ يسمعا، على فترات حين لا تعمل الرافعة، الثرثرةَ والغناءَ من الشوارع. شبكَتْ تيريز ذراعها بذراع توني، لكنَّ سطح السفينة كان ممتلئاً بالمسافرين والوكلاء ورجال ضئيلين داكني البشرة مع أكوام من الحمولة. لم يكن هناك رقص في تلك الليلة. صعدا إلى سطح السفينة وقبَّلها توني.

مع بدء آخر انطلاق للسفينة صعد الدكتور إلى السفينة. وكان قد تعرَّفَ إلى أحدهم في البلدة. ولاحظَ الصداقة المتنامية بين توني وتيريز واستهجنَ ذلك بشدّة وحكى له عن صديقٍ له تلقى طعنة خنجر في أحد الشوارع الخلفية في سميرنا، من باب تحذيره من الاختلاط بالنساء.

في الجُزُر انفرطَ عقد الحياة التي كانت سائدة في السفينة. حدث تبادلٌ في المسافرين، وغادر الأرشيدوق الأسود بعد أنْ صافح كل مَنْ كان على متن السفينة، وفي صباح يومهم الأخير قامت زوجته بجولةِ جمعِ مساعدةٍ من أجل ترميم آلة أرغن. ولم يظهر القبطان أثناء الوجبات في قاعة الطعام. حتى صديقة توني الأولى لم تبدِّل ملابسها قبل العشاء، وكانت المقاصير فاسدة الهواء لأنها بقيَتْ مُقفلة طوال النهار.

سبح توني وتيريز من جديد في باربادوس وجالا بالسيارة في أرجاء الجزيرة وزارا كنائس مُحصّنة، وتناولا الطعام في فندقٍ عالٍ يقعُ خارج البلدة وأكلا سمكاً طائراً.

قالت تيريز " يجب أنْ تأتي إلى منزلي وترى كيف يكون الطبخ

الكريولي[١٧] الحقيقي. إنَّ لدينا الكثير من الوصفات القديمة التي كان المزارعون يستعملونها. يجب أنْ تقابل والدي وأمي "

كان في استطاعتهما أنْ يشاهدا أضواء السفينة من المصطبة حيث كانا يتناولان وجبة العشاء، والسطح البرّاق وأشخاصاً يتنقّلون في المكان وصفاً مزدوجاً من الكُوى.

قال توني " سوف نبلغ ترينيداد يوم بعد غد "

تحدثا عن الرحلة الاستكشافية وقالتْ إنها ستكون خطِرة دون أدنى شك. قالت " أنا لا أحب الدكتور ماسنجر أبداً، ولا أي شيء يتعلّق به "

" وسوف تضطرين إلى انتقاء زوجك "

" نعم. هناك سبعة متقدّمين. أحدهم اسمه أونوريه، أعجبني، ولكن طبعاً لم أره منذ عامين. كان يدرس ليُصبح مهندساً. وهناك واحد اسمه مندوزا فاحش الثراء لكنه ليس أصلاً من ترينيداد. جدّه يتحدر من الدومينيكان ويُقال إنَّ فيه دماً ملوناً. وأتوقع أنَّ الاختيار سيقع على أونوريه. وأمي دائماً تأتي على ذِكره عندما تكتب لي وقد أرسل إليّ هدايا في عيد الميلاد وفي عيدي. أشياء سخيفة، لأنَّ المحال التجارية ليست جيدة في مرفأ إسبانيا "

لاحقاً قالت " سوف تعود إلى ترينيداد، أليس كذلك؟ سوف أراك حينئذ. هل ستمكث طويلاً في الأدغال؟ "

" أعتقد أنكِ ستكونين قد تزوجتِ حينئذٍ؟ "

" توني، لِمَ لم تتزوج قطُّ؟ "

" لكنني متزوج "

---

١٧ - الكريولي : نسبة إلى أهالي جزر الهند الغربية أو أميركا اللاتينية .

" متزوج؟ "

" نعم "

" أنتَ تضايقني "

" كلا، صدِقاً أنا متزوج. على الأقلّ كنتُ كذلك "

" أوه "

" هل فوجِئتِ؟ "

" لا أدري. بصورةٍ ما لم أفكِّر في أنكَ كذلك. وأين هي؟ "

" في إنكلترا. لقد تشاجرنا "

" أوه... كم الساعة؟ "

" الوقت مُبكّر جداً "

" فلنعُد "

" أهذا ما تريدين؟ "

" نعم، من فضلك. لقد كان نهاراً ممتعاً "

" تقولين هذا وكأنكِ تودّعينني "

" أحقاً؟ لا أدري "

الطبّاخ الزنجي قاد بهما السيارة بأقصى سرعة إلى المدينة. ثم جلسا في قارب التجديف وانتقلا ببطء إلى السفينة. وفي وقتٍ مُبكّر من ذلك اليوم كانا قد اشتريا سمكة محشوّة، وهما في حالة من الحبور. ثم اكتشفت تيريز أنها نسيتها في الفندق. قالت " لا يهم ".

* * *

بعد مغادرة باربادوس لم يعد هناك مياه زرقاء. كان البحر حول ترينيداد مُعتماً وبلا لون، ومملوءاً بالطمي الذي جلبه نهر أورينوكو من

داخل اليابسة. وأمضتْ تيريز ذلك اليوم كله داخل مقصورتها، وهي تحزم أمتعتها.

في اليوم التالي ودّعتْ توني على عجل. وجاء والدها ليستقبلها على متن قارب الانتقال إلى اليابسة. كان رجلاً نحيلاً برونزي اللون وذا شارب شائب وطويل، يعتمر قبعة باناما خفيفة ويرتدي ملابس أنيقة من الحرير، ويُدخّن سيجار شيروت، كان مثالاً لمالك العبيد من القرن التاسع عشر. لم تقدّمه تيريز إلى توني. برّرت ذلك بوضوح، " كان شخصاً التقيته على متن السفينة "

قابلها توني مرة أخرى في اليوم التالي في المدينة، تقود سيارة بصحبة سيدة من الواضح أنها أمها. لوّحت له بيدها لكنها لم تتوقف. قال المسافر الذي كان أول مَنْ عقد صداقة مع توني وها هو يلتصق به من جديد، " أولئك الكريول القدامى الحقيقيون قوم متحفّظون. غالبيتهم فقراء كفئران الكنيسة، لكنهم أباة عفنون. لطالما ارتطمتُ بهمْ على متن السفينة وعندما وصلنا إلى الميناء غادروا إلى الأبد. هل سبقَ أنْ دعاك أحدهم إلى منزله؟ أبداً "

أمضى توني اليومين التاليين مع الصديق الأول الذي كانت لديه ارتباطات عمل في المكان. وفي اليوم التالي هطل مطر غزير ولم يتمكنوا من مغادرة مصطبة الفندق. وكان الدكتور ماسنجر منهمكاً ببعض التحقيقات التقنية في المؤسسة الزراعية.

* * *

كان البحر بين ترينيداد وجورجتاون موحلاً، وتخفّفَتْ السفينة من حمولتها التي كانت تتدحرج بعنف وسط الأمواج العاتية. ولجأ الدكتور

ماسنجر مرة أخرى إلى مقصورته. هطل المطر دون انقطاع وغلّفهم ضبابٌ خفيف بحيث بدوا كأنهم يتحركون ضمن بركةٍ صغيرة من المياة البنيّة اللون، وكان نفير الضباب يطلّق بانتظام أثناء هطل المطر. لم تبقَ غير حفنة من المسافرين على متن السفينة وراح توني يجول مغموماً في أرجاء السطح المُقفِرة أو يجلس وحده في غرفة الموسيقى، وعقله يحوم عائداً على طول الدرب الذي حرِّم عليه السير فيه، جادة شجرة الدرداء الباسقة في هيتون والأيك النامي.

في اليوم التالي وصلوا إلى مدخل ديميرارا. كانت سقائف الجمارك تعبق برائحة السكّر وتضجُّ بأزيز النحل. كانت هناك إجراءات رسمية مُطوَّلة أثناء تفريغ مخازنهم. تولّى الدكتور ماسنجر الأمر بينما أشعلَ توني سيجاراً وراح يتسكّع على رصيف الميناء. وتناثرت حولهم بضائع من كل الأصناف، وعلى الضفة البعيدة كانت هناك حاشية من أشجار المنغروف، وخلفها، كانت سقوف البلدة القصديرية بادية بين سُعُف أشجار النخيل الشبيهة بالريش، كان المطر الحديث العهد يتبخّر من كل شيء، والحمّالون السود ينخرون بانتظام وهم يعملون، والهنود الغربيون يخبّون بانهماك جيئة وذهاباً حاملين الفواتير وبوالص الشحن. وسرعان ما أعلنَ الدكتور ماسنجر أنَّ كلَّ شيء قد تمّ وأنَّ في استطاعتهم أنْ يلجوا البلدة ويتوجهوا إلى فندقهم.

٢

كان مصباح العاصفة يستقر على الأرض بين أرجوحتين شبكيّتين بدتا، بنسيجهما الأبيض من شَبَك البعوض، أشبه بشرنقتيّ دودتيّ قز

عملاقتين. كانت الساعة الثامنة، وقد مرَّت على الغروب ساعتان، كان النهر والغابة قد أصبحا تواً في عمق الليل. وسكتت القرود الزاعقة لكنَّ ضفادع الأشجار القريبة انطلقَتْ في جوقةٍ متواصلة من الأصوات الجشّاء، والطيور ما زالت يقظة، تصدحُ وتغرِّد، وبعيداً في الأعماق من حولهم تناهى إليهم بين حين وآخر تمزُّق وترجيع غابة ميتة ينهمر بين الأشجار.

الصبِية الستة السود الذين زوّدوا القارب بالرجال جلسوا القرفصاء على بُعد مسافة أمام موقد نارهم. وكانوا قد جمعوا بعض كيزان الذرة، قبل ثلاثة أيام في جزء من الغاب، المهجور الآن، الذي يغصُّ ويختنق بالنباتات البريّة، وكان مزرعة ذات يوم. (النتاج الثاني في المرتبة في ذلك المكان كان يتألف من نباتات غريبة، من فاكهة وحبوب، وكلها رخيص الآن، وتعود في أصلها إلى نمط مُبكِّر) كان الصبِية يشوون الكيزان على الجمر.

لم تكن نار الموقد والمصباح الصغير يبعثان إلا أقلّ ضوء، بما يكفي فقط ليوحي بالسقف المتهدِّم الذي يُظلل رؤوسهم، وأكوام البضائع، المُفرَّغة التي يُغير عليها النمل، وأبعد من ذلك، طبقة النباتات التحتية التي غزتْ البقعة المكشوفة والأرتال المترامية من جذوع الأشجار التي تنهضُ فوقها، وتغيبُ عن الأنظار داخل الظلام.

تدلَّت الخفافيش كعناقيد من الثمار التالفة من سقف القش وعناكب ضخمة عَبَرَتْه بخطى واسعة وقطعَتْ ظَلالها. وكان المكان ذات يوم محطة لنقل خشب البلاطة. كانت أبعد نقطة من الاختراق التجاري بعيداً عن الساحل. علّمها الدكتور ماسنجر على الخريطة برسم مثلَّث وكتبَ اسمها باللون الأحمر " مخيَّم القاعدة الأولى "

كانت المرحلة الأولى من الرحلة قد انتهتْ. وطوال عشرة أيام ظلوا يرتقون أعلى مجرى النهر بقاربٍ عريض وضحل. وعبروا مرة أو مرتين منحدرات مائية (عندئذٍ كان المُحرِّك الخلفي يُدعَم بدواليب، وكان الرجال يشدّون في الوقت المناسب على وقع عدّ القبطان، ووقف عريّف الملأحين في مقدم القارب مع عمود ليدفع الصخور). عند الغروب خيَّموا على بقعٍ من ضفة رملية أو في مناطق مكشوفة قُطِعَتْ أشجارها من غابٍ قريب. ومرّوا مرةً أو اثنتين بـ " منزل " تركه مُستخرجو عُصارة شجر البلاطة أو غاسلو الذهب.

كان توني والدكتور ماسنجر يتمدّدان وسط السفينة بين البضائع، تحت ظِلّة مُرتجلة من سعف النخيل، وأحياناً خلال الساعات الحارة من أوائل فترة بعد الظهيرة كانا يستغرقان في النوم. كانا يأكلان في القارب، من عُلب من تنك، ويشربان الرَمْ الممزوج بماء النهر، الذي كان بلون خشب الماهوغاني البُني لكنه نظيف تماماً. بدتْ الليالي سلسلة متواصلة لتوني، اثنتا عشرة ساعة من الظلام، ضاجّة كساحة عامة في مدينة بصرير الجرذان ونقيق الضفادع ونفخ قاطني الغاب. وكان في استطاعة الدكتور ماسنجر أنْ يعرف الوقت من سلسلةٍ من الأصوات. لم يكن ممكناً القراءة على ضوء مصباح العاصفة. وكان النوم غير مُنتظَم وقصير الأمد بعد مرور أيام من الكلل والخَدَر. ولم يكن هناك ما يمكن التحدث حوله، كان يُقال كل شيء خلال النهار، تحت الظل الحار بين البضائع. وتمدَّد توني يقظاً، يهرش.

منذ أنْ غادروا جورجتاون لم يجد أي جزء من جسمه راحة تامة. فقد احترقَ وجهه وعنقه من أشعة الشمس المنعكسة من المياه، والجلد كان

يتقشَّر عنهما بحيث لم يعد قادراً على الحلاقة. وأصبح شعر لحيته النامي يخِزه في منطقة ما بين الذقن والنحر. وكل جزء مكشوف من بشرته كان يتعرَّض لعضّ ذباب الكابوري. فقد وجد منفذاً من عروة قميصه ومن تخاريم بنطلونه القصير، وقرصه البعوض في كاحليه حين بدَّلَ ملابسه وارتدى بنطالاً فضفاضاً للمساء. وكان قد التقط هوام الـ betes rouges في الغاب التي راحت تزحف وتحفر داخل جلده، والمرهم اللاذع الذي أعطاه إياه الدكتور ماسنجر للحماية أثارَ طفحاً خاصاً به كلما وضع منه. وفي كل مساء بعد الاغتسال كان يحرق بضع قرادات بعقب سيجارة لكنها كانت تُخلِّفُ نُدباً صغيرة سريعة التهيُّج، والتقطَ أيضاً الحفّارات Djiggas استخرَجَ أحد الصِبية السود أحدها من تحت أظافر أصابع قدميه ومن الجلد القاسي في عقبيه ومن الأجزاء الناتئة في قدميه. وخلَّفَ دبّورٌ انتفاخاً مؤلماً على يده اليسرى.

بينما توني يهرش، هزَّ جذع الشجرة التي تتدلى منها الأرجوحة الشبكية. تقلَّبَ الدكتور ماسنجر وقال " أوه، يا الله ". حاولَ أنْ يتفادى الهرش، ثم حاولَ أنْ يهرش بهدوء، ثم هرش كالمسعور وبأقوى ما في استطاعته، مُسبباً تشقُّق الجلد في أماكن عِدّة. قال الدكتور ماسنجر "أوه، يا إلهي "

قال توني في نفسه " إنها الساعة الثامنة والنصف. في لندن هم الآن بدؤوا يجتمعون لتناول طعام العشاء ". كانت تلك الفترة من العام هي التي تُقام فيها في لندن حفلات في كل ليلة. (في وقتٍ من الأوقات، عندما كان يحاول أنْ يخطب بريندا، كان يرتادها كلها. فإذا تناولا العشاء في منازل مختلفة، كان يبحث بين الحشد عن بريندا

ويتمشّى حول الدَرَج في انتظار وصولها. ولاحقاً أصبحَ يتمشّى في المكان لكي يصطحبها إلى المنزل. وقد فعلَتْ الليدي سينت كلود كل ما في وسعها لتسهِّل الأمر عليه. ولاحقاً، بعد أنْ تزوجا، خلال السنتين اللتين أمضياهما في لندن قبل وفاة والد توني، أصبحا يرتادان عدداً أقل من الحفلات، واحدة أو اثنتين في الأسبوع على الأكثر، ما عدا في أحد الأشهر الذي اتّسم بالمرح الغامر، بعد أنْ استعادت بريندا عافيتها إبّان ولادتها جون أندرو) وبدأ توني يتخيَّل اجتماع حفل عشاء في تلك اللحظة في لندن، بوجود بريندا ونظرة الدهشة التي تُحيّي بها كل وافد جديد. وإذا كانت هناك نار موقد ستكون شديدة القُرب منها. هل ستكون هناك نار موقد مشتعلة في أواخر شهر أيار؟ لم يستطع أنْ يتذكر. كانت النار تبقى مُضْرَمة دائماً في هيتون في المساء، مهما كان الفصل.

ثم، بعد جولة أخرى من الهرش، تبدّى لتوني أنَّ الساعة ليست الثامنة والنصف في إنكلترا، هناك فرق خمس ساعات. كانوا يُغيّرون التوقيت يومياً أثناء القيام برحلة . في أي اتجاه؟ يجب أنْ يكون سهلاً معرفة ذلك. الشمس تطلع من الشرق. وإنكلترا تقع إلى الشرق من أميركا لذا كان هو والدكتور ماسنجر يحصلان على الشمس في وقتٍ متأخِّر. كانت تأتيهم بطريق غير مباشر ومُلوَّثة قليلاً بعد أنْ تستعملها كلٌ من بولي كوكبيرس والسيدة بيفر والأميرة عبد الأكبر... كملابس بولي التي كانت بريندا تشتري القطعة منها بعشرة أو أحد عشر شلناً... واستغرقَ في النوم.

استيقظ بعد ذلك بساعة ليسمع الدكتور ماسنجر يسب ويلعن،

وليراه جالساً منفرج الساقين على أرجوحته الشبكية يعمل على معالجة إصبع قدمه الكبير باليود والضماد.

" لقد عضّها خفّاش ماصّ للدماء. يبدو أنني استغرقتُ في النوم وقدمي عالقة بالشبك. يعلم الله كم بقيَ يمصّها، قبل أنْ أستيقظ. من المفترَض بذلك المصباح أنْ يُبعِدها ولكن يبدو أنه لا يفعل "

كان الصِبية السود لا يزالون يقظين، يقضمون وهم مُنكبّون فوق النار. قالوا " مصّاصو الدماء كثيرون في هذه النواحي، يا ريّس، ولهذا لا نُخمِد النار "

قال الدكتور ماسنجر " هذه هي الطريقة المُثلى للإصابة بالأمراض، اللعنة، لعلّي فقدتُ كمية كبيرة من الدم "

* * *

كانت بريندا وجوك يرقصان معاً في أنكوراج هاوس. كان الوقت متأخراً، والحفل ينفرط عقده، والآن، للمرة الأولى في تلك السهرة، أصبح ممكناً الرقص باستمتاع. كانت صالة الرقص مكسوة بالأقمشة المزخرفة ومُضاءة بالشموع. وكانت الليدي انكوراج قد ودَّعَتْ مؤخراً آخر شخصية ملكية.

قالت بريندا " كم أكره أنْ أسهر حتى وقت متأخر، ولكن يبدو من المؤسف أنْ أبعِد صديقي السيد بيفر. إنه من شدّة الحماس بحيث يبقى هنا، بورك، وقد بذلتُ جهداً مضنياً لأجد من يدعوه... " ولاحقاً أضافت " وحين أَفكّر في الأمر أعتقد أنَّ هذا آخر عام سأتمكن فيه من ارتياد مثل هذه الحفلات "

" هل تقومين بإجراءات الطلاق؟ "

" لا أدري، يا جوك. الأمر في الواقع لا يتوقَّف عليّ. إنَّ المسألة كلها مسألة ضبط السيد بيفر. إنه يزداد ضجراً. وعليَّ أنْ أمدّه بقليلٍ من البذخ في كل أسبوع أو نحوه، وأعتقد أنَّ هذا سيتوقف بعد الطلاق. هل من أخبار جديدة عن توني؟ "

" لم يصل شيء منذ بعض الوقت. وصلتني برقيـــة حين رست السفينة. لقد انطلقَ في رحلة استكشافية ما مع طبيبٍ مُخادع "

" أهو في أمان تام؟ "

" أوه، أعتقد ذلك. لقد أصبحَ العالم كله متمدّناً الآن، أليس كذلك؟ - وحافلات السياح ومكاتب السياحة منتشرة في كل مكان "

" نعم، أعتقد ذلك... آمل ألا يكون مكتئباً. لا أحب أنْ أفكر فيه على أنه تعس "

" أعتقد أنه يتعوَّد على الأشياء "

" هذا ما آمله. إنني شديدة الكَلَف بتوني، في الواقع، على الرغم من أسلوبه الفظيع في التصرُّف "

* * *

كانت هناك قرية هندية تقعُ على بُعد ميل أو اثنين من المخيَّم. وهنا عزمَ توني والدكتور ماسنجر على تجنيد حمّالين لمسيرة المئتي ميل وهي المسافة التي تفصلهما عن بلد قبيلة البي-وي. وكان الزنوج من سكان شاطئ النهر ولا يمكن إجبارهم على ولوج مناطق الهنود. وسوف يعودون بالقارب.

عند الفجر شرب توني والدكتور ماسنجر إبريقاً من الكاكاو الساخن وأكلا بعض البسكويت وما تبقّى من اللحم المُعلّب التي فُتِحَت في الليلة

السابقة. ثم انطلقا قاصدَين القرية. وتقدَّمهما أحد السود حاملاً سيفاً قصيراً ليفتح الدرب. وتبعه توني والدكتور ماسنجر، واحد خلف الآخر، وأسود آخر كان خلفهما حاملاً عيِّنات من بضائع التجارة - مسدس بلجيكي بعشرين دولاراً، ومزيد من لفائف القماش القطني المطبوع، ومرايا يدوية بأُطُر من السيلولويد الملوَّن، وبعض الزجاجات من المراهم العطرية الفوّاحة.

كان درباً وعراً، غير مستوٍ، يعوقه عدد كبيرٌ من جذوع الأشجار الساقطة، وخاضا حتى ركبهما في جدوليّ ماء يجريان ويغذّيان النهر الكبير، وتحت أقدامهما كانا يطأان أحياناً على شبكة قاسية من الجذور العارية، وأحياناً على بقايا عضوية لأوراق أشجار رطبة ورخوة.

سرعان ما وصلا إلى القرية. وقد ظهرت أمامهما بشكلٍ مُفاجئ، بارزةً من بين الأدغال إلى المنفسح الواسع من الأرض. كانت هناك ثمانية أو تسعة من الأكواخ المستديرة المصنوعة من الطمي وسعف النخيل. لم يشاهدا أحداً، ما عدا عمودين أو ثلاثة من الدخان المتصاعد بخطٍ نحيل ومستقيم في فضاء الصباح، فهِما منها أنَّ المكانَ مأهول.

قال الصبي الأسود " إنَّ الناس كلهم خائفون "

قال الدكتور ماسنجر " اذهب وجِد أحداً يتحدثُ معنا "

اقترب الزنجي من الباب الواطئ لأقرب منزل وحدّقَ منه.

أخبرهما " لا يوجد هنا إلا امرأة وحيدة ترتدي ملابسها "، ثم هتفَ وسط الجو الكئيب " اخرجي إلى هنا. الريّس يريد أنْ يتكلّم معك "

أخيراً، وبحياءٍ شديد، ظهرت امرأة عجوز ضئيلة الحجم، ترتدي رداءً من الشيت القذر احتفظت به لترتديه في حضور الغرباء. مشت

تتهادى باتجاههم على ساقين مقوَّستين. وكان كاحلاها مُحاطَين بإحكام بالخرز الأزرق، وشعرها خفيفاً ومشعَّثاً، وعيناها مُثبّتتين باتجاه الطاس الخزفي الذي تحمله ويحتوي سائلاً. حين أصبحت على بُعد بضعة أقدام من توني والدكتور ماسنجر حطَّتْ الوعاء على الأرض، وصافحتهما، ولا تزال تخفِضُ عينيها. ثم توقفتْ، ورفعَتْ الوعاء من جديد وحملته إلى الدكتور ماسنجر.

شرح قائلاً " إنه كاسيري، المشروب المحلّي المصنوع من جذور المنيهوت المُخمَّرة "

شربَ بعضاً منه وأعاد الطاس إلى توني. كان يحتوي سائلاً يميلُ لونه إلى القرمزي، كثيف القوام. وبعد أنْ شربَ توني منه قليلاً، شرحَ الدكتور ماسنجر، " وهو يُعَدُّ بطريقة مُثيرة للاهتمام. فالنسوة يمضغنَ الجذور ويبصقنها داخل تجويف جذع شجرة "

ثم خاطبَ المرأة بلغة الوابيشيانا. فنظرتْ إليه للمرة الأولى. كان وجهها الأسمر، المنغولي خالياً تماماً من أي تعبير، مُجرّداً أيضاً من أي فهم وفضول. كرَّرَ الدكتور ماسنجر سؤاله وضخَّمه. أخذت المرأة الطاس من توني ووضعته على الأرض.

في تلك الأثناء كانت وجوهٌ أخرى تظهر من خلف أبواب الأكواخ. امرأةٌ واحدة فقط غامرت بالخروج. كانت شديدة البدانة وابتسمت بكل ثقة للزائرين.

قالت " صباح الخير. كيف حالكما؟ أنا روزا. أنا أتكلم إنكليزية جيدة. أنا أعيش منذ سنتين مع السيد فوربس. أعطني سيجارة "

" لماذا تُجيب هذه المرأة؟ "

" إنها لا تتكلّم الإنكليزية "

" لكنني كنتُ أتكلّم الوابيشيانا "

" إنها امرأة من الماكوشي. كل هؤلاء الناس من الماكوشي "

" أوه، لم أكن أعلم. وأين الرجال؟ "

" الرجال كلهم في الصيد لمدة ثلاثة أيام "

" ومتى سيرجعون؟ "

" إنهم يُطاردون خنازير الآجام "

" متى سيرجعون؟ "

" كلا، خنازير الآجام. هناك الكثير من خنازير الآجام. الرجال كلهم خرجوا للصيد. أعطني سيجارة "

" اسمعي، يا روزا، أريد أنْ أذهب إلى بلد البي-وي "

" كلا، هذه ماكوشي. كل الناس ماكوشي "

" ولكن نحن نريد أنْ نذهب إلى البي-وي "

" كلا، كلنا ماكوشي. أعطني سيجارة "

قال الدكتور ماسنجر " عبث. سوف نضطر إلى الانتظار حتى يرجع الرجال ". أخرجَ علبة سجائر من جيبه. قال " انظري، سجائر "

" أعطني "

" عندما يرجع الرجال من الصيد ستأتين إلى النهر وتخبرينني. أفهمتِ؟ "

" كلا، الرجال يصطادون خنازير الآجام. أعطني سيجارة "

أعطاها الدكتور ماسنجر السجائر.

قالت " ماذا لديكَ أيضاً؟ "

أشارَ الدكتور ماسنجر إلى الحِمل الذي كان الزنجي الثاني قد وضعه على الأرض.

قالت " أعطني "

" عندما يرجع الرجال، سأعطيكِ الكثير من الأشياء إذا رافقني الرجال إلى البي-وي "

" كلا، كلنا هنا ماكوشي "

قال الدكتور ماسنجر " إننا لا نُحرز أي تقدُّم. يُستحسَن أنْ نرجع إلى المُخيَّم وننتظر. الرجال غائبون منذ ثلاثة أيام. ومن المُستبعد أنْ يغيبوا أكثر من ذلك... ليتني أُحسِنُ لغة الماكوشي "

استدار الأربعة وغادروا القرية. كانت ساعة يد توني تُشير إلى العاشرة عندما وصلوا إلى مخيّمهما.

الساعة العاشرة في نهر ووروبانغ كانت موعد طرح السؤال في ويستمنستر. فمنذ وقت طويل ولدى جوك سؤال أراد ناخبوه منه أنْ يطرحه للنقاش. وقد حان وقت ذلك بعد ظهيرة ذلك اليوم.

قال " رقم عشرون "

انتقل بضعة أعضاء إلى جدول الأعمال.

رقم ٢٠.

"بخصوص سؤال وزير الزراعة في ظل إغراق البلد بفطائر لحم الخنزير اليابانية، إنْ كان العضو الشريف الحقّ مُستعداً لتعديل أبعاد الخنزير القياسي الذي سجل ثمانية ونصف من سماكة اثنين ونصف بوصة حول البطن المُخصَّصة أصلاً، إلى اثنين ونصف "

ورداً على الوزير، قال السكرتير المساعد : " إنَّ القضية تحظى بأشدّ

انتباه. وكما يعي العضو الشريف دون شك، فإنَّ مسألة استيراد فطائر لحم الخنزير من اختصاص غرفة التجارة، وليس غرفة الزراعة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار مواصفات الخنزير الأساسي، يجب أنْ أُذكِّر العضو الشريف بأنَّ الخنزير، وكما يعي دون أدنى شك، الذي سجّلَ ثمانية ونصف قد صُمِّمَ حسب متطلبات مُقدِّمي لحم الخنزير ولا صلة له بلحم الخنزير المُخصَّص للبيع على شكل فطائر. إنَّ هذا الأمر خُصِّصَتْ له لجنة منفصلة لم تقدِّم تقريرها بعد "

" هل يأخذ العضو الشريف في اعتباره زيادة الحد الأقصى المُحدَّد لكمية الدهن عند الكتفَين؟ "

" يجب أنْ أنتبه إلى هذه المسألة "

غادر جوك المجلس بعد ظهر ذلك اليوم مع شعورٍ بالارتياح لأنه أنجزَ أخيراً شيئاً ملموساً لصالح ناخبيه.

* * *

بعد ذلك بيومَين عاد الهنود من رحلة الصيد. كانت فترة انتظار مملّة. وخصَّصَ الدكتور ماسنجر بعض الساعات في كل يوم لتفقُّد البضائع. ودخلَ توني إلى الدغل مع مسدسه، لكنَّ الطرائد كلها نزحت من ذلك الجزء من ضفة النهر. وأُصيبَ أحد الصبية السود بجرحٍ بليغ في قدمه وربلته سبَّبته سمكة لسّاعة، وبعد ذلك كفّوا عن الاستحمام واكتفوا بالاغتسال بدلو من الزينك. وعندما وصل نبأ عودة الهنود إلى المخيَّم، توجّه توني والدكتور ماسنجر إلى القرية لمقابلتهم، لكنَّ وليمة كانت قد مُدَّت وأصبح الجميع سُكارى. كان الرجال يتمدَّدون على أراجيحهم الشبكية والنسوة بينهم حاملات أوعية اليقطين التي تحتوي الكاسيري. كان الجميع يفوحون برائحة لحم الخنزير المشوي.

قال الدكتور ماسنجر " سوف يستغرقُ صحوهم أسبوعاً "

طوال ذلك الأسبوع استرخى الصِبية السود في المخيَّم، أحياناً يغسلون ملابسهم وينشرونها على حافة القارب لكي تجف في أشعة الشمس، وحيناً يخرجون لصيد السمك ويعودون بصيدٍ ضخم، فينشرونه على عصا (كان لحمه بلا طعم ويُشبه المطّاط)، وفي المعتاد في أوقات المساء كانوا يغنون الأغاني وهم متحلّقون حول النار. والصبي الذي لُسِعَ لزمَ أرجوحته الشبكية، وهو يئنُّ بصوتٍ عالٍ وبلا توقف طالباً جلب دواء.

في اليوم السادس بدأ الهنود بالظهور. تبادلوا المصافحة ومن ثم انسحبوا إلى حافة الغاب وهناك وقفوا يُحدّقون إلى مُعدّات المخيَّم. حاولَ توني أنْ يلتقطَ لهم صوراً فوتوغرافية لكنهم فرّوا وهم يضحكون ضحكاً مكبوتاً كفتيات المدارس. وفرشَ الدكتور ماسنجر البضائع التي أحضرها للمقايضة على الأرض.

انسحبوا عند الغروب ولكن في اليوم السابع عادوا من جديد، مدججين بكثير من السلاح. سكان القرية كلهم حضروا. جلسَتْ روزا على أرجوحة توني الشبكية تحت سقف من سعف النخيل.

قالت " أعطني سيجارة "

قال الدكتور ماسنجر " أخبريهم أني أريد أنْ أذهب إلى بلد البي-وي "

" البي-وي سيئون. شعب الماكوشي لا يذهب إلى شعب البي-وي "

" قولي لهم إني أريد عشرة رجال. وسأعطيهم أسلحة "

" أعطني سجائر... "

استمرّت المفاوضات مدة يومين. وأخيراً، وافق اثنا عشر رجلاً على مرافقته، أصرّ سبعةٌ منهم على جلب زوجاتهم معهم. إحداهنّ كانت روزا. وعندما أُعِدَّ كل شيء أقيمت حفلة في القرية وسكرَ الهنود كلهم من جديد. ولكن هذه المرّة لم يستغرق الأمر مدة طويلة لأنه لم يكن لدى النسوة الوقت اللازم لصنع الكثير من الكاسيري. وفي غضون ثلاثة أيام تمكّنت القافلة من الانطلاق.

أحد الرجال كان يحمل مسدساً طويلاً، وحيد الماسورة، يُعبّأ من الفوهة، وعدد آخر حمل أقواساً وسهاماً، كانوا عراةً إلا من قطعة قماش من القطن المطبوع تُحيطُ بعوراتهم. وارتدت النسوة ملابس من الشيت الرث - كان واعظٌ متجول قد أعطاها لهنّ قبل سنوات واحتفظنَ بها لمناسباتٍ من هذا النوع، وحملنَ على أكتافهنّ سِلالاً كبيرة من الأماليد المجدولة، مدعومةً بضمادة لففنها حول الجبين. وكل الأمتعة الثقيلة كانت تحملها النسوة بالاستعانة بتلك الضمادات، بما فيها جواربهن والرجال من المؤن. بالإضافة إلى ذلك كانت روزا تحملُ مظلة ذات مقبض منحنٍ، فضيّ، مُنبعج، من بقايا صِلتها بالسيد فوريس.

عاد الزنوج عبر مجرى النهر إلى الساحل. وتُركَ مخزون من المؤن، داخل علب كبيرة من القصدير، في الملجأ المتهدم على ضفة النهر.

قال الدكتور ماسنجر " لن يلمسها أحد. يمكننا أنْ نُرسل مَنْ يجلبها في حال الطوارئ من بلد البي-وي "

سار توني والدكتور ماسنجر خلف الرجل صاحب المسدس مباشرة وكان يقوم بدور القائد، وخلفهم امتدَّ رتلٌ بغير انتظام على مسافة نصف ميل أو أكثر خلال الغابة.

قال الدكتور ماسنجر بتلذُّذ " من الآن فصاعداً لم يعُد للخريطة أي قيمة بالنسبة إلينا "

(قال وليم بت[١٨] ، لفّوا الخريطة - لن تحتاجوا إليها مرة أخرى إلا بعد مرور سنين عديدة... عادت إلى توني ذكريات أيام المدرسة الخاصة حين سمعَ كلمات الدكتور ماسنجر، عن مقاعد الدراسة الصغيرة المُلطّخة بالحبر وصورة ملوّنة تصوِّر غارة يشنها الفايكنغ، والسيد تروتر الذي علّمه التاريخ والذي يضعُ ربطة عنق فاقعة الألوان)

٣

" ماما، بريندا تريد وظيفة "

" لماذا ؟ "

" كأي إنسان آخر، تحتاج إلى النقود وليس لديها عمل. إنها تتساءل إنْ كان في وسعها أنْ تساعدك في المحل "

" في الواقع... يصعبُ عليَّ أنْ أَقول هذا. على أي حال لو أنها جاءتني في أي وقتٍ آخر لكانت البائعة المثالية التي طالما فتّشتُ عنها... ولكن لا أدري. في ظل الظروف الراهنة، لستُ متأكدة من أنَّ ذلك سيكون تصرُّفاً حكيماً "

" قلتُ لها إني سأسألك، لا أكثر "

" جون، أنتَ لم تقُل لِيَ أي شيء وأنا لا أحبُ أنْ أبدو أني أتدخَّل، ولكن ما الذي سيحصل بينك وبين بريندا ؟ "

---

١٨ - وليم بت الأب (١٧٠٨ - ١٧٧٨) : رجل دولة بريطاني ، شغل منصب رئيس الوزراء من ١٧٥٦ إلى ١٧٥٧ . ووليم بت الابن (١٧٥٩ - ١٨٠٦) : رجل دولة بريطاني ، شغل منصب رئيس الوزراء من ١٧٨٣ إلى ١٨٠١ ، ومن ١٨٠٤ إلى ١٨٠٥ .

" لا أعلم "

كرّرت السيدة بيفر " أنتَ لم تقُلْ لي أيّ شيء، وهناك الكثير من الشائعات تسري. هل سيقع الطلاق؟ "

" لا أعلم "

تنهدتْ السيدة بيفر. " حسن، يجب أنْ أعود إلى العمل. إلى أين أنتَ ذاهب؟ "

" إلى نادي برات "

" مسكين يا جون. وبالمناسبة، حسبتُ أنكَ منضم إلى نادي براون "

" أنا لم أسمع أي شيء عنهم. ولا أعلم إنْ كانوا قد أجروا انتخابات بعد "

" والدك كان عضواً فيه "

" لدي إحساس بأني لن أنجح فيها... على أي حال أنا لا أستطيع حقاً تحمُّل تكاليف ذلك "

" لستُ مطمئنة لأجلك، يا جون. ولستُ متأكدة من أنَّ الأمور تنجح كما كنتُ آمل فيما يخص فترة عيد الميلاد "

" هاتفي يرنّ. لعلها مارغو. إنها لم تدعُني إلى أي شيء منذ أسابيع "

لكنها كانت فقط بريندا.

قال " أخشى أنَّ أمي ليس لديها أي شيء لأجلك في المحل "

" أوه لا بأس. أتوقع أنْ الأمور ستنفرج. كان يمكن أنْ أرضى بقليلٍ من الحظ في الوقت الحاضر فقط "

" وأنا أيضاً. هل سألتِ ألن عن نادي براون؟ "

" نعم، فعلت. ويقول إنهم انتقوا عشرة شبان في الأسبوع الفائت "

" أوه، هل هذا يعني أني رُفضت؟ "

" لا أعلم. وماذا يهم على أي حال؟ هل ترغب في أنْ تأتي إلى منزل فيرونيكا لقضاء نهاية الأسبوع؟ "

" لستُ متأكداً من أني أريد ذلك "

" أنا أريده "

" إنه منزل صغير شنيع - ولا أعتقد أنَّ فيرونيكا تحبني. مَنْ سيكون هناك؟ "

" أنا سأكون هناك "

" نعم... حسن، سأبلغكِ "

" هل سأراك هذا المساء؟ "

" سأعلمكِ "

قالت برِندا وهي تُنهي المكالمة " أوه يا إلهي. ها هو يتخذ موقفاً ضدي. ليس ذنبي أنه لا يستطيع أنْ ينتسب إلى نادي براون. وفي الواقع أعتقد أنَّ ريجي قد حاولَ فعلاً أنْ يُساعده "

كانت جيني عبد الأكبر موجودة معها في الغرفة. وكانت تأتي إليها في صباح كل يوم حينئذٍ وهي بمبذلها وتقرأان الصحيفة معاً. وكان مبذلها من الحرير البربري المُخطط.

قالت " هيا بنا لنتناول غداءً بيتيّاً لذيذاً في فندق الريتز "

" ليس الريتز جواً بيتياً في وقت الغداء ويُكلّفُ ثمانية جنيهات وستة بنسات. وأنا لا أجرؤ على تحرير شيك لمدة ثلاثة أسابيع، يا جيني. إنَّ المحامين كريهون جداً. لم أوضَع قطُّ في مثل هذا الوضع "

" سأضرب توني لأنه تركك وحيدة هكذا "

" أوه، ما نفع ضرب توني؟ أعتقد أنه ليس في أحسن حال وهو في البرازيل أو أينما كان "

" سمعتُ أنهم يُركّبون حمّامات في هيتون - بينما أنت تعانين الجوع بالمعنى الحرفي للكلمة. وهو حتى لم يطلب من السيدة بيفر أنْ تركّبها "

" نعم، أعتقد فعلاً أنَّ هذه خسّة "

وسرعان ما عادت جيني لكي ترتدي ملابسها. واتّصلتْ بريندا بمخزن قريب لبيع الأطعمة المعلّبة طلباً لبعض الشطائر. كانت ستقضي ذلك النهار في السرير، كما تعوَّدت أنْ تفعل يومين أو ثلاثة في الأسبوع في مثل تلك الأيام. فقد تستدعي مارجوري لتناول طعام العشاء، إذا كان ألان يُلقي خطاباً في مكانٍ ما، كما يفعل عادةً. كان آل هلم-هوبارد يُشاركون في حفل عشاء في تلك الليلة لكنَّ بيفر لم يُدعَ إليها. " إذا ذهبتُ إلى هناك من دونه ستكون تلك بمثابة ضربة عنيفة... فكّري في الأمر، لعلَّ مارجوري ستذهب. في الواقع، لا أستطيع دائماً أنْ أتناول شطائر على العشاء هنا. إنهم يُعدّون كل الأنواع. شكراً لله لوجود المحل الصغير القريب ". كانت تقرأ سيرة نلسن التي صدرت مؤخراً، كانت مفرطة الطول وجديرة بإعانتها على قضاء الليل.

عند الساعة الواحدة دخلتْ لتودّعها (كان معها مفتاح منزل بريندا)، مرتدية ملابسها استعداداً لتناول غداء بيتيّ. قالت " معي بولي وسوكي. سنذهب إلى مربّع ديزي. أتمنى لو تأتين "

قالت بريندا " أنا؟ أوه، أنا على ما يُرام "، وقالت في نفسها " قد يخطر لها أنْ تدّخر وجبة لفتاة مرةً كل حين "

* * *

ظلوا يسيرون طوال أسبوعَين، بمعدل خمسة عشر ميلاً في اليوم. أحياناً كانوا يقطعون أكثر من ذلك بكثير وأحياناً أخرى أقلّ بكثير، والهندي الذي كان يتقدّمهم قرَّر تعيين أماكن التخييم، بالاعتماد على الماء والأرواح الشريرة.

رسم الدكتور ماسنجر خطاً منحنياً عبر الدرب. وأمدَّه ذلك بمادة للتفكير. كان يقرأ النتيجة كل ساعة من مادة جافة. وفي المساء، إذا توقفوا في وقتٍ مُبكّر بقدرٍ كافٍ، كان يستغلّ آخر ساعات النهار في تطوير رسم بياني. " مجرى ماء جاف، ثلاثة أكواخ مهجورة، أرض حجرية... "

ذات يوم أعلنَ بكل رضا " نحن الآن داخل تشعبات نهر الأمازون. كما ترون، الماء يجري باتجاه الجنوب ". ولكن على الفور تقريباً عبروا نهراً يجري في الاتجاه المعاكس. قال الدكتور ماسنجر " أمر غريب جداً. هذا اكتشافٌ ذو قيمة علمية أصيلة "

في اليوم التالي خاضوا في أربعة أنهار على فترات طولها ميلان، تجري على التوالي شمالاً وجنوباً. وبدأ الرسم البياني يتخذ شكلاً خرافياً.

سألَ روزا " هل لأيٍ من هذه الأنهار اسم؟ "

" شعب الماكوشي يُسمونه واوروبانغ "

" كلا، ليس النهر الذي خيَّمنا عنده أول مرة. بل هذه "

" نعم، واوروبانغ "

" بل هذه الأنهار هنا "

" شعب ماكوشي يُسمونها كلها واوروبانغ "

قال الدكتور ماسنجر " عبث "

مع اقترابهم من الماء أصبحوا يشقون طريقهم بصعوبة خلال غابٍ كثيف النباتات، كان الدرب هناك مسدوداً ومُعاقاً بالأشجار، لم يكن في مقدور غير عينيّ هندي وذاكرته من تقصّي مساره، أحياناً كانوا يعبرون مساحات من السافانا الجافة، من العشب القاتم النامي على شكل باقات من قلب الأرض الجافة، وكانت آلاف من السحالي تعدو وتنطلقُ كالسهام وتسبق أقدامها ويُحدث العشب حفيفاً يُشبه حفيف ورق الصُحف، كانت الحرارة حارقة في تلك المساحات المُغلقة. أحياناً كانوا يرتقون مرتفعاً والريح تهبُّ في وجوههم، ويطؤون حصى حمراء متفرّقة تؤذي أقدامهم، وبعد ذلك الارتقاء المؤلم يستلقون وسط هبوب الريح إلى أنْ تبرد ملابسهم الرطبة على أجسادهم، ومن فوق تلك الهِضاب المنخفضة استطاعوا أنْ يُشاهدوا أعالي هِضاب أخرى وحواف الغاب الذي شقّوا طريقهم خلاله، ورتل الحمّالين يسير خلفهم. وكلما وصل رجل أو امرأة يرتمي على العشب الجاف ويسترخي على حمولته، وحين انضمَّ آخرهم إلى الفريق أعطى الدكتور ماسنجر الأمر بالانطلاق من جديد، والهبوط إلى قلب الغابة الخضراء المتدة أمامهم.

نادراً ما تبادل توني والدكتور ماسنجر الكلام، سواء أثناء المسير أو في أوقات التوقُّف، لأنهما كانا على الدوام في حالةٍ من التوتُّر والإرهاق. وفي أوقات المساء، وبعد أنْ يغتسلا ويُغيرا قميصيهما وملابسهما الداخلية، كانا يتحدثان قليلاً، غالباً عن عدد الأميال التي قطعوها في ذلك النهار، وعن وضعهم المُحتمل وعن حالة أقدامهما. كانا يشربان الرَمْ والماء بعد الاستحمام، والعشاء يتألّف عادةً من اللحم

المُعلّب المعتاد المطبوخ بالأرز وزلابية الطحين. كان الهنود يأكلون النشاء، ولحم الخنزير المُدخّن وأشياء لذيذة ثانوية التقطوها من الطريق - حيوان مدرع، حيوان إيغوانا، يرقات ثمينة تتغذى على أشجار النخيل. وكان مع النسوة سمك مُجفف يبقى صالحاً مدة ثمانية أيام، وكانت الرائحة تزدادُ عبقاً كل يوم إلى أنْ أكلوها، ثم بقيَتْ عالقة في الجو وفي المخزون، لكنّها أخذتْ تخفّ إلى أنْ تلاشت داخل رائحة المخيَّم العامة، الغامضة.

لم يكن هناك أي هنود أحياء في هذا البلد. وخلال الأيام الخمسة الأخيرة من المسير عانوا من فقدان الماء. فالأنهار التي مروا بها كانت في مُعظمها جافة، واضطروا إلى استطلاع كل موقع من مجاريها بحثاً عن بِركٍ آسنة، فاترة. ولكن بعد مرور أسبوعَين وصلوا إلى نهرٍ مرة أخرى، بمياهٍ عميقة وسريعة التدفُّق يتجه نحو البحر الجنوبي، وتبدأ به حدود بلد البي- وي وعيَّن الدكتور ماسنجر المكان الذي سيقيمون فيه مخيَّم القاعدة الثانية.

* * *

" جون، أعتقد أنَّ الوقت قد حان لتأخذ إجازة "

" إجازة مِمَّ، ماما ؟ "

" للتغيير... أنا ذاهبة إلى كاليفورنيا في شهر تموز. سأنزل عند آل فيشبوم - عند السيدة أرنولد فيشبوم، وليس تلك التي تُقيم في باريس. أعتقد أنه سيفيدك أنْ ترافقني "

" حاضر، ماما "

" سوف تستمتع، أليس كذلك؟ "

" أنا ؟ نعم، سأستمتع "

" إنكَ تقلّد أسلوب بريندا في الكلام. يبدو ذلك مُثيراً للسخرية حين يصدر عن رجل "

" آسف، ماما "

" حسن، إذن، تمَّ الأمر "

* * *

عند الغروب اختفى ذباب الكابوري. وطوال النهار، وحتى ذلك الحين، كان من الضروري أنْ يبقى المرء مغطّى، فهو يستقرُّ على أي جلد مكشوف كما يستقر ذباب المنزل على المربّى، ولا يصبح قرصه محسوساً إلا بعد أنْ يُتخَم، ويُخلّف وراءه دائرة قرمزية اللون، شديدة الإيلام وفي مركزها نقطة سوداء. كان توني والدكتور ماسنجر يرتديان قفازات قطنية جلباها لهذا الغرض، ونقاباً من الموسلين، مُعلقاً من تحت قبعتيهما. ولاحقاً استخدما امرأتين لتجلسا القرفصاء بجانب أرجوحتيهما الشبكيَّتين وتهويهما بمهواتين من أغصان ذات أوراق، وكان أخفّ نسيم يكفي لطرد الذباب، ولكن حالما يغفو توني والدكتور ماسنجر تتخلى المرأتان عن عملهما، فيستيقظان على الفور، وقد قُرِصا في مئة موقع. وكان الهنود يحملون الحشرات كما يحمل البقر ذباب الخيل، بردّة فعل سلبية مع نوبات انزعاج متقطعة حين يصفعون أكتافهم وأفخاذهم.

بعد هبوط الظلام يسود بعض الارتياح، ذلك أنَّ عدد البعوض يقلّ في المُخيَّم، ولكن كان في استطاعتهم أنْ يسمعوا الخفّاش مصّاص الدماء طوال الليل يُقحِم أنوفه ويرفرف داخل شباكه.

إنَّ الهنود لا يذهبون إلى الصيد في مثل تلك الغابة. قالوا إنه لا توجد طرائد هناك، لكنَّ الدكتور ماسنجر قال إنَّ السبب يعود إلى

أنهم يخافون الأرواح الشريرة لشعب البي-وي. ولم تكن المؤن تدوم كما قدَّرَ الدكتور ماسنجر. وخلال شهر آذار كان من الصعب تعيين حراسة معقولة على المخزون. كان ينقصهم كيس من طحين النشا، ونصف كيس من السكّر وكيس من الأرز. وقام الدكتور ماسنجر بعملية توزيع حصص دقيقة، ووزَّعها بنفسه، حاسباً كل شيء بصرامة مُستخدماً كأساً مكسوة بالمينا، ومع ذلك، نجحت النسوة في الاستيلاء على السكّر من وراء ظهره. وكان هو وتوني قد أجهزا على الرَمْ، باستثناء زجاجة واحدة تمَّ الاحتفاظ بها لحالة الطوارئ.

قال الدكتور ماسنجر متذمّراً " لا يمكننا أنْ نستمر في استهلاك مخزوننا من المعلّبات، على الرجال أنْ يخرجوا لصيد شيءٍ ما "

لكنهم تلقّوا أوامره دون إبداء أي ردّة فعل، بوجوه مُنكّسة ولزموا المخيَّم.

شرحَتْ روزا " لا طيور، لا توجد حيوانات هنا. كلها ذهبت. ربما يحصلون على بعض السمك "

ولكن تعذَّر إقناع الهنود في بذل أي جهد. كان في استطاعتهم أنْ يروا أكياس الطعام والحزم الضخمة مُكدَّسة على الضفة، من الآن وحتى ينفد هذا المخزون هناك الكثير من الوقت ليبدؤوا صيد السمك أو صيد الطرائد.

في تلك الأثناء كان يجب بناء قوارب خفيفة.

قال الدكتور ماسنجر " هذه لاشك مياه نهر الأمازون. لعلها تتدفّق إلى نهر ريو برانكو أو ريو نيغرو. وقبائل البي-وي تعيش على طول ضفته، والمدينة، حسب الروايات كلها، يجب أنْ تكون في اتجاه مجرى

النهر أمامنا، على أحد روافده. وعندما نصل أول قرية للبي-وي سوف نتمكّن من الحصول على أدلاء "

صُنِعَتْ القوارب الخفيفة من لحاء الأشجار. واستغرقَ العثور على الأشجار ذات العمر والاستقامة المناسبين وإسقاطها ثلاثة أيام. قطعوا أربع أشجار وعملوا عليها حيث كانوا يجلسون، بعد أنْ أفسحوا مساحة بضعة أقدام حولهم في الغاب. ثم قشطوا اللحاء بسكاكينهم العريضة الحادة الشفرة، وذلك استغرقَ أسبوعاً آخر. عملوا بصبرٍ ولكن بشكلٍ أخرق، كانوا يشقّون اللحاء لكي يفصلوه عن الجذع. ولم يكن في وسع توني والدكتور ماسنجر أنْ يقدّما أي مساعدة وأمضيا الأسبوع في حراسة السكر من إغارة النسوة عليه. وعندما كان الرجال يتنقّلون في أنحاء المُخيَّم وفي الدغل المجاور-لم يكن يُسمَع وقع أقدامهم، وأكتافهم العارية لم تكن تحفّ بالنباتات القصيرة المتشابكة، وكان حديثهم مُقتضباً ولا يكاد يُسمَع، ولم يكونوا يشركون النساء قطُّ في أحاديثهم وضحكهم، وأحياناً كانوا ينخرون أثناء العمل، ومرةً واحدة ساد بينهم المرح، وذلك حين ترك أحدهم السكين تنزلق أثناء عمله على جذع الشجرة فأصيبَ رأس إصبع قدمه الأكبر بجرحٍ بليغ. فضمَّدَ الدكتور ماسنجر الجرح ببعض اليود وقطعة من الكتّان. وبعد ذلك أصبحت النسوة يتحرّشن به على الدوام، بعرض خدوش صغيرة على أذرعهنّ وسيقانهنّ وطَلَب وضع اليود عليها.

انتهى العمل على شجرتين في غضون يوم واحد، ثم أخرى في اليوم التالي (تلك التي شُقَّتْ) ورابعة بعد يومين، وكانت هذه أكبر من الثلاث الأخريات. وحين تمَّ شقّ آخر لحاء، التفَّ أربعة رجال حول الجذع ورفعوا

اللحاء كاملاً. وسرعان ما التوى من جديد، مُكوِّناً شكلاً أسطوانياً مُفرّغاً، حمله الرجال وأنزلوه إلى المياه القريبة من الضفة وتركوه يطفو، بعد أنْ ثبّتوه إلى شجرة بأنشوطة من حبل خشب الكرمة.

حين أصبح اللحاء كله جاهزاً بات من السهل صنع قوارب منه. كان أربعة رجال يفتحونه بينما يُثبّت رجلان آخران قوائم انضغاطيّة. تُركت النهايات مفتوحة، فالتوت قليلاً لكي تحملهم بشكلٍ جيد (حين أصبح القارب مُعدّاً تماماً لم يكن يُدخِل أكثر من مقدار بوصة أو بوصتين من الماء). ثم انطلقَ الرجال يصنعون مجاديف وحيدة الشفرة، وهذا أيضاً كان عملاً سهلاً.

كان الدكتور يسأل روزا في كل يوم " متى ستجهز القوارب؟ اسألي الرجال "، فتجيبه " فوراً "

" كم يوماً – أربعة؟ – خمسة؟ – كم؟ "

" كلا، ليس كثيراً. القوارب ستجهز فوراً "

وأخيراً حين بات جلياً أنَّ العمل قد انتهى تقريباً، انهمكَ الدكتور ماسنجر بإجراء بعض الاستعدادات. صنَّفَ المؤن، مقسِّماً الحمولة الضرورية إلى مجموعتين، كان هو وتوني سيجلسان في قاربَين منفصلَين ومع كلٍ منهما بندقية وذخيرة، وآلة تصوير، وجعالة من المعلّبات، وبضائع للمقايضة وأمتعته الخاصة. والقارب الثالث، الذي سيقتصر على الهنود، سيحمل الطحين والأرز، والسكّر وطحين النشا وجُعالة الرجال. ولن تتسع القوارب للمخزون كله ولم يُحمل " مخزون الطوارئ " إلا بعد قطع مسافة قليلة من النهر.

" سوف نأخذ معنا ثمانية من الرجال. أربعة منهم يبقون مع النساء

لحماية المعسكر. وحالما نصبح بقرب البي-وي، سيصبح كل شيء سهلاً. حينئذٍ يمكن لأولئك الماكوشي أنْ يذهبوا إلى بيوتهم. ولا أعتقد أنهم سيسرقون المؤن. فليس هناك ما يفيدهم هنا "

" ألا يحسنُ بنا أنْ نحتفظ بروزا لتكون مترجمة مع الماكوشي؟ "

" نعم، ربما يجب أنْ نفعل. سأخبرها "

في مساء ذلك اليوم انتهى كل شيء ما عدا المجاديف. وخلال الساعة الأولى المنعشة من الظلام، حين كان في استطاعة توني والدكتور ماسنجر أنْ يتخلصا من القفازات والأخمرة التي ظلّت تزعجهما طوال النهار، استدعيا روزا إلى الجزء من المخيَّم حيث يتناولان طعامهما وينامان.

" روزا، لقد قرّرنا أنْ نصطحبكِ معنا في الرحلة النهرية. إننا بحاجة إلى مساعدتكِ في حديثنا مع الرجال. هل فهمتِ؟ "

لم تقُل روزا شيئاً، كان وجهها خالياً تماماً من أي تعبير، يُضيئه من الأسفل نور مصباح العواصف الموضوع على صندوق بينهما، وأخفى ظلُّ عظمتيّ وجنتيها العاليتين عينيها، شعر هزيل، مشعّث، ونقش وشم غامض منتشر على طول الجبين والشفة، وجسم ممتلئ داخل الثوب القطني القذر، والساقان السمراوان النحيلان.

" هل فهمتِ؟ "

لكنها أيضاً لم تنطق، بدا كأنها تنظر فوق رأسيهما إلى الغابة المظلمة، لكنَّ عينيها كانتا مختفيتين في الظل.

" اسمعي، روزا، كل النساء والرجال الأربعة سيبقون في المخيَّم. وثمانية رجال سيأتون في القوارب إلى قرية البي-وي. وأنتِ تأتين مع

القوارب. وعندما نصل إلى قرية البي-وي، تعودين مع الرجال الثمانية إلى المخيَّم وتنضمين إلى النساء والرجال. ومن ثم تعودون إلى بلد الماكوشي. هل فهمت؟ "

أخيراً تكلَّمت روزا " الماكوشي لا يجتمعون مع البي-وي "

" أنا لا أطلب منكِ أنْ تنضمّي إلى شعب البي-وي. أنتِ والرجال تأخذوننا حتى البي-وي، ومن ثم تعودون إلى شعب الماكوشي. هل فهمت؟ "

رفَعَتْ روزا ذراعها بحركة استدارة عناق غطَّتْ المخيَّم والدرب الذي سافروا عليه وأراضي السافانا خلفهم. قالت " شعب الماكوشي هناك "، ثم رفعَتْ الذراع الآخر ولوّحتْ به باتجاه مجرى النار نحو البلد المختبئ، وقالت " وشعب البي-وي هناك. شعب الماكوشي لا يجتمع مع شعب البي-وي "

" الآن اسمعي، يا روزا. أنتِ امرأة عاقلة ومتحضّرة. لقد عشتِ سنتين مع رجل أسود، هو السيد فوربس. وتحبّين السجائر - "

" نعم، أعطني سجائر "

" تأتين مع الرجال في القوارب، وسأعطيكِ الكثير، الكثير من السجائر "

نظرتْ روزا ببلاهة أمامها ولم تنطق بأي كلمة.

" اسمعي. سوف يُرافقكِ رجلكِ وسبعة رجال آخرين ليحموك. كيف نستطيع أنْ نتحاور مع الناس من دونكِ؟ "

قالت روزا " الرجال لن يذهبوا "

" طبعاً سيذهب الرجال. لكنَّ السؤال الهام هو، هل ستأتين أنت أيضاً؟ "

قالت روزا " الماكوشي لا يجتمعون بالبي-وي "

قال الدكتور ماسنجر بضجر " أوه يا إلهي، حسنٌ، سوف نتحدث في الأمر في صباح الغد "

" أعطني سيجارة... "

" سوف أتصرف بشكلٍ أخرق إذا لم تأتِ هذه المرأة معنا "

" سوف أكون أخرق أكثر منكَ بكثير إذا لم يأتِ أيٌ منهم "، قال توني.

* * *

في اليوم التالي كانت القوارب جاهزة. وبحلول الظهيرة دشّنوها وربطوها إلى الضفة. وباشر الهنود بصمت في إعداد عشائهم. وأكل توني والدكتور ماسنجر لساناً، وأرزاً مطبوخاً وبعض المشمش المعلّب.

قال الدكتور ماسنجر " وضعنا جيد بالمؤن. هناك قدر كافٍ مدة ثلاثة أسابيع على الأقلّ ومن المتوقع أنْ نقابل البي-وي في غضون يوم أو يومين. سوف ننطلق في الغد "

كانت أجور الهنود، على هيئة بنادق، وصنانير صيد سمك ولفائف قماش القطن، قد تُرِكَت لأجلهم في قريتهم. وكان لا يزال هناك عدد من صناديق " بضاعة المقايضة " للاستخدام خلال المرحلة المتأخرة من الرحلة. كانت ساق خنزير غاب تساوي حفنة من الطلقات أو عشرين كبسولة بندقية بتلك العملة المتداولة، وطريدة ثمينة تساوي قلادة.

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، وعند نحو الساعة الواحدة، استدعى الدكتور ماسنجر روزا إليهما. قال " سوف ننطلق غداً "

" نعم، فوراً "

" أخبري الرجال بما قلته لكِ في الليلة الفائتة. سيأتي ثمانية رجال بالقوارب، والآخرون ينتظرون هنا. وأنتِ تأتين في القارب. وكل هذه المؤن تبقى هنا. كل المؤن ستُنقَل بالقوارب. أخبريهم هذا "

لم تقل روزا شيئاً.

" هل فهمتِ؟ "

قالت " لن يذهب أحد بالقوارب. كلهم سيذهبون في هذا الاتّجاه "، وراحت تمدّ ذراعها باتجاه الدرب الذي مشوا فيه مؤخراً. " غداً أو بعد غد سيعود الناس كلهم إلى القرية "

سادت فترة صمت طويلة، وأخيراً قال الدكتور ماسنجر " قولي للرجال أنْ يأتوا إلى هنا... " ، ثم علّقَ لتوني بعد أنْ مشت روزا تتهادى عائدة إلى جوار النار، " لا فائدة من تهديدهم. إنهم قومٌ غريبو الأطوار، مذعورون. إذا هدَّدتهم يُصيبهم الذُعر ويختفون، ويتركونك ضائعاً. لا تقلق، سوف أتمكن من إقناعهم "

شاهدوا روزا تتكلّم بجوار موقد النار لكنَّ أحداً من المجموعة لم يأتِ بأي حركة. وبعد أنْ نقلَتْ إليهم رسالتها، رانَ عليها الصمت وجلست القرفصاء بينهم ووضعت إحدى النساء رأسها بين رُكبتيها. كانت تفتشُ عن القمل وإذا باستدعاء الدكتور ماسنجر يقطع عليها تفتيشها .

" يُستحسَن أنْ تذهب وتتحدث معهم "

كان بعض الهنود يجلسون على الأراجيح الشبكية، والبعض الآخر يجلسون القرفصاء على أعقاب أقدامهم، وكانوا قد كشطوا التربة وأطفؤوا النار بها. أخذوا يحدّقون إلى توني والدكتور ماسنجر بعيون

خنازير لوزية. وحدها روزا بقيَتْ لا مبالية، وقد حولّت بصرها بعيداً، وانصبَّ اهتمامها على أصابعها المشغولة وهي تلتقط القمل من شعر صديقتها وتسحقه.

سأل الدكتور ماسنجر " ماذا حدث؟ لقد طلبتُ منكِ أنْ تُحضري الرجال إلى هنا "

لم تنطق روزا.

" إذن فشعب الماكوشي جبان. إنهم يخافون البي-وي "

قالت روزا " إنها حقول المنيهوت. يجب أنْ نعود لكي نستخرج المنيهوت. وإلا فسد "

" اسمعي. أريد الرجال لمدة أسبوع أو أسبوعَين. لا أكثر. بعد ذلك، ينتهي كل شيء. يمكنهم أنْ يذهبوا إلى منازلهم "

" إنه موعد استخراج المنيهوت. على الماكوشي أنْ يستخرجوا المنيهوت قبل موسم المطر الغزير. كل الناس سيعودون إلى منازلهم الآن"

قال الدكتور ماسنجر " هذا ابتزازٌ سافر. فلنأتِ ببعض بضائع المقايضة "

قام توني والدكتور معاً بفتح أحد الصناديق وبدأا بنشر المحتويات على ملاءة. وكانا قد انتقيا تلك الأشياء معاً من مخزن رخيص في شارع أوكسفورد. راقب الهنود العرض بصمت مُطبق. كانت هناك زجاجات عطر وحبوب دواء، وأمشاط براّقة من السيلولويد مُرصَّعة بقطع من الزجاج اللامع، ومرايا، وسكاكين للجيب بمقابض من الألومنيوم المزخرف، وشرائط وقلائد ومقايضة بأشياء أكثر قيمة متمثّلة برؤوس فؤوس، وعلب خرطوش نحاسي، وقوارير مُسطّحة، حمراء اللون من غبار البارود.

قـالت روز وهي تلتـقط ورديّة ذات لون أزرق فـاتح، صُنِعَت على شكل هدية بهيـئـة قـارب سـباق، " أعطني هذه "، وكـرّرت، وهي تدعكُ بضع قطرات من العطر على راحة يديها وتستنشق بعمق، " أعطني هذه"

" يمكن لكل رجل أنْ ينتقي ثلاثة أشيـاء من هذا الصندوق إذا جاء معنا في القوارب "

لكنَّ روزا أجابت بنبرةٍ رتيبة " الماكوشي سيسـتخرجون المنيهوت من الحقول الآن "

قال الدكتـور ماسنجر بعد نصف ساعة من المفاوضات العقيـمة " عـبث. سـوف نضطر إلى أنْ نجـرّب بالأرز. أريد أنْ أحـتـفظ بهـا إلى أنْ نصل إلى البي-وي. أمر مـؤسف. لكنهم في الواقع مولعـون بالأرز. أنا أعرف كيف يفكّر الهنود "

هذه الفئران كانت أشيـاء غالية الثمن نسبياً، الواحد منها يساوي ثلاثة جنيهات وستة بنسات، وتذكّر توني بحيوية الحَرَج الذي انتابه وهو يعرضها على أرض مخزن بيع الدُمى.

كانت صناعة ألمانيـة، في حجم جرذان كبيـرة، مرسوماً عليـها نقـاط خضراء وبيضـاء بشكلٍ بارز، وعـيونهـا كبيرة ولامـعة، وشـوارب متـيبّسة وأذناب بحلقـات بيـضـاء وخضـراء، كـانت تركض على دواليب خفـيّـة، وداخلها أجراس صغيرة تقرع أثناء تحركها. أخرجَ الدكتور ماسنجر أحدها من صندوقهـا، وأزال عنه المنديل الورقي ورفعـه أمام تحديق الجميع. ولم يكن هناك أدنى شك في أنه قد أسرَ اهتـمام جمهوره. ثم مـلأه. وانتبه الهنود بخوف للصوت الصادر.

كانت الأرض التي يُقيـمون عليـها المخيَّم من الطين القاسي، وفي

وقت الفيضان تُغمَر بالمياه. وضعَ الدكتور الدمية عند قدميه وجعلها تمشي، راحت تركض وهي تُصدر تكّة مرحة وتتجه نحو جمع الهنود. وتملك توني برهة الخوف من أنْ تنقلب أو تعلق بأحد الجذور، لكنَّ الآليّة كانت جيدة والمسار خالياً. وفاق الأثر كل توقعاته. وأطلقوا شهقةً مسموعة، وسلسلة من النخرات القصيرة، المرتعبة، وصوت وقع خفيف لأقدام حافية سمراء بين أوراق النبات الساقطة، ودفعَتْ أطراف عارية، وهادئة كالخفافيش، النباتات المنخفضة، وعلِقَت الملابس القطنية الرثّة وتمزّقَتْ بأكمات الشوك. وقبل أنْ تتوقف الدمِية، وقبل أنْ تكف عن الرنين وهي تشق طريقها إلى أقرب موقع يجلس فيه هندي القرفصاء، كان المخيَّم قد أصبح خالياً.

الدكتور ماسنجر " لعنني الله، إنَّ هذا أفضل مما توقّعت "

" أكثر مما توقّعتَ، على أي حال "

" أوه، لا بأس. سوف يعودون. أنا أعرفهم "

ولكن مع غروب الشمس لم يكن قد ظهر لهم أثر. وعلى امتداد فترة بعد الظهر الحارة كان توني والدكتور ماسنجر يتمددان على الأرجوحة الشبكية، وقد غطّاهما ذباب الكابوري. وكانت القوارب في النهر، قال الدكتور ماسنجر " يُستحسن أنْ نضرم ناراً. سوف يأتون عندما يحلُّ الظلام.

أبعدا التراب عن الجمرات القديمة، وجلبا حطباً جديداً وأضرما ناراً، وأشعلا مصباح العاصفة.

قال توني " الأفضل أنْ نُعدّ شيئاً للعشاء "

قاما بغلي الماء وصنعا بعضاً من شراب الكاكاو، وفتحا علبة

سلمون وأجهزا على ما تبقّى من المشمش من وجبة الظهيرة. أشعلا غليونين وغطيا أرجوحتيهما بالناموسية. كانا في أغلب الوقت صامتين. وسرعان ما قرّرا أنْ يناما.

قال الدكتور ماسنجر " سوف نجدهم جميعاً هنا في الصباح. إنهم قوم غريبو الأطوار "

كانت أصوات الغاب من حولهم تصفّر وتنعق، وتتبدّل مع تقدُّم الساعات ومع تقدُّم الليل من الصباح.

* * *

انبلج الصبح في لندن، صافياً وعذباً، رمادياً يمامياً وعسلياً، مع وعدٍ بطقس جيد، شحبَ ضوء مصابيح الشوارع ثم اختفى، كانت المياه تجري في الشوارع الخالية، وقبضتْ الشمس المشرقة عليها وهي تخرخر حول خراطيم المياه، والرجال بلباس العمل يؤرجحونها من طرف إلى طرف والماء ينبثق ويرش رذاذاً من الضوء.

قالت بريندا " دعنا نفتح النافذة، أصبح الجو فاسداً هنا "

أزاح النادل الستائر، وفتح النوافذ "

ثم أضافت " الضوء غامر "

" لقد تجاوزت الساعة الخامسة. ألا ينبغي أنْ نأوي إلى السرير؟ "

" نعم "

قال بيفر " بعد أسبوعٍ من الآن سينتهي فصل إقامة الحفلات "

" نعم "

" إذن، هيا بنا "

" حسن. هل تستطيع أنْ تدفع؟ أنا لا أملك أي مبلغ "

كانا قد جاءاها بعد الحفلة، لأنَّ نادي ديزي كان قد بدأ بتقديم الفطور. دفعَ بيفر ثمن سمك السلمون والشاي. قال " ثمانية شلنات. كيف تتوقع ديزي أنْ تُحقق النجاح للمكان وهي تطلب مثل هذه الأسعار؟ "

" لا يبدو سعراً مرتفعاً... إذن فأنتَ ذاهب حقاً إلى أميركا؟ "

" يجب أنْ أفعل. لقد حجزت أمي البطاقات "

" آمل ألا يكون أي شيء مما قلته هذه الليلة قد أثَّر فيك؟ "

" حبيبتي، لا تُكملي. لقد خضنا في هذا من قبل. أنتِ تعلمين أنه الشيء الوحيد الذي يمكن أنْ يحدث. فلماذا تفسدين الأسبوع الأخير؟ "

" هل استمتعتَ حقاً بفصل الصيف؟ "

" طبعاً... حسن، هلاّ ذهبنا؟ "

" نعم. لا داعي لتزعج نفسك وتواكبني حتى المنزل "

" أمتأكدة من أنكِ لا تمانعين؟ إنه بعيد عن الطريق العامة بأميال والوقت متأخّر "

" أنا لا أعرف ما الذي أمانع فيه "

" بريندا، إكراماً لله... لا يليقُ بكِ أنْ تستمري في هذا "

" لم أكن مرة متحمّسة لجعل نفسي مُكلفة "

* * *

رجعَ الهنود خلال الليل، بينما توني والدكتور ماسنجر نائمان، زحفَ أفراد الشعب الصغير دون أنْ ينطقوا بكلمة خارجين من مخبئهم، كانت النسوة قد خلعنَ ملابسهن وتركنها على بُعد مسافة لكي لا يُفشي أي غصن تحركاتهنّ، وكانت أجسادهن العارية تتنقَّل دون إصدار

أي صوت أثناء مرورهنّ بين النباتات المنخفضة، كانت الجمرات المتوهجة في النار ومصباح العاصفة الموضوع على مسافة عشرين ياردة هي مصدر الضوء الوحيد، وكان القمر غائباً. جمعوا سلالهم المجدولة وجعالتهم من طحين النشا، وأقواسهم وسِهامهم، والمسدس وسكاكينهم العريضة النصال، ولفّوا أراجيحهم الشبكية على شكل اسطوانات متماسكة. ولم يأخذوا شيئاً ليس لهم. ثم زحفوا عائدين خلال الظلال إلى داخل الظلمة.

عندما استيقظ توني والدكتور ماسنجر كان جلياً لهما ما حدث.

قال الدكتور ماسنجر " إنَّ الوضعَ خطير، ولكن ليس ميؤوساً منه "

٤

على مدى أربعة أيام جدَّفَ توني والدكتور ماسنجر في النهر. جلسا، متوازنَين بشكلٍ متقلقل، على طرفيّ القارب الخفيف، وبينهما كوَّما خلاصة ما في المخزون، أما الباقي، مع باقي القوارب، فتُرِكَ في المعسكر، لكي يعودا إليه بعد أنْ يحصلا على مساعدة البي-وي. حتى القدر الأدنى الذي انتقاه الدكتور ماسنجر كان ثقيلاً على القارب الصغير إلى درجة أنه انخفضَ إلى مستوى خطير، وكانت أقلّ حركة تجلب الماء إلى شفير الحافّة مهدداً بإحداث كارثة، وكان توجيه دفّته أمراً صعباً وتقدّمه بطيئاً، مُكتفيين، في معظم الوقت، بالحفاظ على توازن الطرفَين، والانجراف مع التيار.

ومرتان صادفا شلالات عريضة، وهنا توقّفا على الضفة، وافرغا الحمولة وخاضا بجوار القارب، وأحياناً كانا يغوصان حتى مستوى الخصر، أو يرتقيان الصخور، ويقودونه باليد إلى أنْ يصلا إلى مياهٍ

صافية من جديد. ثم يرسوان على الضفة ويُعيدان الحمولة إليه خلال الغاب. وكان باقي الطريق في النهر عريضاً وسلساً، وسطح الماء مظلماً تعكسُ بتفاصيل دقيقة جدران الغابة على الجانبين، تعلو شامخة من بين النباتات الدنيا إلى ذروتها المزهرة على علو مائة قدم أو أكثر منها. وأحياناً كانا يُصادفان مساحة من الماء مرشوشة ببتلات ساقطة ويجري بينها برفق، متحركاً ببطءٍ مثلها، وكأنه يرتاح وسط مرجٍ متحرِّك. وليلاً كانا يمدّان قطعة المشمَّع على مساحة جافة من الشاطئ، أو يعلّقان أرجوحتيهما الشبكيتين في الدغل. لا يعكِّر صفو أيامهما إلا ذباب الكابوري والتماسيح النادرة والساكنة.

كانا لا يكفّان عن التدقيق في الضِفاف لكنهما لم يجدا أي أثر لحياةٍ بشرية.

أُصيبَ توني بالحمّى. حطَّتْ عليه فجأةً، خلال بعد ظهيرة اليوم الرابع. عندما توقفا عند منتصف النهار كان في أتمّ صحة واصطاد غزالاً صغيراً جاء لكي يشرب على الضفة المقابلة، وبعد ذلك بساعة بدأ يرتعش بعنف حتى إنه وضعَ جانباً مجدافه، وكان رأسه يلتهبُ بالحرارة، وجسمه وأطرافه متجمدة، وبحلول غروب الشمس كان قد بدأ يهذي قليلاً.

قاسَ الدكتور ماسنجر حرارته فوجدها قد تجاوزت الأربعين درجة مئوية. أعطاه خمساً وعشرين حبة من الكينين وأشعلَ ناراً قريبة جداً من أرجوحته ولكن مع حلول الصباح كانت قد سُفعَتْ واسودَّتْ من الدخان. وطلبَ من توني أنْ يبقى متدثّراً بملاءته، لكنه كان طوال تلك الليلة يفيق على فترات من نومه ليجد أنّه منقوع بالعَرَق، كان العطش الحارق يدفعه

إلى شرب إبريقٍ بعد إبريق من مياه النهر. ولم يتمكن في تلك الأمسية ولا في صباح اليوم التالي من أكل أي شيء.

ولكن في صباح اليوم التالي انخفضَتْ حرارته من جديد، وشعر بالوَهَن والإرهاق ولكن كان قادراً على البقاء بثبات في مكانه والتجديف قليلاً.

قال " كانت مجرد نوبة عابرة، أليس كذلك؟ سوف أتعافى تماماً غداً، أليس كذلك؟ "

قال الدكتور ماسنجر " أتمنى ذلك "

عند منتصف النهار شربَ توني الكاكاو وأكلَ ملء كوبٍ من الأرز.

قال " أشعر بأني في أحسن حال "

" عظيم "

في تلك الليلة عاودته الحمى من جديد. كانا يُخيمان على ضفةٍ رملية. أحمى الدكتور ماسنجر بعض الحجارة ووضعها تحت قدميّ توني وفي أسفل ظهره. وبقيَ يقظاً طوال الليل وهو يُغذّي النار ويُعيدُ ملء إبريق توني بالماء. وعند الفجر نام توني مدة ساعة ومن ثم استيقظَ شاعراً بأنه أفضل حالاً قليلاً، كان يتناول جرعات متتالية من الكينين وشعر كما لو أنَّ ضجيجاً مكبوتاً يصمُّ أذنيه وكأنه يضعُ صَدَفَتين عليهما يستطيع أنْ يسمع فيهما، كما قيل له وهو طفل، هدير البحر.

قال الدكتور ماسنجر " يجب أنْ نُتابعَ طريقنا. لابد أننا قد اقتربنا من القرية الآن "

" أشعر أني في حالٍ سيئة. أليس من الأفضل أنْ ننتظر يوماً آخر إلى أنْ أستعيد عافيتي من جديد؟ "

" الانتظار ليس في صالحنا. يجب أنْ نواصل المسير. أتعتقد أنّ في استطاعتكَ أنْ تستقلّ القارب؟ "

كان الدكتور ماسنجر يعلمُ أنَّ توني مقبل على نوبة حمى طويلة.

خلال الساعات القليلة الأولى من ذلك اليوم استلقى مُنهكاً في مقدم القارب. وكانا قد أزالا المؤن لكي يتمكن من الاستلقاء على طوله. ومن ثم عاودته الحمى من جديد واصطكّت أسنانه. استقامَ في جلسته وجلس القرفصاء واضعاً رأسه بين رُكبتيه، والرعشة تهزّ جسمه كله، فقط جبينه ووجنتاه كانت تلتهب بالحرارة تحت شمس الظهيرة. ولم يظهر أي أثر للقرية في الأفق.

* * *

شاهد بريندا للمرة الأولى في وقتٍ متأخر من بعد الظهيرة. بقيَ يُحدّق بتمعُّن بعض الوقت في القوام الغريب في وسط السفينة حيث تتكوَّم المؤن، ثم أدركَ أنه كائن بشري.

قال " إذن فقد عادَ الهنود ؟ "

" نعم "

" كنتُ أعلمُ أنهم سيعودون. حماقة منهم أنْ يخافوا من دمية. أعتقد أنَّ الآخرين سيلحقون بهم "

" نعم، أعتقد ذلك. حاول أنْ تجلس بهدوء "

قال توني بسخرية للمرأة الواقفة في منتصف السفينة " ما أحمقهم إذ يخافون من فأر دمية ". ثم وجد أنها بريندا. قال " أنا آسف، لم أعرف أنه أنت. أما أنت فلن تخافي من فأر دمية "

لكنها لم تُجبه. جلسَتْ كما تعوَّدتْ أنْ تفعل بعد عودتها من لندن، منكبّة فوق طاسٍ من الخبز والحليب.

وجّه الدكتور دفّة القارب نحو الضفة. وكادوا ينقلبون وهو يُساعد توني على الخروج. نزلتْ بريندا إلى الشاطئ دون مساعدة أحد. خرجت بأسلوبها الرقيق، المتمكّن، وحافظَتْ على توازن القارب.

قال توني " هكذا يكون التوازن. أتعلمْ، ذات يوم رأيتُ ورقة استفتاء يملؤها الناس عندما يتقدّمون لطلب وظيفة في شركة أميركية، وكان أحد الأسئلة التي ينبغي الإجابة عنها هو " هل تتصفِ بالاتّزان؟ "

كانت بريندا واقفة على أعلى الضفة في انتظاره. شرح باجتهاد "الشيء السخيف في السؤال كان أنه لم يكن لديهم غير كلمة المتقدِّم كجواب عن السؤال. أي - هل يدلُ على الاتّزان إذا اعتقدتَ أنكَ مُتّزن؟"

" فقط الزم الهدوء هنا بينما أعلّق أرجوحتك الشبكية "

" نعم، سأجلس هنا، مع بريندا. أنا في منتهى السعادة لأنها استطاعت أنْ تأتي. لابد أنها استقلّت قطار الساعة الثالثة وثماني عشرة دقيقة "

مكثَتْ معه طوال تلك الليلة وطوال نهار اليوم التالي. تكلّم معها دون توقُّف لكنَّ إجاباتها كانت نادرة ومُلغزة. وفي الليلة التالية انتابته نوبة جديدة من التعرُّق. وحافظ الدكتور على تأجُّج نار كبيرة بجوار الأرجوحة ودثَّرَ توني بملاءته الخاصة. وقبل بزوغ الفجر بساعة استغرقَ توني في النوم وعندما أفاق كانت بريندا قد اختفَتْ.

" لقد انخفضَتْ الحرارة إلى المستوى الطبيعي "

" الحمد لله. لقد كنتُ مريضاً جداً، أليس كذلك؟ لا أتذكَّر الكثير "

كان الدكتور ماسنجر قد بنى ما يشبه المُخيَّم. وكان قد أزال مساحة مربّعة من النباتات المنخفضة، بحجم غرفة صغيرة. وعلّقَ أرجوحتيهما

على الجانب المقابل لها. وكانت المؤونة كلها على اليابسة، مُرتَّبة على شكل كومة مُنسّقة على المُشمَّع.

" كيف تشعر؟ "

قال توني " عظيم "، ولكن حين ترجّلَ عن أرجوحته وجدَ أنه عاجز عن الوقوف من دون مساعدة. " طبعاً، أنا لم أتناول أي طعام. أعتقد أنه سيمر يوم أو يومان قبل أنْ أتعافى تماماً "

لم يقُلْ الدكتور ماسنجر أي شيء، بل نقّى الشاي من الأوراق بسكبهِ ببطء من إبريقٍ إلى آخر، وحركه مع ملء ملعقة كبيرة من الحليب المُركَّز "

" جرِّبْ وانظر إذا كان في استطاعتك أنْ تشربه "

شربه توني باستمتاع وأكل بعض البسكويت.

سأله " هل سننطلق اليوم؟ "

" سوف نفكّر في الأمر "، أخذ الأباريق إلى أسفل الضفة وغسلها في النهر. وعندما عاد قال " أعتقد أنَّ من الأفضل أنْ أشرح الوضع. لا فائدة من الظن أنكَ قد شُفيت لأنكَ لم تتخلّص من الحمى إلا ليومٍ واحد. هذا هو واقع الأمر. يوم من الحمى ويوم من الحرارة الطبيعية. قد يستغرق الأمر أسبوعاً أو قد يستغرق أكثر من ذلك بكثير. هذه هي الحقيقة. لا أستطيع أنْ آخذك معي في القارب. لقد كدتَ تسبب لنا الاضطراب مرات عدّة قبل يومين "

" تخيَّلتُ أنيٍ أَشاهد أمامي شخصاً أعرفه "

" لقد تخيَّلتَ أشياء كثيرة. وسوف يستمر الوضع على هذا المنوال. في هذه الأثناء لدينا مؤن تكفينا مدة عشرة أيام. لا داعي للقلق حالياً

ولكن يجب أنْ نضع هذا في الحسبان. ثم إنَّ ما تحتاج إليه هو سقف يحمي رأسك ورعاية دائمة. ليتنا كنا في القرية... "

" أخشى أني كنتُ مصدر إزعاجٍ عظيم "

" ليس هذا هو المهم. المهم هو أنْ نجد أفضل ما يمكننا أنْ نفعله "

لكنَّ توني كان غاية في الإرهاق لأن يفكِّر، فأغفى مدة ساعة أو نحوها. وعندما أفاق، كان الدكتور ماسنجر يُزيل مزيداً من نباتات الغاب. " سوف أصنع من المُشمَّع سقفاً "

(كان قد علَّمَ موقع المكان على خريطته بعبارة " مخيَّم قاعدة طوارئ مؤقَّتة ")

راقبه توني بفتور. وسرعان ما قال " اسمع، لِمَ لا تتركني هنا وتصعد النهر وتجلب مساعدة؟ "

" لقد فكَّرتُ في هذا. إنها مُخاطرة فادحة "

بعد ظهيرة ذلك اليوم عادت بريندا لتجلس إلى جوار توني وكان يرتعش ويتقلَّب على أرجوحته.

* * *

عندما أصبح توني قادراً على تمييز الأشياء في المرة التالية، لاحظَ أنَّ هناك مُشمَّعاً يُظلل رأسه، مُعلّقاً من جذوع الأشجار. سأله " منذ متى ونحن هنا؟ "

" منذ ثلاثة أيام فقط "

" كم الساعة الآن؟ "

" تقترب من العاشرة صباحاً "

" أشعر أني في أسوأ حال "

أعطاه الدكتور ماسنجر بعض الحساء. قال " سأبحر في النهر هذا اليوم لأرى إنْ كان هناك أي دليل على وجود قرية. أكره أنْ أتركك، لكنها فرصة تستحق أنْ أنتهزها. سوف أتمكن من قطع مسافة طويلة بالقارب بعد أنْ أصبح فارغاً. استلق بهدوء. أتمنى أنْ أحصل على مساعدة بعض الهنود "

قال توني " حسن "، واستغرقَ في النوم.

هبطَ الدكتور ماسنجر إلى حافة النهر وحلَّ وثاق القارب، جلبَ معه البندقية، وكأساً للشرب ومؤونة يوم. جلسَ على مؤخر القارب ودفعه بعيداً عن الضفة، حمل التيار المقدمة إلى الأمام وببضع دفعات من المجداف أصبح في مجرى النهر.

كانت الشمس في كبد السماء وبهره انعكاسها على سطح الماء وحرقه، واصل التجديف بضربات منتظَمة، هادئة، كان يتقدَّم بسرعة. وطوال مسافة ميل ضاقَ مجرى النهر وتسارعت سرعة تدفّق المياه بحيث كل ما كان عليه أنْ يفعله هو أنْ يترك شفرة المجداف وكأنها دفة توجيه، ثم أخذت جدران الغابة على جانبيه تتراجع وانجرفَ إلى بحيرة عظيمة رحبة، حيث بات عليه أنْ يكدّ بشدة لكي يتقدَّم، وكان طوال الوقت يُراقب بعينٍ مُدقِّقة ذات اليمين وذات اليسار بحثاً عن عمود من الدخان، عن سقفٍ من قش، عن قامة سمراء ماكرة وسط النباتات، عن قطيع يشرب، يكشفُ عن القرية التي يسعى إليها. ولكن لم يعثر على شيء. ووسط المياه المفتوحة وضعَ منظار الميدان وراح يتفحّص كامل الهامش المُشجَّر. لكنه لم يجد شيئاً.

لاحقاً ضاق مجرى النهر من جديد وانطلقَ القارب إلى الأمام مع

التيار السريع. وأمامه كان سطح الماء تقطعه منحدرات، واهتاج الماء ودوَّمَ، وهدَّدته وتيرة رتيبة بأنَّ وراء المنحدرات هناك يوجد شلال. وبدأ الدكتور ماسنجر يوجّه دفّة القارب نحو الضفة. وكان التيار يزداد سرعة وأخذ يبذل أقصى قوته، وقبل بداية المنحدرات النهرية بعشرة ياردات اندفعَ مقدّم القارب باتجاه أسفل الضفة. كان هناك حرج كثيف من الأشواك، يُخيِّم على النهر، انسابَ القارب تحته ودخلَ قليلاً إلى اليابسة، ركعَ الدكتور ماسنجر بحذرٍ شديد مائلاً إلى الأمام وهو في مكانه ومدَّ نفسه ليبلغ غصناً فوق رأسه. في تلك اللحظة أخفقَت محاولته، فقد تأرجحَت مؤخرة القارب داخل مجرى النهر وبينما كان يختطف المجداف انجرفَ القارب على جنبه نحو المياه المضطربة، وهناك اتّخذ مساراً غريب الشكل، وأخذ يدور حول نفسه ويتخبَّط باتجاه الشلالات. وانجرفَ الدكتور ماسنجر إلى داخل الماء، كان في بعض الأماكن ضحلاً جداً وأخذ يتمسّك بالصخور لكنها كانت قد أضحت ملساء عاجيّة الملمس ولم توفِّر أي ممسك ليديه، وتقلَّب مرتين، ووجد نفسه في المياه العميقة وحاولَ أنْ يسبح، فوجد نفسه من جديد بين الجلاميد وحاولَ أنْ يتمسّك بها. ثم وصلَ إلى الشلالات.

كانت خالية من روعة المشاهد الطبيعية ككل الشلالات في ذلك البلد - مجرد مساقط بعلو عشرة أقدام أو أقلّ - لكنها كانت كافية بالنسبة إلى الدكتور ماسنجر. في أسفلها يخمد الزبَد ليغدو بركة كبيرة، تكاد تكون ساكنة، ومفروشة بالأزهار الساقطة من أشجار الغابة التي تكتنفها. كانت قبعة الدكتور ماسنجر قد طَفَتْ ببطءٍ شديد وانسابت باتجاه نهر الأمازون وأطبقَت المياه على رأسه الأصلع.

* * *

ذهبتْ بريندا لتقابل محاميّي العائلة.

قالتْ " سيد غريسفول، يجب أنْ أحصل على المزيد من المال "

نظر السيد غريسفول إليها بحزن. " أعتقد أنَّ هذه المسألة من اختصاص مدير المصرف الذي تتعاملين معه. وما أعرفه هو أنَّ سنداتك المالية مكتوبة باسمك وأنَّ إيراداتك منها تُضاف إلى حِسابك "

" يبدو أنهم في هذه الأيام لا يدفعون إيرادات الأسهم. ثم إنَّ من الصعوبة بمكان العيش بمبلغ صغير إلى هذه الدرجة "

" لا شك في ذلك. لا شك في ذلك "

" ألم يمنحكَ السيد لاست وكالة رسمية؟ "

" لا تتمتع إلا بسلطة محدودة جداً، ليدي بريندا. لديَّ تعليمات بتسديد قيمة الإيجار في هيتون وكافة التكاليف المتعلّقة بصيانة العزبة - إنه يُركِّب غرفاً جديدة للاستحمام ويُجري إصلاحاً لبعض الزخارف في الغرفة الصباحية التي تخرَّبت. ولكن أخشى أنه لا سلطة لي تخوّلني أنْ أسحب من حِساب السيد لاست لتسديد نفقات أخرى "

" ولكن، سيد غريسفول، أنا واثقة من أنه لم يقصد أنْ يغيب طويلاً. ولا يمكن أنْ يقصد أنْ يتركني منبوذة هكذا، أليس كذلك؟... أليس كذلك؟ "

سكتَ السيد غريسفول وتململَ قليلاً. " لكي أكون صريحاً تماماً معكِ، ليدي بريندا، أخشى أنَّ هذه كانت نيَّته فعلاً. لقد أثرتُ هذه النقطة بالذاتَ معه قُبيلَ مغادرته. لقد كان شديد التصميم في هذا الموضوع "

" ولكن هل يُسمَح له بفعل ذلك؟ أعني، أليست لي أي حقوق في ظل تسوية الزواج أو أي شيء؟ "

" لن تحصلي على أي شيء تستطيعين أنْ تطالبي به دون العودة إلى المحاكم. وقد تجدين محامين ينصحونك باتخاذ خطوة عملية. أما أنا فلا أستطيع أنْ أفعل مثلهم. إنَّ السيد لاست سيُعارض مثل هذا الأمر إلى أبعد مدى وأعتقد أنَّ المحاكم، في الظروف الراهنة، سوف تُصدر حكماً لصالحه. على أي حال سوف تكون دعوى طويلة الأمد، وتكلّف الكثير ومُشينة قليلاً "

" أوه، فهمت... إذن، انتهى الأمر، أليس كذلك؟ "

" هذا حتماً ما يبدو "

نهضَتْ بريندا لتغادر. كان الوقت منتصف الظهيرة وعبر النوافذ المفتوحة استطاعت أنْ ترى حدائق " لينكولن إنْ " التي تغسلها أشعة الشمس.

" بقيَ شيءٌ واحد. هل تعلمين، أعني، هل لديكِ علِم إنْ كان السيد لاست قد ترك وصيّة أخرى؟ "

" أخشى أن لا أستطيع مناقشة هذا الأمر "

" كلا، أعتقد أنكَ لا تستطيع. أنا آسف إذا كان من الخطأ أنْ أسأل. أنا فقط أريد أنْ أعلم ما هو وضعي معه "

كانت لا تزال تقفُ بين الباب والطاولة، يبدو عليها الضياع، بملابسها الصيفية البرّاقة. " ربما في استطاعتي أنْ أقول بقدر ما قلت لأرشدك. إنَّ الورثةَ المفترَضين لهيتون هم الآن أقرباؤه، آل ريتشارد لاست في برينسس ريبورو. أعتقد أنَّ معرفتكَ بشخصية السيد لاست وآرائه سوف تُنبئك بأنه كان دائماً يتمنى أنْ يخسر ثروته والعزبة، لكي تبقى في ما يعتقد أنه وضعها الصحيح "

قالت بريندا " نعم، كان ينبغي أنْ أفكّر في هذا. حسن، إلى اللقاء" وخرجتْ وحدها إلى الشمس المشرقة.

* * *

بقيَ توني طوال اليوم متمدداً وحيداً، يغيبُ على فترات عن الوعي بمرور الزمن. نام قليلاً، وغادرَ مرةً أو مرتين أرجوحته فوجد أنه ضعيف ومُصاب بدوار. حاولَ أنْ يأكل شيئاً من الطعام الذي تركه له الدكتور ماسنجر، ولكنه لم ينجح في ذلك. ولم يُدرك إلا بعد أنْ حلَّ الظلام أنَّ النهار قد انصرم. فأشعل المصباح وبدأ يجمع الحطب لإشعال النار، لكنَّ العيدان كانت تنزلق من بين أصابعه وكلما انحنى شعر بالدوار، لذلك تخلى عنها حيث وقعت منه بعد بضع محاولات متقطعة وعاد إلى أرجوحته. وبعد أنْ تمدَّد هناك، وتدثَّرَ بالملاءة، بدأ يبكي.

بعد مرور بضع ساعات من الظلام بدأ نور المصباح يخفت، فمال بشكلٍ مؤلِم، وهزَّه. كان بحاجة إلى إعادة ملء. كان يعرف أين يحتفظ بالوقود، فزحف إليه، مُعتمداً أولاً على حبل الأرجوحة ومن ثم على كومة الصناديق. عثر على برميل زيت الوقود الصغير، فرفع السدادة وبدأ يُعيد ملء المصباح، لكنَّ يده ارتعشتْ وأُريقَ الزيت على الأرض، ثم بدأ رأسه يترنَّح من جديد حتى أنه أغمضَ عينيه، وانقلبَ البرميل على جنبه وأُريقَ بدفقاتٍ بطيئة. وحين أدركَ ما حدث، عاد يبكي من جديد. تمدَّد على أرجوحته وفي غضون بضع دقائق غاص الضوء، وخفت ثم انطفأ. كانت رائحة زيت الوقود تفوح من يديه ومن الأرض المُشبعة به. تمدَّد يقظاً في الظلام وبكى.

قُبيل بزوغ الفجر عاودته الحمّى وأربكت أحاسيسه عُصبةٌ من الأشباح.

* * *

استيقظتْ بريندا وهي في أسوأ حالة نفسية. كانت قد أمضَتْ الليلة السابقة في إحدى دور السينما وحدها. بعد ذلك شعرتْ بالجوع - لم تكن قد تناولت وجبة لائقة في ذلك اليوم - ولكنها لم تقوَ على الذهاب وحدها إلى أي من مطاعم العشاء. فاشترت فطيرة لحم من أحد أكشاك بيع القهوة وأخذتها معها إلى المنزل. بدت لذيذة ولكن حين همَّتْ بأكلها وجدت أنها قد فقدت شهيتها. وعندما استيقظت من النوم كانت بقايا الفطيرة موجودة على طاولة الزينة.

إنه شهر آب وهي وحيدة بكل معنى الكلمة. كان بيفر في ذلك اليوم يستقرّ في مدينة نيويورك. (أبرقَ لها من وسط المحيط يقول إنَّ العبور كان رائعاً) وكان ذلك آخر ما سمعته عن بيفر. انتهت دورة البرلمان وجوك غرانت-منزيس يقوم بزيارته السنوية لأخيه الأكبر في سكوتلندا، ووصلت مارجوري وألان إلى يخت اللورد مونومارك في اللحظة الأخيرة وهما الآن ينسابان برفاهية على طول الشاطئ ويحضران مباريات مصارعة الثيران (بل إنهما طلبا منها أنْ تعتني بجن). وكانت أمها في الشاليه التي دائماً تستأجره من ليدي أنكوراج ويطلُّ على بحيرة جينيف. وبولي كانت في كل مكان. حتى جيني عبد الأكبر كانت تقوم برحلة بحرية في بحر البلطيق.

فتحت بريندا صحيفتها وقرأتْ مقالة كتبها شابٌ قال فيها إنَّ موسم لندن أصبح شيئاً من الماضي، وإنَّ الجميع من كثرة الانشغال في تلك الأيام بحيث يُحافظون على روتين ما قبل الحرب، وإنَّه لم تعد هناك رقصات تقليدية بل دورة متواصلة من التسلية الأشدّ تواضعاً، وإنَّ شهر آب في لندن كان أبهج أوقات العام قاطبة (كان يُعيد ذكر هذا سنوياً مع تغيير بسيط في الكلمات). ولم تواسِ بريندا قراءتها لتلك المقالة.

كانت قبل أسابيع قد حاولتْ أنْ تواظب على التفكير في توني وفي طريقته في معاملتها، أما الآن فقد انهارت أخيراً، وتقلّبت على فراشها ودفنَتْ وجهها في الوسادة في حالة من ألم الإحساس بالامتعاض ورثاء الذات.

* * *

في البرازيل ارتدتْ ثوباً رثاً من القطن من نفس نوع ثوب روزا. لم يكن ذلك مُشيناً. راقبها توني لبعض الوقت قبل أنْ يتكلّم، " لماذا تلبسين هكذا ؟ "

" ألا يعجبك؟ حصلتُ عليه من بولي؟ "

" يبدو شديد القذارة "

" في الواقع، إنَّ بولي تُكثر من السفر. يجب أنْ تنهضَ الآن وتذهب لحضور اجتماع مجلس المقاطعة "

" لكنَّ اليوم ليس الأربعاء؟ "

" كلا، لكنَّ التوقيت مختلف في البرازيل، أنتَ حتماً تتذكَّر هذا ؟ "

" أنا لم أذهب في حياتي إلى أبعد من بيغستون. يجب أنْ أبقى هنا إلى أنْ يعودَ ماسنجر. أنا مريض. لقد طلبَ مني أنْ أبقى هادئاً. سوف يعود هذا المساء "

" لكنَّ أعضاء مجلس المقاطعة مجتمعون هنا. لقد أحضرتهم الشقراء المُشينة إلى هنا بطائرتها "

وقد كانوا جميعاً هناك فعلاً. كان ريجي سينت كلود هو رئيس المجلس. قال " إنني أحتجُّ بشدّة على وجود ميلي في اللجنة. إنها امرأة ذات سُمعة شائنة "

احتجَّ توني. " إنَّ لها ابنة. ولها من الحقوق كما لليدي كوكبيرس "

قال المُحافظ " نظام. يجب أنْ أطلب منكم أيها السادة أنْ تقتصر ملاحظاتكم على الموضوع محور المناقشة. علينا أنْ نُصدر قراراً بشأن توسيع طريق بيتون-بيغستون. فقد وردت شكاوى عديدة من أنَّ من المستحيل على حافلات غرين لاين أنْ تنعطف عند المنعَطَف بأمان عند هيتون كروس.

" جرذان غرين لاين! "

" أنا قلت جرذان غرين لاين. جرذان غرين لاين الآلية. إنَّ العديد من القرويين خافوا منها وفرّوا من أكواخهم "

قال ريجي سينت كلود " أنا هربت. لقد طردتني جرذان خضراء آلية"

قالت بولي كوبيرس " نظام. أدعو السيد لاست لإلقاء خطابه "

" اصغوا ، اصغوا "

قال توني " سيداتي وسادتي، أتوسل إليكم أنْ تفهموا أني مريض ويجب ألا أتحرَّك من الأرجوحة. لقد أصدر الدكتور ماسنجر إليَّ تعليمات شديدة الوضوح "

" ويني تريد أنْ تستحم "

صاح أعضاء المجلس " ممنوع الاستحمام في البرازيل. ممنوع الاستحمام في البرازيل. ممنوع الاستحمام في البرازيل "

" لكنكَ تناولتَ وجبتيَّ إفطار "

قال المحافظ " نظام. أقترحُ عليك، لورد سينت كلود ، أنْ تطرح القضية للتصويت "

" القضية هي ما إذا كان عقد توسيع منعطف موقع هيتون كروس

سيكون من نصيب السيدة بيفر. إنَّ العطاء الذي قدَّمته كان الأعلى تكلفة على الإطلاق لكنني أتفهَّم أنَّ خطتها تتضمَّن إقامةَ جدار مكسو بألواح الكروم على الجانب الجنوبي من القرية... "

ألحّتويني "... ووجبتيّ الفطور "

"... ووجبتيّ الفطور للرجال المشتركين في العمل. على الموافقين على الإجراء أنْ يُصدروا قرقاً كما يفعل الدجاج، وعلى المعارضين أنْ يقولوا باو-واو "

قال ريجي " هذا إجراء غير لائق أبداً. ماذا سيظنُّ الخدم؟ "

" يجب أنْ نفعلَ شيئاً إلى أنْ يتم إبلاغ بريندا "

"... أنا؟ أنا على ما يُرام "

" إذن أفهمُ من هذا أنْ يبدأ العمل "

قالت بريندا " أوه، أنا سعيدة فعلاً لأنَّ السيدة بيفر حصلت على العقد. في الواقع تربطني بجون بيفر علاقة حب. أنا أحب جون بيفر، أنا أحب جون بيفر "

" أهذا هو قرار اللجنة؟ "

" نعم، إنها على علاقة حب بجون بيفر "

" إذن سيجري العمل مع أغفال الاسم "

قالت ويني " كلا، لقد أكل وجبتيّ إفطار "

"... بالأغلبيّة الساحقة "

سألَ توني، لأنهم كانوا يرتدون معاطف الصيد، " لماذا تبدّلون جميعاً ملابسكم؟ "

" من أجل اجتماع المرج. كلاب الصيد سوف تجتمع هنا اليوم "

" ولكن لا يمكنكم أنْ تقوموا بالصيد في فصل الصيف "

" التوقيت مُختلف في البرازيل ولن يكون هناك استحمام "

" لقد شاهدتُ بالأمس ثعلباً في بروتون وود. ثعلب أخضر آليّ في داخله جرس يرنّ وهو يجري. لقد أخافهم كثيراً حتى إنهم فرّوا وأصبح الشاطئ خالياً ولم يعُد أحد يستحمّ غير بيفر. يستطيع أنْ يستحم في كل يوم، ذلك أنَّ التوقيت مختلف في البرازيل "

قال أمبروز " أنا على علاقة حب مع جون بيفر "

" في الواقع، لم أكن أعلم أنكَ هنا "

" لقد جئت لأذكّرك بأنكَ كنتَ مريضاً، يا سيدي. ينبغي ألاّ تغادر أرجوحتك بأي حالٍ من الأحوال "

" ولكن كيف سأتمكّن من الوصول إلى المدينة إذا مكثتُ هنا؟ "

" سوف أقدّمها في الحال، يا سيدي، في المكتبة "

" نعم، في المكتبة. لا معنى في استخدام غرفة الطعام الآن بعد أنْ رحلتْ سيادتها لتعيش في البرازيل "

" سأرسل الطلب إلى الاسطبلات، يا سيدي "

" لكني لا أريد المُهر. لقد أمرتُ بن ببيعه "

" سوف تضطر إلى الركوب حتى غرفة التدخين، يا سيدي. لقد أخذ الدكتور ماسنجر القارب "

" حسن، يا أمبروز "

" شكراً لكَ، يا سيدي "

كانت اللجنة قد انتقلت إلى آخر الجادة، كلهم ما عدا الكولونيل إنش الذي سلك الدرب الآخر وكان يخبُّ باتجاه كومبتون لاست. وبقيَ توني والسيدة راتري وحدهما.

قالت، وهي تجمع ورق اللعب، " باو-واو. هذا يعني أنْ يبدأ العمل"

حين رفعَ بصره عن ورق اللعب، شاهد توني ما وراء الأشجار، سور المدينة وفتحات الإطلاق عليه، كانت قريبة جداً منه. ومن بُريج غرفة حراسة البوابة رفرفت راية الشعار في وجه النسيم الاستوائي. كافح ليقفَ باستقامة وأزاحَ عنه الملاءات. كان أقوى وأكثر ثباتاً حين تتلبّسه الحمّى. شقّ طريقه خلال المنطقة المحاطة بأجمات الشوك، تصاعد صدى الموسيقى من الجدران المتلألئة، كان موكبٌ ما أو مهرجان ماراً من أمامهما. تمايل مرتطماً بثلاثة جذوع أشجار وتشابك بالجذور وبحوالق الكرمة البرية المتدلية، لكنّه حثّ خطوته إلى الأمام، غير واعٍ للألم والتعب.

أخيراً وصل إلى العراء. كانت البوابات أمامه والأبواق تُنفَخ على طول الأسوار، مُرحّبةً بوصوله، انتقلتْ الرسالة من معقل إلى معقل وإلى الجهات الأربع، كانت بتلات أزهار اللوز وبراعم التفاح في الجو، فرشت الدرب وكأنها، بعد انتهاء عاصفة صيفية، تغطي البساتين في هيتون. وسطعت القباب المُذهّبة والأبراج المُستدقّة من المرمر تحت أشعة الشمس.

أعلنَ أَمبروز " المدينة جاهزة للتقديم "

الفصل السادس

بالقرب من منزل تود

على الرغم من أنَّ السيد تود كان قد عاش في ولاية أمازوناس[19] قُرابة ست سنوات، لم يعِ وجوده من هنود البي-وي غير بضع عائلات. كان منزله يقعُ وسط حقلٍ صغير من السافانا، إحدى تلك البقاع الصغيرة من الرمال والعشب التي تُحصَد على فترات في تلك النواحي، وتقع على بُعد ثلاثة أميال أو نحوها، وتكتنفها الغابة من كل جوانبها.

الجدول الذي كان يرويها لم يكن مُعلَّماً على أي خريطة، كان يجري خلال المنحدرات، الخطرة دائماً ولا يمكن عبورها في أغلب فصول العام، لكي ينضم إلى المياه العليا من النهر حيث كان الدكتور ماسنجر قد فشلَ في محاولته. لم يكن أحد من سكان المنطقة، ما عدا السيد تود، قد سمعَ بحكومتيّ البرازيل أو غينيا الهولندية، اللتين تدّعيان كلاهما من وقتٍ إلى آخر ملكيتها.

كان منزل السيد تود أكبر من منازل جيرانه، لكنه يُشبهها في أسلوب بنائها - سقف من سعف النخيل، جدران بعلو الصدر من الطمي والأغصان المضفورة، وأرضية من الطمي. وكان يمتلك عدداً من رؤوس

---

١٩ - أمازوناس : ولاية في غرب البرازيل ، وتتضمَّن الحوض الأوسط من نهر الأمازون ومناطق عذراء شاسعة لم تُكتَشَف . عاصمتها ماناوس . - المترجم

الماشية الواهنة التي ترعى السافانا، ومزرعة منيهوت، وبعض أشجار الموز والمانغو، وكلباً، أيضاً، وهذا أمر نادر في الجوار، بندقية أحادية الماسورة، تُعبّأ من مؤخرها. ووسائل الراحة القليلة التي يستخدمها من العالم الخارجي أتته عبر سلسلة طويلة من التجّار، تناقلوها من يدٍ إلى يد، تمّت المُقايضة بها بعددٍ من اللغات عند الطرف النهائي لأحد أطول الخيوط في شبكة التجارة التي تنتشر من مانيوس إلى أقصى عمق ناءٍ في الغابة.

ذات يوم بينما كان السيد تود منهمك في ملء بعض الخراطيش، حملَ إليه أحد هنود البي-وي نبأً يقول إنّ رجلاً أبيض يقتربُ من خلال الغابة وحده، وإنه شديد المرض. أغلقَ الخرطوشة وشحنَ البندقية بها، ووضع تلك التي انتهت في جيبه وانطلقَ في الاتجاه المُشار إليه.

كان الرجل قد خرج من الدغل تواً عندما وصل إليه السيد تود، كان جالساً على الأرض، وفي حالة سيئة جداً كما بدا واضحاً. كان بلا قبعة ولا جزمة، وملابسه ممزقة شر ممزّقٍ ولا تلتصق بجسمه إلا بفضل رطوبته، وكانت قدماه مُثخنتين بالجراح ومتورمتين، وكان جزء مكشوف من بشرته مكسواً بالحشرات وبعضّ الخفافيش، وكانت عيناه متوحشتين من شدّة الحمّى. كان يُكلّم نفسه بشكلٍ هذياني لكنه سكتَ حين اقتربَ تود منه وخاطبه بالإنكليزية.

قال توني " أنتَ أول إنسان أتحدّث معه منذ أيام طويلة. الآخرون لا يتوقّفون. إنهم لا يكفّون عن المرور بسرعة على دراجات من أمامي... أنا مُتعب... كانت بريندا معي لكنّ فأراً آلياً أخافها، فاستقلّتْ القارب ورحلت. قالتْ إنها ستعود في مساء ذلك اليوم لكنها لم تفعل. أعتقد أنها تُقيمُ مع أحد أصدقائها الجُدد في البرازيل... هل رأيتها؟ "

" أنتَ أول شخص غريب أراه منذ وقتٍ طويل جداً "

" كانت تعتمر قبعة عالية حين رحلت. لا يمكن أنْ تُخطئها ". ثم بدأ يتكلّم مع شخص يقفُ بجانب السيد تود، لا وجود له.

" أترى ذلك المنزل هناك؟ أتعتقد أنْ في استطاعتك أنْ تتحامل وتمشي إليه؟ إذا كنت لا تستطيع، يمكنني أنْ أُرسل بعض الهنود ليحملوك "

سار توني بانحراف قاطعاً حقل سافانا إلى كوخ السيد تود.

قال " إنَّ الهندسة المعمارية تتناغم مع الجو المحلي العام. استُخدِمت مواد طبيعية في كل شيء. لا تدع السيدة بيفر تراه وإلا كسته بألواح الكروم "

رفعَ السيد تود توني ليقفَ على قدميه ودعمه بذراعٍ ضخمة، "حاول أنْ تمشي "

" سأمتطي دراجتكَ. ألستَ أنتَ الذي مررتُ به الآن؟... لكنَّ لحيتك تختلف في اللون. لحيته كانت خضراء... خضراء بلون الفئران "

قادَ السيد تود تونب عبر الأكمات العشبية نحو المنزل.

" إنها مسافة قصيرة جداً. وحين نصل إلى هناك سأعطيك شيئاً يجعلك تشعر بتحسُّن "

" هذا لطف جمّ منك... من الجنون أنْ يدع الرجلُ زوجته ترحل في قارب. حدثَ ذلك قبل وقتٍ بعيد. منذ ذلك الحين لم أجد ما آكله "، ثم أردفَ بسرعة " بالمناسبة، هل أنتَ إنكليزي. أنا أيضاً إنكليزي. اسمي لاست "

" حسن، يا سيد لاست، لن تقلق بشأنْ أي شيء بعد الآن. أنتَ مريض وقد قمتَ برحلةٍ شاقّة. سوف أعتني بك "

تلفَّتَ توني حوله. " هل أنتم جميعاً من الإنكليز؟ "
" نعم، كلنا "
" تلك الفتاة السوداء تزوجت من مراكشي... من حُسن حظي أنني قابلتكم جميعاً. أعتقد أنكّم تشكّلون ما يشبه نادي دراجات؟ "
" نعم "
" حسن، إنني منهك ولا أقوى على ركوب الدراجات... لم أحب ذلك قطُّ... على أصدقائك أنْ يحصلوا على دراجات نارية، في الواقع، فهي أسرع وضجيجها أعلى... فلنتوقف هنا "
" كلا، يجب أنْ تمشي حتى المنزل. لم يعُد بعيداً كثيراً "
" حسن... أعتقد أنكَ تجد بعض الصعوبة في الحصول على الوقود هنا "
كان تقدّمهما بطيء جداً، لكنهما في النهاية بلغا المنزل.
" استلقِ هناك على الأرجوحة الشبكية "
" هذا ما قاله ماسنجر. إنه على علاقة حب بجون بيفر "
" سأحضِر شيئاً لك "
" هذه طيَبةٌ ضافية منك. أريد فقط وجبتي الصباحية المعتادة... قهوة، خبز مُحَمَّص، فاكهة. وصحف الصباح. إذا استُدعيَت سيادتها فسأتناوله معها... "
ولجَ السيد تود إلى الغرفة الخلفية من المنزل وسحب علبة صغيرة من التنك من تحت ركام من الجلود. كانت مملوءة بمزيجٍ من أوراق النبات الجافة ولحاء الشجر. أخذ حفنة منه ثم انتقل إلى الخارج إلى حيث النار. وعندما عاد كان ضيفه يجلس مستقيماً كالسهم على الأرجوحة، منفرج الساقين، ويتكلَّم بغضب.

"... سوف تسمع بصورة أفضل وسيكون من الأدب أكثر إذا وقفتَ دون حِراك وأنا أخاطبكَ بدل أنْ تتمشى ضمن دائرة. أنا أقول ما هو في صالحك.. أنا أعلم أنكَ صديق زوجتي ولهذا السبب لن تُصغي إليّ. ولكن انتبه. هي لن تقول أي شيء فظ، لن ترفع صوتها، ولن تتلفَّظ بكلمات قاسية. إنها تأمل في أنْ تصبحا لاحقاً صديقَين حميمين كما كنتما في السابق. لكنها ستتركك. سوف ترحل بهدوء أثناء الليل. سوف تأخذ معها أرجوحتها الشبكيّة وجُعالتها من طحين النشا... اصغِ إليّ. أنا أعلم أنني لستُ حاذقاً ولكن هذا ليس عذراً لننسى كل كياسة. فلنقتل بأرقّ أسلوب. سوف أخبركَ بما تعلّمته في الغابة، حيث التوقيت مختلف. ليس هناك أي مدينة. لقد كستها السيدة بيفر بألواح الكروم وحولّتها إلى شُقق للإيجار. ثلاثة جنيهات في الأسبوع، وكل منها مُزوَّد بحمّام منفصل. مناسبة جداً لممارسة الحب الرخيص. وبولي ستكون موجودة هناك. هي والسيدة بيفر تحت الشرفات المُفرّجة المتهدمة... "

وضعَ السيد تود يداً خلف رأس توني ورفع مزيج الأعشاب المُعدَّ داخل يقطينة. رشفَ توني منه ثم أشاحَ بوجهه بعيداً.

قال " دواء مُرّ "، وبدأ يبكي.

وقفَ السيد تود إلى جانبه حاملاً اليقطينة. وسرعان ما شرب توني المزيد، وهو يعبس ويرتعش قليلاً لمرارته. بقيَ السيد تود واقفاً إلى جواره إلى أنْ أتى على الجرعة كلها، ثم رمى بالثفل على الأرض الموحلة. استند توني بظهره على الأرجوحة وهو ينشج بهدوء. وفي الحال استغرقَ في نومٍ عميق.

* * *

كان شفاء توني بطيئاً. في أول الأمر، كانت أيام صفاء الذهن والهذيان تتناوب، ثم انخفضَتْ حرارته وأصبح واعياً حتى وهو في أشد حالات مرضه. وأضحت أيام الحمّى أقلّ، وأخيراً أصبحت لا تظهر إلا وفق النظام العادي للمناطق الاستوائية، بين فترات طويلة من العافية النسبية. وكان السيد تود يمدّه بانتظام بجرعات الدواء العشبي.

قال توني " إنه شديد المرارة، لكنه فعّال حقاً "

قال السيد تود " في الغابة يوجد دواءٌ لكل داء، بعضها يُشفيك وبعضها يُمرضكَ. أمي كانت هندية وقد علّمتني أسرار العديد منها. وتعلمت عن بعضها الآخر بين حينٍ وآخر من زوجاتي. هناك نباتات لشفائك وأخرى تُسبب الحمّى، أو تقتل أو تُثير الجنون، ومنها طارد للأفاعي، ويُشمِل السمَك حتى تتمكّن من إخراجه من الماء بيديك كما تقطف الثمار عن الشجرة. بل إنَّ هناك أدوية لا أعرف عنها شيئاً. ويقولون إنَّ من الممكن إعادة الموتى إلى الحياة بعد أنْ يكونوا قد بدؤوا يتعفنون، لكنني لم أرَ ذلك يحدث بأم عيني "

" لكنكَ إنكليزي حتماً، أليس كذلك؟

" والدي كان - على الأقلّ باربادوسي[٢٠]. جاء إلى غويانا كمُبشِّر. تزوج من امرأةٍ بيضاء لكنه تركها في غوايانا ليبحث عن الذهب. ثم تزوج من أمي. إنَّ نساء البيي-وي قبيحات لكنهنَّ شديدات الإخلاص. أنا لديّ منهن الكثير. غالبية الرجال والنساء الذين يعيشون في هذه السافانا هم أولادي. لهذا تراهم يطيعونني - لهذا السبب ولأنَّ في حوزتي بندقية. لقد عاش والدي حياةً مديدة. توفي قبل أقلّ من عشرين عاماً. كان رجلاً مثقفاً. هل تُحسِن القراءة؟ "

---

٢٠ - باربادوسي : من جزيرة باربادوس .

" نعم، طبعاً "

" ليس الجميع محظوظين هكذا. أنا لا أُحسنها "

ضحكَ توني كمن يعتذر. " ولكن أعتقد أنه ليست لديك فرصة كبيرة هنا لتفعل ذلك "

" أوه نعم، معك حق. أنا لديّ عدد كبير من الكتب. سأريها لكَ عندما تتحسن صحتك. حتى قبل خمس سنوات كان هناك رجل إنكليزي - على الأقل كان أسود، لكنه كان ذا ثقافة جيدة في جورجتاون. توفي. ظلَّ يقرأ لي كل يوم إلى أنْ مات. أنتَ ستقرأ لي عندما تتحسّن صحتك"

" سوف يُسعدني ذلك "

كرَّر السيد تود، وهو يهزّ رأسه فوق اليقطينة، " نعم، ستقرأ لي "

خلال الأيام الأولى من تماثله للشفاء لم يكد توني يتبادل الحديث مع مضيفه، كان يستلقي في أرجوحته مُحدِّقاً عالياً إلى سقف القش ويفكِّر في بريندا. كانت الأيام، التي يبلغ طول كلٍ منها اثنتي عشرة ساعة بالضبط، تمرُّ متشابهة. كان السيد تود يلجأ إلى النوم عند الغروب، تاركاً المصباح الصغير مُضاءً - وهو عبارة عن فتيل يدويّ الصنع يتدلّى من قِدْر يحتوي شحم الخنازير - من أجل إبعاد الخفافيش مصّاصة الدماء.

في أول مرة غادرَ توني المنزل رافقه السيد تود في نزهة قصيرة حول المزرعة.

قال، وهو يقوده إلى رابية تقع بين أشجار المانغو، " سأُريكَ قبر الرجل الأسود. كان شديد اللطف. تعوَّد بعد ظهر كل يوم وحتى مماته، وعلى مدى ساعتين، أنْ يقرأ لي. أعتقد أني سأنصُبُ صليباً - في ذِكرى موته ووصولك - فكرة جميلة. هل تؤمن بالله؟ "

" أعتقد ذلك. في الواقع أنا لم أفكّر قطُّ في الأمر كثيراً "

" أما أنا ففكّرتُ فيه كثيراً ولا أزالُ جاهلاً... ديكنز عرِفَ "

" أعتقد ذلك "

" أوه نعم، إنَّ هذا واضحٌ في كتبه كلها. سوفَ ترى "

بعد ظهيرة ذلك اليوم بدأ السيد تود في بناء شاهد لقبر الزنجي. عملَ بمسحجٍ كبير على قطعة خشب قاسية جداً حتى إنه كان يصرُّ ويطنُّ كالمعدن.

أخيراً، بعد أنْ أمضى توني ست ليالٍ أو سبع ليالٍ متتالية دون حمّى، قال السيد تود " الآن أعتقد أنكَ قد تعافيت بقدر كافٍ لترى الكتب "

في أحد أركان الكوخ كان هناك ما يشبه العلّية تشكّلت من منِصّة بدائية أُقيمَتْ على إفريز السقف. أسندَ السيد تود سلّماً عليها وارتقى. تبعه توني، ولا يزال غير متوازن بعد المرض. جلسَ السيد تود على المنصة ووقفَ توني على أعلى السلّم ونظر منها. كانت هناك كومة من اللفائف، مربوطة بخرقة، وبسعف نخيل وبجلد غير مدبوغ.

" كان من الصعب إبعاد الديدان والنمل. اثنان منها قد دُمّرا تماماً. ولكن هناك زيت صنعه الهنود وهو مفيد "

فكَّ رباط أقرب حزمة وأنزل كتاباً مُغلّفاً بجلد العجل. كان طبعةً أميركية مُبكّرة من رواية " منزل كئيب ".

" لا يهم بأي واحدٍ نبدأ "

" هل أنتَ مولع بتشارلز ديكنز؟ "

" نعم، طبعاً. بل أكثر من ولع، أكثر بكثير. في الواقع، إنها

الكتب الوحيدة التي سمعتها. كان والدي يقرؤها ومن ثم الرجل الأسود من بعده... ومن ثم أنت. لقد سمعتها كلها مرات عديدة حتى الآن لكنني لم أملّها، هناك دائماً المزيد ليتعلّمه المرء ويُلاحظه، والعديد من الشخصيات، وتبدلات كثيرة جداً في المشاهد، والكثير جداً من الكلمات... إنَّ لديّ كتب ديكنز كلها ما عدا تلك التي التهمها النمل. وقراءتها تستغرقُ وقتاً طويلاً - أكثر من عامَين "

قال توني بخفّة " حسن، سوف تبقى طويلاً بعد انتهاء زيارتي "

" أوه، آمل ألا يحدث هذا. من المُبهج أنْ نباشرها من جديد. إنني في كل مرة أعتقد أنني أعثر على المزيد مما أستمتع به ويُثير إعجابي "

أنزلا المجلد الأول من " منزل كئيب " بعد ظهيرة ذلك اليوم وقام توني بالقراءة للمرة الأولى.

لطالما استمتعَ بالقراءة بصوتٍ عالٍ وخلال العام الأول من زواجه تبادل كتباً عدة بهذه الطريقة مع بريندا، إلى أنْ كان يوم، وفي لحظة مُصارحة، قالت إنَّ ذلك كان بمثابة عذابٍ لها. كانت تقرأ لجون أندرو، في أواخر فترة بعد الظهيرة، في فصل الشتاء، بينما الطفل جالس أمام حاجز غرفة الحضانة يتناول وجبة عشائه. لكنَّ السيد تود كان يُشكِّلُ جمهوراً فريداً من نوعه.

جلس الرجل العجوز منفرج الساقين على أرجوحته قبالة توني، مُثبِّتاً عينيه عليه، وهو يُتابع الكلمات بشفتيه، دون أنْ يُصدر أي صوت. وغالباً حين تظهر شخصية جديدة كان يقول، " كَرِّر اسمه، لقد نسيته "، أو " نعم، نعم، إنني أتذكّرها جيداً. سوف تموت، المسكينة ". وكان يُقاطعه باستمرار ليطرح أسئلة بعيدة عمّا يتصوّره توني عن ظروف القصة - فأشياء مثل إجراءات أسرة اللورد تشانسلر أو المعتقدات

الاجتماعية للفترة الزمنية، على الرغم من كونها غامضة، لم تكن تُثير اهتمامه - بل دائماً عن الشخصيات. " والآن، لماذا هي تقول هذا ؟ هل تعني حقاً ما تقول؟ هل شعرت بالدوار بسبب حرارة النار أم بسبب شيءٍ مذكور في تلك الورقة؟ ". وكان يضحك بصوتٍ عالٍ على النكات كلها وعلى بعض الفِقرات التي لا تبدو فكهة لتوني، ويطلب منه أنْ يُعيد قراءتها مرة أو مرتين أو ثلاث مرات، ولاحقاً عند وصف آلام المنبوذين في الفصل المعنون " المعتزل " انهمرتْ الدموع على وجنتيه إلى لحيته. وكانت تعليقاته على القصة في المعتاد بسيطة. " أعتقد أنَّ ديدلوك رجل شديد الكبرياء "، أو " إنَّ السيدة جيليباي لا تتلقّى عناية كافية من أولادها ".

استمتع توني بالقراءة قدر استمتاعه.

في نهاية اليوم الأول قال الرجل العجوز " إنَّ قراءتك جميلة، ولكَ نبرة أفضل بكثير مما كان لدى الرجل الأسود. وشرحك أفضل. وكأنَّ أبي عاد إلى هنا من جديد ". وكان دائماً في نهاية الجلسة يشكر ضيفه بكياسة جمّة. " لقد استمتعتُ بذلك استمتاعاً شديداً. كان فصلاً يُثيرُ شجناً عظيماً. ولكن، إذا أسعفتني الذاكرة، سينتهي كل شيء نهاية سعيدة "

ولكن مع وصولهما إلى المجلد الثاني، بدأت حِدّة ابتهاج الرجل العجوز تضعف، وكان توني قد استجمع قواه بقدر كافٍ ليشعر بالقلق. وتطرّقَ أكثر من مرة إلى موضوع رحيله، بسؤاله عن القوارب والأمطار واحتمالات العثور على مُرشدين. لكنَّ السيد تود بدا متبلّداً ولم يولِ تلك التلميحات أي انتباه.

وذات يوم، وهو يُمرِّر إبهام يده على صفحات " منزل كئيب " التي بقيَت ليقرأها، قال توني " لا يزال هناك الكثير أمامنا. وأتمنى أنْ أتمكّن من الانتهاء منها قبل أنْ أرحل "

قال السيد تود " أوه نعم، لا تزعج نفسك حيال ذلك. سوف يتوافر لك الوقت لإنهائه، يا صديقي "

للمرة الأولى لاحظ توني شيئاً يتّسم بقدرٍ من التهديد في سلوك مضيفه. وفي تلك الليلة على العشاء، وكان وجبة بسيطة من طحين النشا ولحم الخنزير المُجفف، التي تناولاها قُبيل الغروب، عاد توني إلى فتح الموضوع.

" في الواقع، يا سيد تود، لقد حان الوقت لكي أفكِّر في العودة إلى الحضارة. لقد أسرفتُ حتى الآن في فرض نفسي على حُسن ضيافتك"

انكبَّ السيد تود على الطبق، وهو يمضغ ملء فم من طحين النشا، لكنه لم يُدلِ بأي جواب.

" متى في اعتقادك سأتمكن من الحصول على قارب؟... قلت، متى في اعتقادك سأتمكن من الحصول على قارب؟ إنَّ ما بذلته من لطف في معاملتي يفوق قدرتي على التعبير، ولكن... "

" يا صديقي، إنَّ لطفي الذي يمكن أنْ أكون قد أظهرته قد جازيتَه بقراءتك لمؤلفات ديكنز. يدعنا لا نتطرّق إلى الموضوع من جديد "

" في الواقع، أنا سعيد جداً لأنك استمتعتَ بها. وأنا استمتعتُ، أيضاً. ولكن ينبغي حقاً أنْ أفكِّر في العودة... "

قال السيد تود " نعم، الرجل الأسود كان هكذا. كان يُفكِّر في ذلك طوال الوقت. لكنه مات هنا... "

فتح توني الموضوع في ذلك اليوم مرتين، ولكن مضيفه كان يتملّص. وأخيراً، قال، " سامحني، يا سيد تود، ولكن عليَ حقاً أنْ ألحّ على الموضوع. متى سأحصل على قارب؟ "

" ليس هناك قارب "

" حسن، يمكن للهنود أنْ يبنوا واحداً "

" يجب أنْ تنتظر هطل الأمطار. ليس هناك ما يكفي من المياه في النهر الآن "

" ومتى سيحدث هذا ؟ "

" بعد شهر.. شهرين... "

كانا قد انهيا قراءة " منزل كئيب " واقتربا من نهاية رواية " دومبي وولده "حين هطل المطر.

" لقد حان الوقت الآن للاستعداد للرحيل "

" أوه، هذا مستحيل. الهنود لن يصنعوا قارباً خلال فصل الأمطار - إنه أحد الأشياء التي يتشاءمون منها "

" لعلّكَ أخبرتهم "

" هل أخبرتهم؟ لقد نسيت "

في صباح اليوم التالي خرج توني وحده بينما كان مُضيفه مشغولاً، وأخذ يتمشّى، مُتظاهراً قدر استطاعته بأنه يسير بلا هدى، وعبر السافانا إلى مجموعة من منازل الهنود. كان هناك أربعة أو خمسة من البي-وي جالسين على عتبة أحد الأبواب. لم يرفعوا أبصارهم إليه لدى اقترابه منهم. خاطبهم مُستخدماً الكلمات القليلة التي يعرفها من لغة الماكوشي اكتسبها خلال الرحلة لكنهم لم يُبدوا إنْ كانوا قد فهموا أم لم يفهموا. ثم رسم رسماً ارتجالياً لقارب خفيف على الرمال، وأخذ يقوم ببعض الإيماءات المبهمة حول النجارة، وهو يُشير إليهم وإليه، ثم قام بحركات تُفيد بإعطائهم شيئاً، ورسم على عجل خطوطاً عامة لمسدس وقبعة وبعض مواد المقايضة الواضحة. ضحكت إحدى النسوة ضحكاً مكبوتاً لكنَّ أحداً لم يبدُ أنه فهم، فابتعد منزعجاً.

أثناء تناول وجبة منتصف النهار قال السيد تود " سيد لاست، أخبرني الهنود بأنكَ كنتَ تحاولُ أنْ تتحدث معهم. من الأسهل أنْ تقول كل شيء من خلالي. أنت تدرك، أليس كذلك، أنهم لن يفعلوا أي شيء دون الرجوع إليّ. إنهم يعتبرون أنفسهم، وهذا صحيح في حالات كثيرة، أولادي "

" في الحقيقة، كنتُ أسألهم عن القارب "

" هذا ما فهموه كما أخبروني... والآن إذا كنتَ قد أنهيتَ وجبتك ربما نباشر فصلاً آخر. إنني مندمج بشكلٍ كامل في الكتاب "

* * *

انتهيا من قراءة " دومبي وولده ". ومرَّ قُرابة العام على مغادرة توني لندن، وفجأةً ازدادت حِدَّة هاجسه الكئيب بالمنفى الدائم عندما عثر، بين صفحات رواية " مارتن تشزلويتْ " على وثيقة مكتوبة بالقلم الرصاص بأسلوبٍ مُشوَّش.

عام ١٩١٩.

" أُقسمُ أنا تود البرازيلي أمام برناباس واشنطن من جورجتاون على أنه إذا أنهى قراءة هذا الكتاب المعنون " مارتن تشزلوِيتْ " سوف أدعه يعود إلى وطنه حالما ينتهي منه ".

تبِعَ ذلك رسم علامة x بقلم رصاص مضغوط بشدّة وبعدها كُتِبَ : السيد تود دفعَ بارناباس إلى رسمها.

قال توني " مستر تود، يجب أنْ أتكلّم بصراحة. أنتَ أنقذتَ حياتي، وعندما أعود إلى الحضارة سوف أكافئك قدر استطاعتي. سأعطيك أي شيء في حدود المعقول. ولكنكَ في الوقت الحاضر تحتجزني هنا رغماً عن إرادتي. وأطالب بإطلاق سراحي "

" ولكن، يا صديقي، ما الذي يمنعك؟ لا شيء يمنعك. اذهب وقتما تشاء "

"أنتَ تعلم جيداً أنه ليس في استطاعتي أنْ أرحل بدون مساعدتك"

" في هذه الحالة يجب أنْ تُسلّي رجلاً عجوزاً. اقرأ لي فصلاً آخر "

" يا سيد تود، أُقسمُ بأي شيءٍ تشاء على أني حين أرجع إلى مانايوس سوف أجد مَنْ يحل محلي. سوف أستأجر شخصاً لكي يقرأ لك طوال النهار "

" ولكن لا حاجة بي إلى شخص آخر. أنتَ تُحسِن القراءة "

" لقد توقفتُ عن القراءة "

قال السيد تود بأدب " آمل ألا تفعل "

في مساء ذلك اليوم وعلى مائدة العشاء أُحضِرَ فقط طبق واحد من اللحم المُجفف وطحين النشا وأكل السيد تود وحده. استلقى توني لا ينبس ببنت شفة، وهو يُحدّق إلى سقف القش.

عند ظهيرة اليوم التالي وُضِعَ طبقٌ واحد أمام السيد تود ولكن وضَعَ مسدسه، بانتصاب، على رُكبته، أثناء تناوله الطعام. واستأنفَ توني قراءة " مارتن تشزلوِيت " من حيث توقف.

ومرَّت الأسابيع دون بارقة أمل. قرأا " نيقولاس نكلبي " و"الصغيرة دوريت " و " أوليفر تويست ". ثم وصل شخصٌ غريب إلى السافانا، هجين مُنقِّب عن الذهب، أحد أولئك المتوحدين الذين يجوبون الغابات طوال حياتهم، يقتفون آثار الجداول الصغيرة، وينخلون الحصى ويملؤون، بوصة بعد بوصة، حقائب صغيرة من الجلد بغبار الذهب وغالباً ما يموتون من التعرُّض لتقلّبات الجو والجوع وفي حوزتهم ما قيمته خمسمئة دولار من الذهب مُعلّق من أعناقهم. اغتاظ السيد تود

لوصوله، فأعطاه طحين النشا والـ tasso[٢١] (لحم الخنزيرالمُدخَّن) وأعاده إلى رحلته في غضون ساعة من وصوله، ولكن خلال تلك الساعة توافر الوقت لتوني ليخربش اسمه على مُزقة من الورق وأقحمها في يد الرجل.

منذ ذلك الوقت أصبح هناك أمل. وتوالت الأيام متتالية رتيبة، قهوة عند شروق الشمس، وفترة صباح من الكسل بينما السيد تود ينهمك في أعمال المزرعة، وطحين نشا وتاسو عند الظهيرة، وديكنز بعد الظهيرة، وطحين نشا وتاسو وأحياناً بعض الفاكهة على العشاء، وصمت من شروق الشمس وحتى الغروب وفتيل يحترق بشحم الخنازير وسقف القش فوق الرأس يكاد لا يُستبان، لكنَّ توني عاشَ مع إحساسٍ هادئ بالثقة بالنفس والتوقُّع.

سوف يصلُ المُنقِّب في وقتٍ ما، هذا العام أو في العام الذي يليه، إلى قرية برازيلية حاملاً نبأ اكتشافه. ولن يتم التغاضي عن الكوارث الناتجة عن حملة ماسنجر الاستكشافية. وتخيَّلَ توني العناوين التي لابد ظهرت في الصحافة الشعبية، وربما الآن هناك فرق بحث تعمل في كل أرجاء البلاد التي عبرها، وسرعان ما ستُسمع الأصوات الإنكليزية في كل أرجاء السافانا وسيقتحم عدد من المغامرين الودودين الغابة. حتى وهو يقرأ، وبينما شفتاه تتبع بحركة آلية الصفحات المطبوعة، كان عقله يجول بعيداً عن مضيفه المتلهّف، المجنون الجالس قبالته، وبدأ يسرد على نفسه أحداث عودته إلى أرض الوطن - التصادم التدريجي من جديد مع الحضارة (حلقَ لحيته واشترى ملابس جديدة من مانايوس، وأرسل برقية يطلب فيها مالاً، وتلقّى برقيات تهنئة، واستمتع باسترخاء برحلة نهرية إلى بيليم، السفينة الكبيرة المتوجهة إلى أوروبا، وتلذَّذَ بتذوّقَ خمرٍ

٢١ - لتاسو : لحم خنزير مُدخَّن .

فرنسي جيد وبأكل لحم طازج وخضروات الربيع، وكان حيّاً في لقاء بريندا ومتردداً في مخاطبتها... " حبيبي، لقد غبتَ أطول بكثير مما قلتَ أنك ستفعل. لقد ظننتُ بلا شك أنكَ قد ضعت... ")

ثم قاطعه السيد تود " هل لي أنْ أزعجكَ وأطلب منكَ أنْ تعيد قراءة تلك الفقرة من جديد؟ إنني أستمتعُ بها استمتاعاً استثنائياً "

ومرَّتْ الأسابيع، ولم يظهر أي أثر لإنقاذ لكنَّ توني تحمَّلَ الأيام على أمل أنْ يحدث شيء في الغد، بل إنه شعر بقليل من المودّة تجاه سجّانه ولذلك رغبَ تماماً في الانضمام إليه عندما اقترحَ، ذات أمسية بعد اجتماعٍ مُطوَّل مع هندي جار، إقامة احتفال.

شرحَ السبب " إنه أحد أيام الأعياد المحليّة، وكانوا يصنعون البيفاري. قد لا يعجبك ولكن يجب أنْ تجرب قليلاً منه. سوف نذهب إلى منزل هذا الرجل هذه الليلة "

بعد تناول طعام العشاء انضموا إلى حفل من الهنود المجتمعين حول النار في أحد الأكواخ على الجانب المقابل من السافانا. كانوا يغنون غناءً رتيباً، فاتراً، ويُمررون يقطينة كبيرة تحتوي سائلاً من فمٍ إلى فم. ثم جُلِبَتْ طاستان منفصلتان إلى توني والسيد تود، وأعطوهما أرجوحتين ليجلسا عليهما.

" يجب أنْ تشربه كله دون أنْ تُنزل الطاس. هذا هو التقليد "

ابتلعَ توني السائل القاتم اللون، مُحاولاً ألاّ يتذوّقه. لكنه لم يكن سيئاً، وصعب الابتلاع ومَوحل القِوام على حاسة الذوق كغالبية المشروبات التي قُدِّمتْ له في البرازيل، ولكن له نكهة العسل والخبز الأسمر. استند بظهره على الأرجوحة شاعراً برضى استثنائي. وربما في تلك اللحظة بالذات كانَ فريق البحث مُخيّماً على بُعد رحلة تستغرق

بضع ساعات. وحتى ذلك الحين شعر بالدفء والنعاس. وأخذ إيقاع الغناء يرتفع وينخفض على فترات، كما في الطقوس الدينية. وقُدِّمت له يقطينة أخرى من البيفوري فأعادها فارغة. استلقى على كامل طوله يُراقبُ عبث الظِلال على سقف القش بينما بدأ البي-وي يؤدون رقصتهم. ثم أغمضَ عينيه وفكَّر في إنكلترا وفي هيتون واستغرقَ في النوم.

* * *

استيقظَ، كان لا يزال في كوخ الرجل الهندي، مع انطباعٍ بأنه نام بعد ساعة استيقاظه المعتادة. وأدرك من موقع الشمس أنَّ الوقت هو أواخر فترة بعد الظهيرة. لم يكن في المكان غيره. بحثَ عن ساعة يده ففوجئ بأنها ليست على رسغه. كان قد تركها في المنزل، كما افترض، قبل أنْ يأتي إلى الحفل.

قال في نفسه " لابد أني ثملت ليلة أمس. كم كان شراباً غادراً ". كان يُعاني من الصداع وخشيَ عودة الحمّى. وعندما وضعَ قدمه على الأرض وجد أنه يقف بصعوبة، وخطوته متقلقلة وذهنه مُشوَّش كما كان خلال الأسابيع الأولى من تماثله للشفاء. وفي طريقه عبر حقل السافانا اضطرَّ إلى التوقُّف أكثر من مرّة، مُغَمضاً عينيه ومتنفّساً بعمق. وعندما وصل إلى المنزل وجد السيد تد جالساً هناك.

" أوه، يا صديقي، لقد تأخّرتَ عن القراءة هذا اليوم. لم يعد هناك أكثر من نصف ساعة من الضوء. كيف تشعر؟ "

" عفن. يبدو أنَّ ذلك الشراب لا يُلائمني "

" سأَعطيك شيئاً يجعلك تشعر بتحسُّن. إنَّ في الغابة دواء لكل داء، لإيقاظك ولدفعك إلى النوم "

" هل رأيت ساعة يدي في أي مكان؟ "

" أأضعتها ؟ "

" نعم. ظننتُ أني أضعتها. في الواقع، لم أنم طويلاً هكذا قبل الآن"

" منذ أنْ كنتَ طفلاً. أتدري كم نمت؟ يومين "

" بلا مُزاح. مستحيل "

" نعم، حقاً. إنها فترة طويلة. هذا المؤسف لأنكَ فوَّتَ على نفسك مقابلة ضيوفنا "

" ضيوف؟ "

" نعم. لقد أمضيتُ وقتاً مرحاً جداً وأنت نائم. كانوا ثلاثة رجال من الخارج. إنكليز. من المؤسف أنكَ فوَّتهم. وهم أيضاً أسفوا لأنهم تمنّوا أنْ يروك. ولكن ماذا كان في وسعي أنْ أفعلْ؟ كنتَ غارقاً في النوم. لقد قطعوا كل تلك المسافة ليروك، لذا - رأيتُ أنكَ لن تُمانع - بما أنكَ لم تتمكن من تحيّتهم بنفسك، أعطيتهم تذكاراً صغيراً، ساعة يدك. أرادوا شيئاً يأخذونه معهم إلى إنكلترا حيث ستُقدَّم جائزة لِمَنْ يجلب خبراً عنك. وقد فرحوا بها كثيراً والتقطوا صوراً فوتوغرافية للصليب الصغير الذي أقمته في ذكرى قدومك. وفرحوا بهذا، أيضاً. كانوا يفرحون بسهولة شديدة. ولكن لا أعتقد أنهم سيزوروننا مرة أخرى، لأنَّ حياتنا هنا منعزلة كثيراً... لا مسرات غير القراءة... لا أعتقد أننا سنستقبل زواراً بعد الآن... حسن، حسن، سأحضر لكَ دواءً يجعلك تشعر بتحسُّن. لديك صداع، أليس كذلك؟... لن نقرأ شيئاً من ديكنز اليوم... أما غداً، وبعد غد، والذي بعده. سوف نُعيد قراءة " الصغيرة دوريت ". هناك مقاطع في ذلك الكتاب لا يمكن أنْ أسمعها دون أنْ أرغب في البكاء "

الفصل السابع

قوطي إنكليزي - ٣

هبَّ نسيمٌ عليل في البستان المُندّى، وسطعتْ شمسٌ برّاقة، باردة على المروج والشجيرات، وكانت أشجار الدرداء كلها مُزهِرة في الجادّة، كل شيء حلَّ باكراً في ذلك العام، ذلك أنه كان شتاءً معتدلاً.

عالياً فوق الرؤوس قرعَت الساعة على رأس الساعة أربع عشرة مرة بين جيرانها من رؤوس وحوش الغرغويل والمتقوّسات[٢٢]. كانت الساعة الثامنة والنصف. كانت الساعة مؤخراً غير منتظمة. وهي أحد الأشياء التي كان ريتشارد لاست يحرص على العناية بها، بعد تقديم واجب العزاء في حوادث الوفاة وتبدأ الثعالب الفضيّة بتحقيق ربح.

انطلقتْ مولي لاست على الممر على متن دراجتها النارية ذات الانفجارين، كان بنطالها القصير وشعرها ملوّثين بهريس النخالة، لأنها كانت تُطعِمُ أرانب أنقرة[٢٣].

على الحصباء أمام المنزل انتصبَ النُصُب التذكاري الجديد، المُغطّى بالعلم. أسندتْ مولي الدراجة النارية على جدار الجسر المتحرِّك وهرعت لتتناول طعام الإفطار.

---

٢٢ - المتقوّسة : حلية ناتئة تشبه ورقات نبات متقوّسة .

٢٣ - أرنب أنقرة : أرنب ذو وبر أبيض طويل وناعم .

أصبح إيقاع الحياة في هيتون أسرع ولكن أشد بساطة منذ أنْ تولّى ريتشارد لاست زمام الأمور. أمبروز بقيَ هناك، ولكن لم يعُد هناك أي خدم، أصبحَ هو وصبي وأربع من الخادمات يقومون بالعمل في المنزل. كان ريتشارد لاست يُسمّيهم " طاقمه الهيكلي ". وعندما تتحسَّن الأمور كان سيوسِّع طاقم الخدمة في المنزل، وحتى ذلك الحين أُضيفَتْ قاعة الطعام والمكتبة إلى الغرف الرئيسية التي بقيَتْ موصدة الأبواب والنوافذ، وسكنت العائلة في الغرفة الصباحية وغرفة التدخين وما كان في السابق غرفة مكتب توني. وأغلب أقسام المطبخ أيضاً لم تكن تُستخدَم، وفي إحدى حجرات المؤونة أجريت تحديثات وقدراً من الاقتصاد.

كانت العائلة كلها تظهر في الطابق السُفلي بحلول الساعة الثامنة والنصف، ما عدا أغنس، التي كانت تستغرقُ مدة أطول في ارتداء ملابسها وتتأخَّر عادةً بضع دقائق، كان تيدي ومولي قد خرجا للتمشّي مدة ساعة، هي بين الأرانب، وهو إلى الثعالب الفضيّة. تيدي في الثانية والعشرين ويُقيم في المنزل. وبيتر لا يزال في أوكسفورد.

كانوا يتناولون وجبة الفطور معاً في الغرفة الصباحية، فتجلس السيدة لاست على أحد طَرَفَيّ المائدة، وزوجها على الطرف المقابل، وكانت هناك حركة تنقُّل متواصلة من يدٍ إلى يد جيئة وذهاباً بينهم لأكوابٍ، وأطباق، وبرطمانات مربّى ومراسلات.

قالت السيدة لاست "مولي، هناك طعام أرانب على رأسكِ من جديد"

" أوه، حسن، على أي حال سوف أضطر إلى "التهندُم" قبل الـ jamboree [٢٤] "(احتفال)

---

٢٤ – كلمة عامية وتعني مهرجان أو احتفال صاخب .

قال السيد لاست " Jamboree؟ أليس هناك شيء مُقدَّس بالنسبة إليكم يا أولاد؟ "

قال تيدي " إصابة أخرى في مزرعة الثعالب. تلك الثعلبة التي اشتريناها من الناس في أوكيهامبتن قُطِعَ ذيلها أثناء الليلة الفائتة. يبدو أنها أدخلَته من خلال الأسلاك إلى القفص المجاور. تلك الثعالب مخلوقات مُخادعة "

أغنس نزلت بعد ذلك، كانت طفلة أنيقة، واعية في الثانية عشرة، ذات عينين واسعتين جادَّتين تختفيان خلف نظارتها الواقية. قبَّلَتْ والدها ووالدتها وقالت " آسفة لتأخُّري "

قال السيد لاست مُسامحاً " هذا إذا كنت تأخَّرت... "

سألَ تيدي " كم سيدوم العَرض؟ يجب أَنْ أهرع إلى بيتون وأحصل على مزيدٍ من الأرانب من أجل الثعالب. يقول شيفرز إنَّ لديه حوالي الخمسين منها في انتظاري. إننا لا نستطيع أنْ نصطاد ما يكفي منها هنا. إنها مخلوقات صغيرة نهمة "

" سينتهي كل شيء بحلول الساعة الحادية عشرة والنصف. السيد تندريل لن يُلقي موعظة. وهذا أمر حسن حقاً. إنه يعتقد أنَّ قريبنا توني مات في أفغانستان "

" لدي هنا رسالة من قريبتنا بريندا. إنها تعبِّر عن أسفها الشديد لأنها لا تستطيع أنْ تأتي إلى هنا لحضور حفل الذكرى "

" أوه "

ساد صمتٌ شامل.

"تقول إنَّ جوك تناول ثلاث طبقات من المخفوقة بعد ظهر هذا اليوم"

" أوه "

قالت مولي " كان يمكن أنْ تأتي من دونه "

" إنها ترسل حبّها إلينا جميعاً وإلى هيتون "

سادت فترة صمت أخرى.

قالت مولي " حسن، أعتقد أنَّ هذا كلام جميل. إنها لا تستطيع أنْ تُبدي الكثير من حزن الأرملة. ولم يطُل بها الوقت حتى تزوجت من جديد "

" مولي! "

" أنت تعلمين أنَّ هذا ما تفكرين فيه أيضاً "

" لن أَسمح لكِ أنْ تتكلّمي هكذا عن القريبة بريندا، مهما كان ما نفكِّر فيه. إنَّ لها الحق الكامل في الزواج من جديد وآمل أنْ تعيش هي والسيد غرانت-منزيس حياة ملؤها السعادة "

قالت أغنس " لطالما أحسنَتْ معاملتنا عندما كانت تعيش هنا "

قال تيدي " حسن، آمل ذلك. فهذا، قبل كل شيء، بيتنا نحن "

* * *

كان النهار لا يزال رائقاً عند الساعة الحادية عشرة، على الرغم من أنَّ الريح قد اشتدَّت، وجعلت الأوراق التي طُبِعَ عليها ترتيب فقرات القدّاس ترفرفُ وهدّدت مرةً بكشف النُصُب التذكاري قبل الأوان. حضرَ عدد من الأقارب، كالليدي سينت كلود، والعمة فرنسيس والفرع المعوز من آل لاست الذي لم يستفِد من اختفاء توني. وأهل البيت وخدم العزبة كلهم كانوا هناك، وعدد من المستأجرين وغالبية سكان القرية، وكان هناك أيضاً عدد من الجيران، من بينهم الكولونيل إنش - وكان ريتشارد

لاست وتيدي يصطادان بانتظام في ذلك الفصل مع آل بيغستانتن. وقام السيد تندريل بأداء القداس القصير بأنغام رنّانة كانت مسموعة بوضوح على الرغم من الريح العاصفة. وعندما شدَّ الحبل سقط العلم كاشفاً عن النُصُب التذكاري دون وقوع أي حادث مؤسف.

كان عبارة عن كتلة بسيطة ضخمة من الحجر المحلي، كُتِبَ عليها :

أنتوني لاست ابن هيتون

مُكتشِف

وُلِدَ في هيتون عام ١٩٠٢

توفيَ في البرازيل عام ١٩٣٤

بعد أنْ غادرَ الزوّار المحليون وولجَ الأقرباء المنزل لكي تُعرَض عليهم الترتيبات الجديدة التي توفر الجهد، وبقيَ ريتشارد لاست والليدي سينت كلود واقفين فترةً وجيزة على الأرض المُحصّاة.

قال " أنا سعيد لأننا قمنا بهذا العمل. في الواقع، ما كنتُ لأفكِّر فيه لولا السيدة بيفر. لقد كتبت لي حالما نُشِرَ خبر وفاة توني. في ذلك الوقت لم أكنْ أعرفها. طبعاً نحن لا نعرف إلا عدداً قليلاً من أصدقاء توني "

" أكانت صاحبة الاقتراح؟ "

" نعم، قالت إنَّها تعرف بوصفها أحد أصدقاء توني المُقرّبين أنه كان سيرغب في إقامة نصبٍ تذكاري له في هيتون. كانت شديدة الإخلاص - بل إنها عَرَضَتْ أَنْ تتعاون مع المتعهدين لإنجازه. كانت خططها أكثر طموحاً. فقد اقترحَتْ إعادة زخرفة الكنيسة المحلية وتخصيص وقفٍ لها.

ولكن أعتقد أنَّ هذا ما كان سيفضّله. الحجر جُلِبَ من أحد المقالع التابعة لنا وقَطعَه عمال العزبة "

قالت الليدي سينت كلود " نعم، أعتقد أنه كان سيُفضِّل ذلك "

* * *

كان تيدي قد اختار غالاهارد لتكون غرفة نومه. وانفصل عن العائلة وأسرعَ لكي يُبدّل ملابسه القاتمة، وبعد عشر دقائق كان في سيارته يقودها إلى مزرعة تشيفرز. وقبل الغداء كان قد رجعَ مع الأرانب. وسُلِخَت ورُبِطَت من أطرافها ضمن مجموعات من أربعٍ.

سألَ أغنَس " هل ستأتين إلى مزرعة الثعالب؟ "

" كلا، سأعتني بالعمّة فرانسيس. إنها تضغط على أعصاب أمي بتذمُّرها من المرجل الجديد "

كانت مزرعة الثعالب الفضية تقع خلف الإسطبلات، وهي عبارة عن صف طويل مزدوَج من الأقفاص السلكية، وكانت أرضياتها من الأسلاك المكسوة بالتراب والرماد لمنع الحيوانات من نبش الأرض والخروج. كانوا يعيشون أزواجاً، بعضها كان مُدجّناً بشكلٍ معتدل ولكن لم يكن من الحِكمة الوثوق بها. وقد تعرَّضَ تيدي وبن هاكيت - اللذان كانا يساعدان في العناية بها - للعضّ الخطير أكثر من مرة في ذلك الشتاء.

عندما شاهدت تيدي قادماً بالأرانب هرعت إلى الأبواب. بدت الثعلبة التي كانت قد فقدت ذيلها أسوأ حالاً بسبب ذلك الحادث.

استعرضَ تيدي عهدته بفخرٍ وحب. كان يأمل، بوساطتها، أنْ يُعيدَ ذات يوم إلى هيتون مجدها الذي تمتَّعتْ به أيام قريبه توني.

٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٦

شخصيات قلقة في علاقات متشابكة، وحوارات صعبة، متواصلة، في مجتمع يمور بالحركة، وفي كل مرة تتغير المواقف، والعلاقات الشخصية حينما تصطدم بحواجز صلبة.

ISBN:2-84305-962-X
9 782843 059629